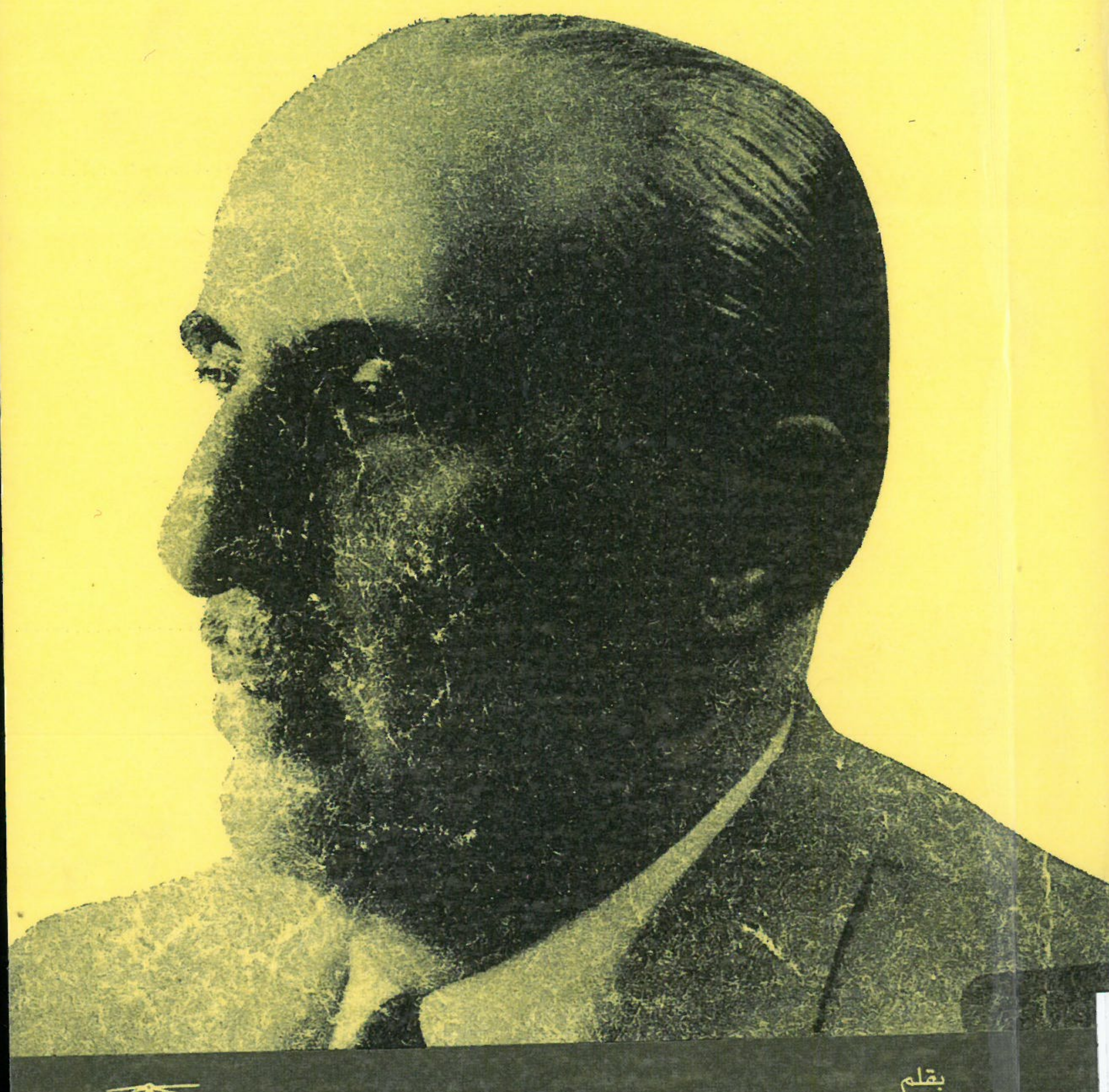
شكرى القوتلى

تاريخ أمة فى حياة رجل



بقلم

عبد اللطيف يونس

دار المعارف بمصر

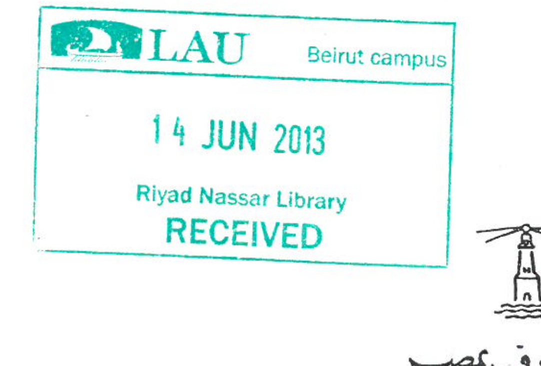
تاريخ أمة فى حياة رجل

١٩٠٨ — ١٩٥٨

شكرى القوتلى

بقلم

عبد اللطيف اليونس



دار المعارف بمصر



ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

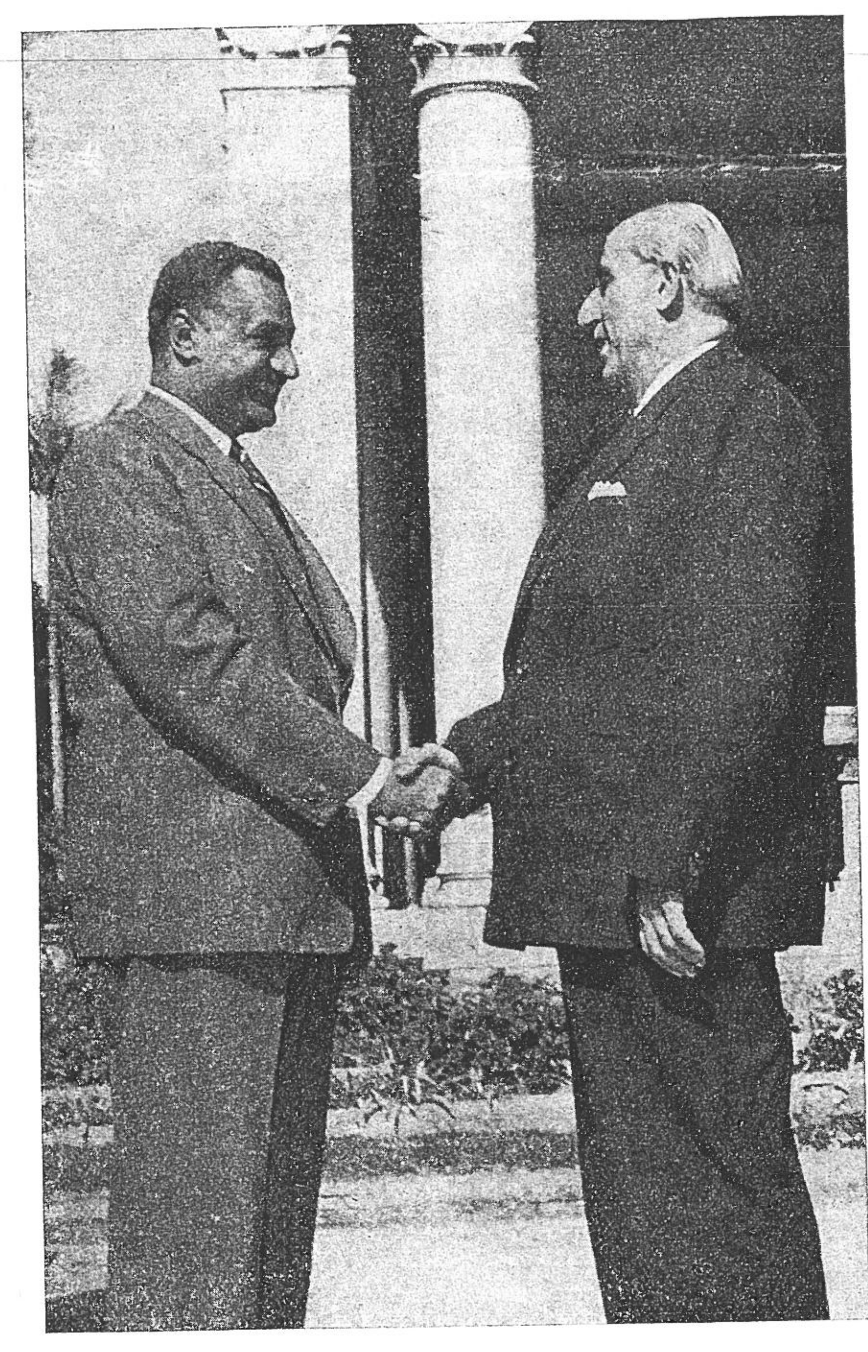
الإهــداء

إلى رسول القومية العربية . . .

وجامع كلمتها . . .

وباعث نهضتها . . .

سيادة الرئيس جمال عبد الناصر



هذى يدى عنْ بنى مصر تُصَافحكمْ   فصَافحوها تصافح نفسها العربُ

تمهيـــد

هذا كتاب لا أريد أن أمهدَ له ، ولا أنْ أعرِّفه إلى القراء . فهو يُمهد لنفسه بنفسه ، وعُنوانه خير تعريف له .

وإنما أريد أن يطمئن القارئُ الكريم ، إلى أننى لم أتأثر فيه بعاطفة أو هوى — إلا عاطفة الإخلاص للفكرة ، والأمانة بنقلها إلى القرّاء .

وما أبرّئ نفسى من التأثر بشخصية القوتلى ، والإعجاب بها . فللرجل شخصية وديعة قوية آسرة .

وحياته حافلة بكل ما تحفل به حياة مواطن كريم، أوتىَ سلطةً ونفوذًا ، ومرت عليه أحداث الزمان ، وتقلبات الأيام ، وحفلت طريقه بالأوراد والأشواك ، وحلب شطرَىْ الدهر : حلوَه ومره ، وعرف وفاءه وغدره ، واستقامته ومكره . ورغم ما مر عليه ، وما لقيه ، فقد ظل فى مكانه شامخاً كالطود ، كالنخلة الباسقة ، لها على الناس فضل الثمر ، ومنّة الفىء . وجلس على أسمى أريكة فى بلاده ، وتربع على عرش الزّعامة فيها .

ولم تستطع الأحداث أن تزحزحه عن مكانه ، ولا أن تضعف من شأنه ، وظل يعطى الناس من قلبه ، ومن روحه ، حتّى سمت تضحيته الأخيرة على كل تضحية ، وطغت مثاليته على كل مثالية .

رجل يُقدم على الانتحار — فى صباه — ليحتفظ بأسماء رفاقه فى الجهاد ، ويفضّل الموت على أن يبوح باسم واحد منهم . ويتبرع بكل رواتبه لأعمال البرّ والخير والإحسان ، حتّى إن درهماً واحدًا لم يدخل جيبه ، من خزانة الدولة ، طيلة مدة رئاساته الثلاث . ويتخلى — آخر الأمر — عن منصبه الرفيع ، فى سبيل « وحدة » عمل لها ، ورسالة آمن بها .

أخبار — كأنها « أسطورة » ، ولكنها صحيحة لا يتطرق إليها الشك ، وواقع لا يطاله سوء الظن .

أجل . . إننى لا أبرّئ نفسى من التأثر بشخصية القوتلى ، والإعجاب بها ، وقد استهوتنى هذه الشخصيّة منذ أن دخلت معترَكَ السياسة ، وبدأت أدرس سيَرَ الرّجال . ولولا أنها استهوتنى ، وأثرت فىّ ، لما حملت نفسى عناء التأليف ، وقضاء بضعة أشهر بين الكتب والمذكرات ، والضبوط ومجموعات الصحف ، ولما غرق بصرى فى بطونها أياماً طويلةً يتتبع أثراً ، ويستطلع خبراً .

ولكن هذا التأثر لم يخرجنى عن جادة الحق ، ولم يحملنى على التحزب والتطرف ، وإنما حملنى على الحياد والاعتدال ، وعلى تقصّى الحقيقة ، والتقيد بها .

فالرجل نزيه ومتجرّد . وكل كتابة عنه يجب أن يكون فيها شىء من خلقه ومن طبعه، ويجب أن تأتى نزيهة ومجردة . هذا ما يريده صاحب هذا القلم ، وما يتفق مع خطته فى الكتابة والتأليف .

وإذا كان هذا القلم قد جنح فى بعض المواقف القومية إلى التوسع فى التصوير ، والحماسة فى التعبير ، فذلك لا يمس الأمانة التاريخية ، ولا ينال من قدسيتّها ، ولا يسىء إلى جوهر الموضوع فى شىء .

ثم : إن حياة القوتلى طويلة وعريضة ، وحافلة بما يملأ عدة مجلدات ضخام . وليس من الممكن أن نتابع سيرة حياته بدقة رتيبة ، وأن نقف عند كل حادثة منها . ذلك عمل طويل ، وجهد مضْن ، يستنفد وقت القارئ المرهق ، والمؤلف الأكثر إرهاقاً .

ولذلك عمدنا إلى دراسة حياته ، والوقوف عند النقاط الرئيسية منها . وسرنا معه فى طريق طويلة منذ صباه إلى حين تخلّيه عن منصب رئاسة الجمهورية ، نستعرض الحوادث الهامة التى عرضت له ، أو مرت من حوله ؛ والتى تأثرت به ، أو تأثر بها .

ولما كان له أثر فى أكثر الأحداث السياسية التى مرت على سورية خلال نصف قرن ، والأحداث التى مرت على العالم العربىّ المحيط بسورية ، فقد كان من البديهى أن يكون تاريخه تاريخاً لتلك الأحداث ، وأن تكون دراسة حياته

دراسةً لها جميعاً . وقد ربطنا هذه الأحداث بعضها مع بعض فى سياق واحد ، وتسلسل دقيق .

وهكذا خرج الكتاب ، وفيه دراسة واستعراض لجميع الأحداث العربية الهامة من سنة ١٩٠٨ — ١٩٥٨ .

وبعد — أيها القارئ الكريم — إننى لا أدعى لهذا الكتاب الكمال ، ولا أزعم أننى جئت فيه بمعجزة، ولكننى أستطيع الجزم بأننى لم أدخر وسعاً ، ولم آل جهداً ، فى تحرّى الحقيقة ، والتنقيب عنها ، والسعى وراءها هنا وهناك . فإن بدت لك فى هذا الكتاب بعض الثغرات ، فإن الكمال لله وحده ، وهو من وراء القصد .

عبد اللطيف اليونس

أقوالهم فى الرئيس شكرى القوتلى

أيها المواطنون . . .

لابد من أن أذكر لكم جهاد الرجل العربى الذى جاهد فى سبيل الوحدة العربية مدة تزيد على الخمسين عاماً .

أتحدث إليكم عن جهاد شكرى القوتلى الذى حارب فى سبيل استقلال بلاده ، وفى سبيل استقلال وطنه . حارب فرنسا ، وسجن ، وحكم عليه بالإعدام . حارب من أجل القومية العربية ، ومن أجل الوحدة العربية . فإذا كنت أهنئكم اليوم فإننى أهنئ شكرى القوتلى الذى استطاع أن يحقق الآمال .

أيها المواطنون . . .

بهذه الصفات ، وبهذه القيم ، نستطيع أن نثبت المبادئ ، وأن نثبت المثل العليا . على هذه المثل ستسير الجمهورية العربية قدماً إلى الأمام ، وراء المثل العليا ، التى بناها ، وعبر عنها ، وأظهرها ، شكرى القوتلى .

فباسمكم جميعاً أتكلم إلى أخى الأكبر شكرى القوتلى . وأقول له : إننا جميعاً نحييك . وإننا جميعاً نحيي جهادك . وإن الشعب العربى فى كل مكان سيذكر على مرّ الزمن ما قمت به ، وإن الجمهورية العربية المتحدة هى خير هدية نقدمها لك اليوم ، بإعلان مولدها ، لأنها هى النتيجة الكبرى لجهودك فى سبيل الوحدة العربية ، وفى سبيل القومية العربية .

جمال عبد الناصر

من خطاب سيادته يوم إعلان الجمهورية
العربية المتحدة بالقاهرة فى ١ / ٢ / ١٩٥٨

لقد استقبلنا فى هذه المدينة عدة شخصيات كبيرة فى الماضى ، وسمعنا خطابات رسمية كثيرة . ولكن من حسن حظنا أننا لم نستمع من فخامة الرئيس القوتلى إلى خطاب رسمى ، بل إلى كشف سياسى بليغ ، له أهميته الخاصة التى لن تقتصر على غربى آسية فحسب بل تتعداها إلى العالم كله .

لقد كشف فخامة الرئيس القوتلى عن سير الأحداث فى الشرق وليس هناك شخص أجدر من الرئيس القوتلى بالتحدث عن أحداث آسية الغربية وعرض مشاكلها ، وهو المعروف بماضيه الطويل فى النضال ، من أجل الحرية والاستقلال .

نهرو

رئيس وزراء الهند

(من خطاب لسيادته فى حفلة تكريمية أقيمت للرئيس القوتلى حين زيارته الهند فى مطلع سنة ١٩٥٧) .

يسرنى بالغ السرور أن يتسلم مقاليد الرئاسة رجل عرف بصدق عزيمته ، وعظيم إخلاصه لوطنه ، وحرصه على مصلحة بلاده ، ومصلحة البلاد العربية بأسرها ــ صاحب الفخامة الرئيس شكرى القوتلى . وإنى أسأل الله القادر على كل شىء أن يمده بمعونته حتى يحقق أفضل الأمانى المعقودة على رئاسته الجديدة .

هاشم الأتاسى

(من خطاب لفخامته بمناسبة انتهاء مدة رياسته وانتخاب القوتلى رئيساً للجمهورية فى ١٨ / ٨ / ١٩٥٥)

شكرى القوتلى رمز الوطنية الحقة ، والعروبة الصادقة ، والجهاد العظيم ، وهو يضم إلى مقامه السامى الرفيع تاريخاً حافلا بجليل الأعمال ، حاملا إكليل النضال والكفاح ، فى خدمة أمته ووطنه .

بشارة الخورى

(من خطاب لفخامته فى القصر الجمهورى بدمشق فى ٧ / ٦ / ١٩٤٦)

. . . وفى الحق أن هذا الكتاب ذخر نفيس من المبادئ الوطنية العالية ، التى اعتنقتموها منذ فجر الشباب ، وكافحتم من أجل إرساء قواعدها ، وتحملتم ما تحملتم فى سبيل قيامها ، بنياناً موطد الأساس ، مدعم الجنبات ، يشهد العالم العربى الآن حقيقة الوحدة التى قامت بين شعبين عربيين متحررين من كل سيطرة .

وإن هذه الخطب لترسم إلى جانب هذه المبادئ مناهج بصرتم بها أبناء العروبة ، ووضحتم سبلها ، خلال القيادة الحكيمة التى سستم بها سورية فى أعظم حقبة من التاريخ مليئة بالأحداث ، وهى مبادئ ستظل نبراساً لكل عربى يؤمن بحق العروبة ، ويعمل من أجل الحرية والسلام .

عبد اللطيف البغدادى

نائب رئيس الجمهورية

(من رسالة سيادته بتاريخ ٥ / ٦ / ١٩٥٨ لفخامة القوتلى . . . . . . الرئيس شكرى القوتلى)

. . . وإن رائدنا الرئيس شكرى القوتلى ، وهو من زكت نفسه التضحية ، وملأ قلبه الإيمان ، وتوجت هامه سلسلة الأمجاد السياسية ، حمل آمالنا فى الحرية والكرامة والاستقلال والجلال ، وجاء اليوم يحمل أمنيتنا فى تحقيق وحدتنا ، فاللهم اشهد أنه قد حقق الرسالة، وأدى الأمانة ، فله تقدير الوطن ، ومشارف المجد ، وهامات الخلود .

أكرم الحورانى

نائب رئيس الجمهورية

(من خطاب لسيادته بتاريخ ٥ / ٢ / ١٩٥٨ فى مجلس نواب سورية)

استمع أعضاء مجلس الأمة إلى الرسالة الكريمة التى وجهها فخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية إلى مجلس الأمة ، والتى تفيض بأنبل المشاعر ، وأصدق الأحاسيس، وتعبر عن روح قومية ، وعقيدة مخلصة أشربت حب الوطن العربى ، والرغبة المؤمنة الصادقة فى البذل والتضحية من أجل وحدة الأمة العربية .

وإن مجلس الأمة ليتجه بالتهنئة إلى الرئيس شكرى القوتلى الذى استحق بجهاده المتصل وتضحياته الكريمة ، تقدير الأمة العربية ، أن وفقه الله إلى تحقيق ما جاهد من أجله منذ فجر حياته .

وإن الموقف الوطنى الرائع الذى يقفه الرئيس شكرى القوتلى فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ الأمة العربية بترشيحه السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة — لهو الرمز الخالد ، والمثل الحى ، لروح باذلة مضحية مؤمنة مدركة .

مجلس الأمة
مصر

(من قرار مجلس الأمة المصرى فى ٥ / ٢ / ١٩٥٨)

إن المثل الرائع الذى ضربه فخامة السيد شكرى القوتلى بصدق جهاده ، وعميق إيمانه ، وعظيم إيثاره ، سيظل الهدى الذى تهتدى به أجيال الأمة العربية .

مجلس النواب السورى

(من قرار مجلس نواب سورية فى ٥ / ٢ / ١٩٥٨)

شكرى القوتلى رجل من رجالات العروبة الخالدين الذين وهبوا حياتهم من أجل تحقيق الفكرة العالية — ألا وهى فكرة القومية العربية .

أنور السادات

(من خطاب لسيادته فى سورية بعد إعلان الوحدة — نشر فى جريدة القبس الدمشقية فى ٢٧ / ٢ / ١٩٥٨)

إن أخى شكرى القوتلى رجل من أخلص رفاقنا لقضيتنا القومية وأعمقهم إيماناً بها ، وأجدرهم بالثقة ، وأبعدهم عن الأثرة .

فإذا احتجت إلى أمر من الأمور — بعد عودتك إلى الوطن — فراجعه فيه . وإذا قدّر لك أن تخدم وطنك عن طريق السياسة ، فإنى أوصيك بالعمل معه لأنه خير من يُعتمد عليه .

عارف الشهابى

من رسالة الأمير الشهيد عارف الشهابى إلى شقيقه الأمير مصطفى الشهابى سنة ١٩١٥

سيدى صاحب الفخامة . . .

ائذن لى فى أن أرفع إلى مقامك الكريم أصدق الشكر على هذه الرعاية الكريمة التى تفضلت بها على مؤتمر الأدباء ، حين افتتحته ، وحين تكلفت الجهد والمشقة باختتامه . وإنى لأسعد الناس حين يتاح لى أن أتحدث إلى هؤلاء الزملاء بمحضر من فخامتكم ، فهذا شرف عظيم ، أظننى أقل من أن أستحقه .

ائذن لى أيضاً فى أن أكون كغيرى من الأدباء طموحاً ، شديد الطمع ، منتهز الفرص . فهذا الفضل الذى أوليته لمؤتمر الأدباء مفتتحاً له حين بدأ ، ومختتماً له حين أتم أعماله ، هذا الفضل العظيم لا نكتفى — نحن الأدباء — بشكره ، فالشكر قليل . والذى أعرفه من إخلاص فخامتكم أنكم لا تحفلون كثيراً بالشكر ، وإنما أسجل هذه العناية على أنها بادرة خير فى هذا العصر الحديث .

طه حسين

(من المحاضرة التى ألقاها فى مؤتمر الأدباء العرب فى « بلودان » فى يونيو سنة ١٩٥٦)

. . . وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى اتحاد من نوع آخر . . اتحاد لم ترسمه مصر ، ولكن رسمه ووضعه زعيم عربى عزيز . . . كافح طويلا ، وعمل طويلا ، طويلا ، فى سبيل قيام اتحاد بين كافة دول العرب ، وأجزاء شعب العرب العريق . . وما زال حتى الآن يكافح ويناضل فى سبيل تحقيق هذه الأمنية العزيزة لخير البلاد العربية جمعاء .

إنه زعيم لم يتعرض للحساسية التى طغت على نفوس الكثيرين . إنه الزعيم شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية الشقيقة .

كان يومها يقيم فى ثغر الإسكندرية . وكنت أتشرف بلقائه بين وقت وآخر لأنهل من خبرته ، ومن وطنيته ، ومن إيمانه . . .

صلاح سالم

(من مذكرات سيادته التى نشرت فى جريدة الشعب ونقلتها جريدة القبس فى ١٢ / ٥ / ١٩٥٦)

لقد مرت أجيال على العروبة وهى منكمشة فى خدرها ، تشكو قحطها من الفحول ، وتبكى لعقمها من المغاوير ، وتندب أبطالها الذين حفل بسيرهم تاريخها ، وتفوقوا بمزاياهم النفسية ، وخوارق أفعالهم ، على ما اخترعه سائر الأمم من بطولات أسطورية . . حتى دار الزمن دورته القدرية ، ولاحت أقاحى فجر جديد، كفكفت فيه العروبة دمعها، وطوت منديلها ، إذ شرعت تجدد شبابها . وشرعت منذ أواخر القرن الماضى ، أو أواسطه ، تطلع الكواكب ، وتنجب الأقمار . وتلد أفذاذ الرجال — أدباء وعلماء ، وجرأة وثورة على الظلم والظالمين ، والاستعمار والمستعمرين . حتى أتأمت فى الزمن الأخير فرقدين ، توهجت بمطلعهما سماؤها ، وانجابت ظلماتها ، وتباركت يقظتها ، ووضح نهجها ، وتسددت خطاها ، وجرت قدماً إلى استكمال حريتها ، واستتمام وحدتها .

أما هذان الفرقدان الأخوان — فقد أصبحا لا يحتاجان إلى تعريف ، بعد أن ضج بذكرهما الخافقان ، وأزاغ نورهما أبصار مستعبدى الشعوب ، وخانقى الحريات . ولكننا نتفوه باسميهما الحبيبين استحلاءً واستعلاء — ألا وهما شكرى القوتلى ، وجمال عبد الناصر .

شكرى — الذى قتل تنين الأنانية الهائل ، فنسف بهذا الانتصار الأخلاقى العظيم ، أكبر جبل كان يعترض تيار العروبة ويحول دون وحدتها المنشودة . وضرب فى التضحية أعلى مثل للأجيال العربية الطالعة . وأخوه جمال عبد الناصر الذى تسلم من يده الأمانة العظمى ، وحملها بيد الرسول المصطفى — جارياً بها إلى آخر الشوط ، إن شاء الله .

الشاعر القروى

(من كلمة نشرت فى جريدة الفيحاء الدمشقية فى ٢٥ / ١١ / ١٩٥٨)

شكرى القوتلى — العربى لحماً . . . وروحاً . . .ودماً . لقد سعدت بمعرفته ، ومقابلته أكثر من مرة . ولكننى لم أشهده موفور العافية ، متألق الملامح ، شاهق البنيان — كما رأيته يوم زرناه .

وسألت نفسى : « ما هو يا ترى الفيتامين الذى يستعمله ؟ » فكان جواب الهاتف : « هو الإيمان » .

الإيمان بالعروبة وبالعرب ، بالوحدة أو بالتوحيد أو بالاتحاد . . . خمسون عاماً من أعوام الكفاح والنضال . والسجن والإعدام . والنفى والتشريد والعنت — تتكلم .

نصف قرن كله تضحيات — من عهد السلطان عبد الحميد ، إلى عهد الاستعمار الفرنسى ، إلى عهد الفتن الداخلية ، ومن الحرب العظمى الأولى ، إلى الثانية .

وأنت تحس فى حديثه السجون . . المشانق . . المذابح . . الدماء . . الأشلاء . . الشهداء . .

والرجل يكفهر ويزمجر ، ويبرق ويرعد . . ثم يصل إلى الوحدة . . فتنفرج الأسارير ، وينتعش ، ويمرح ، ويبتسم .

قلت له : « أليس حراماً أن تطوى هذه الذكريات . . الذكريات الفاخرة المجيدة ، وأن لا تنشر . . تاريخ جهاد المدينة الخالدة ، وزميلاتها . . جهاد الشعب الخالد . . رفاقك الشهداء . . أين مذكراتك ؟ »

قال : « إنها تحت الإعداد » .

قلت : « بالله أسرع . أسرع . نريد أن نقرأ هذه الروح . . ونريد لشبابنا أن يدرس ، وأن يحفظ وأن يطبق ، وأن يقتفى الأثر » .

فكرى أباظه

(من كلمة نشرت فى مجلة المصور فى ٢١ / ١١ / ١٩٥٨)

. . . إننا نختار لسنة ١٩٥٨ رجلا لم يقم بانقلاب ، ولا يجلس فى مقعد الحكم ، ولا ينشر اسمه الآن بالعنوانات الضخمة فى الصفحات الأولى من جرائد العالم ، ولا تذكره محطات الإذاعة فى نشراتها ، ولكننا نعتقد أن هذا الرجل أثر فى عام ١٩٥٨ أكثر من أى رجل سواه ، وضرب مثلا لم يسبقه إليه عربى آخر فى المنطقة كلها .

هذا الرجل هو شكرى القوتلى .

كان رئيس جمهورية سورية ، وضحى بمقعد الرئاسة فى سبيل الوحدة .
وكان هو أول العاملين لها ، المناضلين من أجلها . وكنت تراه فى اجتماعات الوحدة متعجلا لها ، ملحاً فيها ، وكأن هذا لا يعنى أنه سيصبح بعد تحقيقها بلا منصب ، ولا نفوذ ولا رئاسة ، وهو يفعل ذلك بروح المؤمن بالرسالة ، السعيد بأن يضع حجراً فى بناء حلم عظيم . وموقف هذا الرجل هو الذى حقق قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وقيام الجمهورية هو الذى أدّى إلى انتصار ثورة العراق ، وإلى الانتصارات التى حققتها القومية العربية سنة ١٩٥٨

ومن أجل هذا نرشحه رجل سنة ١٩٥٨ . . .

مصطفى أمين

(من كلمة نشرت فى جريدة أخبار اليوم فى ١٠ / ١ / ١٩٥٩)

. . . يرتفع الستار على مشهد فى مكتب خروشوف فى الكرملين ، فى موسكو عاصمة الاتحاد السوفياتى .

حول مكتب كبير يجلس خروشوف ، وبولجانين ، وجوكوف الذى كان وقتها ماريشال الاتحاد السوفياتى ، وقائداً لقواته فى البر والبحر والجو .

أمامهم على المكتب جلس السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية فى ذلك الوقت ، وكان يقوم بزيارة رسمية للاتحاد السوفياتى فى نفس الأيام التى بدأ فيها العدوان الثلاثى على مصر .

شكرى القوتلى هو الذى يتحدث . إنه يتكلم عن خطورة الموقف فى الشرق الأوسط ، وعن ضرورة عمل شىء ، أى شىء وكل شىء ، لمساعدة مصر فى معركتها ؛ ثم لوح شكرى القوتلى برسالة فى يده كان قد تلقاها ذلك الصباح من الرئيس جمال عبد الناصر ، من القاهرة ، مع رغبته فى إبلاغ مضمونها لقادة الاتحاد السوفياتى ، وأنهى شكرى القوتلى حديثه بقوله :

« ما لم يثبت الاتحاد السوفياتى فى هذه الأزمة ، بالأفعال لا بالأقوال ،

أنه يؤيد كفاح العرب فإن هيبته تضيع ومكانته فى آسيا وأفريقيا تصاب بضربة كبيرة » .

الارشال جوكوف يتدخل فى الحديث ، ويوجه كلامه إلى السيد شكرى القوتلى يسأله :

هل تستطيع أن تقول لى : ما هو خير طريق نستطيع به أن نساعد مصر فى هذه المعركة ؟ . .

وردّ شكرى القوتلى بسرعة ، بلهجته الدمشقية المعروفة :

« مارشال جوكوف . . مارشال جوكوف ، هل تنتظر منى أنا ، أن أقول لك أنت ، وأنت الخبير العسكرى الذائع الصيت ، والقائد الذى خاض المعارك ، كيف تستطيع أن تساعد مصر فى المعركة الدائرة الآن ؟

« شو ها الحكى » .

أى بعد ترجمتها من اللهجة الدمشقية : ما هذا الكلام ؟ !

مشهد مثير ومشوّق ، ثم هو مشهد حقيقى يصلح بداية لفصل .

محمد حسنين هيكل

(من كلمة نشرت فى جريدة الأهرام فى ٧ / ١٢ / ١٩٥٨)

آ ل القوتلى فى دمشق

منذ ستة قرون ونيف ، نزح من بغداد إلى دمشق أحد الأعيان المرموقين ، وشكل أسرة كبيرة عرفت باسم « النحاس » — وهو الاسم الذى كانت تعرف به فى العراق . ثم طغى عليها فيما بعد لقب « القوة » الذى اشتهر به مؤسس الأسرة ، فكانت عنواناً له ، ومرادفاً لاسمه ، وأصبحت « علماً » ، بعد أن كانت « لقباً » .

وهكذا عرف « آ ل النحاس » فيما بعد ، باسم « آ ل القوتلى » .

ومنذ أن سكنوا فى دمشق ، وعرفوا فيها ، عرفوا بالصلاح ، والاستقامة ، وحب الخير .

وكان لهم فى المجتمع العربى مكان بارز ، ووجاهة مرموقة — حتى إن الخديو إسماعيل حينما دعا رؤساء الدول ، والشخصيات العالمية الكبيرة ، لحضور الاحتفال بتدشين « قناة السويس » سنة ١٨٦٩ كان محمد سعيد القوتلى — شقيق جد شكرى القوتلى — فى طليعة المدعوين من رجالات العرب .

وعندما حلّ إبراهيم باشا فى دمشق ، وهو يقود الجيش المصرى ، فى زحفه المظفر على تركيا لم يجد داراً تسره ، وتصلح لإقامته ، غير دار آ ل القوتلى التاريخية فى « سيدى عمود » ، فقدموها له — حيث اتخذها مقراً لإقامته ، داراً للحكم . وقد أحرقت هذه الدار فى الثورة السورية . وهدم الفرنسيون ما بقى منها .

ويروى الأستاذ محمد كرد على فى مذكراته أن والده كان يقول له : « يابنى إن النساء قد يلدن مثل عبد الغنى القوتلى — طيباً وكرماً . أما أن يلدن أكثر منه طيباً وكرماً — فلا » .

وسيرة محمود القوتلى ، والد شكرى القوتلى ، كسيرة جده عبد الغنى — تقى وصلاحاً ، ووجاهة ، وكرماً .

نشأة شكرى القوتلى

فى هذا البيت النبيل المرموق ، ولد شكرى القوتلى فى ٢١ تشرين الأول سنة ١٨٩١ ، وفى كَنَف هذه الأسرة العريقة نما وترعرع ، ونشأ وشبّ .

نشأ نشأة كريمةً ، فى بيت عربىّ كريم .

وحدث له قبل أن يبلغ سن العاشرة حادث كان له صدى عميق فى نفسه ، وتأثيرٌ كبير فى حياته ، وكان من القواعد الأساسية التى بنيت عليها شخصيته ، وكوّنت اتجاهه ، وغرست فى نفسه حب أمته ، والعمل على إنقاذها من براثن المغتصب ، ورفع مستواها .

كان فى بيت أحد أقربائه مكتبة عامرة يختلفُ إليها بين وقت وآخر ، وكان — كسائر الأطفال — شديدَ الولع بقراءة القصص التاريخية ، التى تزخر بالبطولات والأساطير . واستلفت نظره كتاب للأستاذ « محمد فريد » يروى أخبار الفتوحات العربية ، بأسلوب شغله وأذهله . وكان يقرؤه بصورة طبيعية وعلنية ، وإذا بقريبه يدخل عليه ، وينتزع الكتاب من يده بعنف ، ويسأله زاجراً : « من أعطاك هذا الكتاب ؟ » ، فأجاب بأنه عثر عليه فى المكتبة — وقال : « لماذا تمنعنى من قراءته ؟ » . فقال له قريبه : « ألا تعلم أن الأتراك يحاسبوننا على اقتناء تاريخ عربىّ ؟ » . وأصر عليه ألا يخبر أحداً من رفاقه أنه عثر عنده على كتاب يبحث فى تاريخ العرب .

وكان ذعر قريبه ، واضطرابه ، وإلحاحه ، وتوصيته إياه أن يكتم أمر الكتاب عن كل إنسان — باعثاً على خلق شعور قوىّ فى نفسه ، وتساؤلٍ ملحّ عن أسباب هذا « المنع » ، وبواعثه ، ودوافعه — وقديماً قيل : « أحب شىء إلى الإنسان ما منعا » .

وذهب إلى والده يخبره عما حدث معه ، ويسأله مزيداً من الإيضاح .

وأفضى إليه والده بأخبار ، أثارت دهشته ونقمته ، وغيرته وعاطفته . . .

حدثه عن سياسة الأتراك الرامية إلى « تتريك » العرب ، وقتل « قوميتهم » ، وصهرها فى بوتقة القومية التركية ! ثم أخبره أن الأتراك يحاربون اللغة العربية ، ويحرمون على الطلاب العرب قراءة تاريخهم الحافل بالأمجاد ، والعصور الذهبية : عصر الأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين ، والأندلسيين . ولا يسمحون إلا بقراءة تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين . . وأن الطلاب لا يدرّسون شيئاً من تاريخهم قبل السنة التى يدرسون فيها البكالوريا ، حيث تُعطى لهم معلومات — باللغة التركية — مختصرةً ومشوهة .

وانتفض « الصبى » كأن تياراً كهربائياً مس جسده . واستيقظت فى نفسه كوامن الحب الغريزى لأمته وبلاده . وتأججت فى نفسه شعلة الوطنية ، وجذوة القومية . والتفت يرجو والده أن يضعه فى مدرسة تعلم اللغة العربية ، وتفسح للطالب مجالا لمعرفة تاريخ بلاده ، والاطلاع على سيرة قومه .

وسر والده لهذه العاطفة المتدفّقة تظهر من ابنه الحدث ، ومن هذا الوعى المبكر ، يبشر بمستقبل زاهر ، ونهضة متوخّاة .

وأدخله مدرسة « الآباء العازاريين » . وكانت هذه المدرسة ، وأمثالها ، تعنى بتعليم اللغة العربية ، ولها من الامتيازات ما يجعلها فى نجوة من مراقبة الأتراك ، ونقمتهم ، وسيطرتهم .

وهكذا أتيح للفتى الناشئ جوٌّ ملائمٌ لتطور عقليته ونفسيته ، والإلمام بلغته العربية إلمامةً مكنته من الاطلاع على حقائق كانت مجهولة عنده ، وخافية عليه ؛ وأنْ يعبّ من معين التاريخ الذى منعه قريبه منه — ما شاءت له الرغبة والعاطفة ، ومكنه الظرف والدرس .

وتفتحت عقليته لأشياء كثيرة . عرف أن بلاده مستعمرة ، وأن قومه مستعبدون ، وأن بغى الأتراك قد وصل بهم إلى حد يمنعون معه من تعلم لغتهم ، ودراسة تاريخهم .

وازداد كرهه للأتراك ، وازدادت نقمتهُ عليهم . وتولدت فى نفسه « عقدة » :

هذا الشعب الذى حُرِمَ الحرية والاستقلال ، يحرّم قراءة تاريخه ، ودراسة لغته ، والاطلاع على سيرة قومه وأمجاد أمته . .

وعقد العزم على السعى لتحرير بلاده من نير العبودية ، وتخليص قومه من ربقة الهوان والاستعمار .

وبعد أن حصل على « الشهادة الابتدائية» من مدرسة « الآباء العازاريين » ، انتسب إلى « المدرسة الإعدادية » فى دمشق — ثانوية عنبر — حيث أتم دراسته الثانوية فيها ، وحصل على شهادتها ؛ واشترك فى مسابقة « للكلية الشاهانية » فى استنبول . وكانت أرقى مدرسة للعلوم السياسية والإدارية ، فى المملكة العثمانية .

ومن بين ٣٥٠ طالباً كان الخامس بين الناجحين . وأخذ من بين الفائزين الأول ، أربعون طالباً — كان واحداً منهم .

وكان خلال هذه الفترة يعمل على توثيق صلاته مع رفاقه الطلاب ، ويقرأ لهم نبذاً من تاريخ أمتهم ، يهيج بها كامن الشعور فى نفوسهم ، ويبعث فيها لهب العاطفة والإحساس ، فتضطرم عاطفتهم ، ويستيقظ إحساسهم . ويُصبحون مثله حاقدين ناقمين متحفزين .

بروز الفكرة العربية

التحق شكرى القوتلى بـ « الكلية الشاهانية » سنة ١٩٠٨ وكان تاريخ التحاقه تاريخاً حافلاً بالأحداث والوقائع ، فكأن الأحداث كانت معه على موعد . إذ فى تلك السنة أعلن الدستور العثمانى . وفى تلك السنة بدأ النشاط العربى على نطاق واسع — فى أساليب مختلفة ، ومناهج متعددة . وبدئ بطباعة الكتب العربية ، ونشرها وتعميمها .

« وقامت على أثر الدستور العثمانى فى الآستانة جمعية "الإخاء العربى" باسم العرب . واندمج فيها شباب ونواب ورجال من مختلف البلاد العربية . ولقد تكتل نوّاب العرب ، وشيوخهم ، فى البرلمان العثمانى ، وكانوا مزيجاً

من الشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين فى كتلة نيابية عربية للدفاع عن حقوق العرب ومصالحهم »[1] .

وتأسس المُنتدى الأدبى فى استنبول الذى كان باكورة العمل العلنى المنظم للشباب العربى ، ومن أكبر مقوّمات الفكرة القومية التى كانت تضطرم فى نفوس العرب ، وتنتظر الفرصة المواتية لتثب ، وتبرز إلى الميدان .

وضم المنتدى الأدبى نخبة من الشباب العربىّ المخلص المتحمس ، كانوا يجتمعون فى مكان خاص للمُنتدى ، يتبادلون فيه الرأى ، ويتشاورون ، ويسعوْن لتعميم فكرتهم ، ونشر دعوتهم . وكانت الاجتماعات تجرى فى سرية تامة ، وراء اسم « المنتدى » ودعوته .

وبفضل جهود شكرى القوتلى ، وجهود إخوانه ، وبفضل تنظيمهم ، وحسن تدبيرهم ، استطاع « المنتدى الأدبى » أن يثبت أقدامه ، وأن يمارس نشاطه — من سنة ١٩٠٩ — ١٩١٥ ، وأن يسير فى الطريق المرسومة له ، باتّئاد واتزان ، وسرية وإتقان ، « واندمج فيه أيضاً شباب ونواب ، ورجال من مختلف الأنحاء العربية . وكان بيتاً عربياً شديد النشاط فى مجال الفكرة العربية القومية ، والدعوة إليها . ودأب على الإشادة بأمجاد العرب ، وتطوير الفكرة العربية إلى حركة فعلية ، تهدف نحو كيان عربىّ قومىّ عام ؛ وتدافع عن مصالح العرب وحقوقهم — كمجموعة قومية واحدة »[2] .

وتألفت جمعيات قوميّة سرية — مثل « الجمعية القحطانيّة » ، و« جمعية العهد » ، وجمعية « العربية الفتاة » واللامركزية ؛ وكانت تهدف كلها إلى مقاومة الأتراك ، وسيطرتهم على البلاد العربية . وكان « المنتدى الأدبى » النواة الأولى لها جميعاً ، والمنظّمة التى يختبئ وراء مظهرها الأدبى كل الحركات ، والترتيبات ، والتصاميم . وكانت جمعية « العربية الفتاة » أشد تلك الجمعيات أثراً ، وأعظمها خطراً ، وأكثر انتشاراً ، وأحفلها بالمنتسبين والعاملين . وقد

(١) من كتاب « الوحدة العربية » للأستاذ عزة دروزه .

(٢) نفس المصدر .

أسست — سنة ١٩٠٩[1] — فى باريس ، لجمع شمل العرب ، ولمّ شتاتهم ، وحشد إمكانياتهم الروحية والمادية . وكانت الدعامة الأساسية لفكرة التكتل والمقاومة ، وحجر الزاوية للثورة العربية الكبرى ، والأساس الذى تقوم عليه كل نهضة قومية ، ترمى إلى توحيد كلمة العرب وتوجيههم ، وتمكينهم من استعادة حريتهم واستقلالهم .

وانتشرت جمعية « العربية الفتاة » انتشاراً واسعاً فى كل الأقاليم العربية ، بفضل سريتها ، ودقة تنظيمها ، وحيوية القائمين بها ، والمشرفين عليها .

وكان شكرى القوتلى أحدَ العاملين فيها ، والموجهين لها .

وفى سنة ١٩١٣ أنهى القوتلى دراسته ، وحصل على شهادة « الكلية الشاهانية » بتفوق ، وعاد إلى دمشق .

القوتلى يتمرد على التقاليد التركية

وكانت الأنظمة فى المملكة العثمانية ، تفرض على خريجى « الكلية الشاهانية » أن يعملوا ثلاث سنوات فى « ديوان الولاية » للتمرن على أعمال الإدارة . وهكذا عين القوتلى فى وظيفة « مأمور معية » لدى « والى دمشق » .

وكان الناس « يقبلون » يد « الوالى » — موظفين ، وغير موظفين . والذى يمتنع عن تقبيل « يد الوالى » يستهدف للنقمة والعقاب ، فهو كافر ، وهو ثائر ، وهو عدو « الوالى » وعدو « السلطان » !

ورئيس التشريفات هو الذى ينبه الناس إلى هذا الواجب ويدربهم على السلوك فى مجلس « الوالى » . . . كيف ينحنون أمامه . . وكيف يقبلون يده . . وكيف يتراجعون إلى الوراء ، ظهورهم إلى الحائط . . ووجوههم

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن جمعية « العربية الفتاة » قد أسست سنة ١٩١١ — وأثبت الأمير مصطفى الشهابى ذلك فى كتابه « الاستعمار » . وأخبرنى أنه عثر بعد طباعة الكتاب على وثيقتين ممهورتين بخاتم الجمعية وتحملان تاريخا ثابتاً وهو سنة ١٩٠٩ فلم يبق مجال للشك والالتباس .

إلى الأرض . . وأيديهم على صدورهم ، كأنهم فى « الوادى المقدس » . . أو كأنهم أمام « المحراب » . . وشفاههم تردّد كلمات الدعاء والخضوع ! !

و « أفنديهم » الوالى جالس على أريكته « يداعب عثنونه بأصابعه ، أو يركز طربوشه على رأسه ، أو ينفخ دخان نارجيلته فى جوّ القاعة فيمتزج الدخان بالأنفاس ! !

والناس كأنهم عبيد ! !

ورئيس التشريفات مفروض عليه ، ومطلوب منه ، أن يدرِّس الناسَ أخلاق العبيد ! ! وأن يدربهم كيف يستقبلون فكرة العبودية ، ويستسيغونها ، وتمتزج فى دمائهم — حتى يشعروا شعور « العبيد » ويحيوا حياتهم — فكأن الشاعر « نديم محمد » قد عناهم بقوله :

يا لقوم عضتْ مُناهم على النّيـ ر ، فما يعرفون غير النار

ولكن شكرى القوتلى من غير هؤلاء الناس . لقد درس تاريخ بلاده جيداً ، وعرف من هو . . . وأين هو . . . وأنه من قومية تمتد فروعها إلى أعمق جذور التاريخ . وأنه من سلالة أمة بسطت سلطانها على الدنيا ، ورفعت أعلامها على جبال « هملايا » فى الهند ، وجبال « الألب » فى فرنسا ، وحكمت ما بينهما من البلدان وتبوأت « أريكة » التاريخ ، تحيط بها هالة من المجد والعظمة والخلود .

وليس سهلاً على من يشعر بعزته القومية ، وتراثه الخالد ، أن يحنى رأسه وأن يشعر بالصَّغار . وفى « قبلة اليد » كل العبودية ، والذلة ، والصغار . . .

وتمرد شكرى القوتلى .

ورفض أن يقبّل يد « الوالى » .

وثارت ثائرة « الوالى » .

وازداد حنقه حينما قدم القوتلى استقالته ، وأصر عليها ، وامتنع عن الالتحاق بـ « مأمورية المعيَّة » .

والله يعلم كم بذل والده من « جهد » . . . حتى استطاع التخفيف من حدة الوالى ، والاحتفاظ بولده آمناً . . مطمئناً . .

وكان لهذه القصة دويٌّ عجيب . وتناقلها الناس معجبين بهذا الفتى الذي شمست إرادته على « الأعراف » و « التقاليد » . ورفع رأسه بوجه « الوالى » — وقال : لا .

وقد توفى والد شكرى القوتلى فى أواخر سنة ١٩١٤ — رحمه الله .

بدء الصراع الوطنى

كان شكرى القوتلى من أكثر رفاقه الطلاب جدا ونشاطاً، وجرأة وحماسة ، وكان له فضل كبير فى توحيد كلمتهم ، وجمع صفوفهم ، وتنسيق أعمالهم وجهودهم . وقد استطاع هو وإخوانه بفضل إيمانهم وإخلاصهم ، ومثابرتهم ودأبهم ، أن يخرجوا بفكرتهم من إطارها العاطفى المغلّف ، إلى الصعيد العملى البنّاء .

وكانت له مكانة مرموقة بين رفاقه وزملائه ، عزّزها رأيه الصائب، ونظره الثاقب ، وكرم نفس ويد ، وبذل مال وجهد ، حتّى أصبح بينهم موئلا ، ولهم مرجعاً ، وساعدتـه ثقة إخوانه به على جمع كلمتهم ، وإعلاء شأنهم ، والقضاء على كل أسباب الفرقة والخصام من بينهم .

ولا بد لكل حلبة من قائد ، ولكل جماعة من زعيم. والقائد الذى لا يتحلّى بصفات القيادة ومؤهلاتها ، لا يستطيع الاضطلاع بأعبائها ولا النهوض بتبعاتها ، والزعيم الذى لا يتحلى بنقاوة اللسان والوجدان ، ومزايا الإخلاص والإيمان ، ولا تمحضه الجماعة ثقتها ، ولا يظفر بتأييدها ، قد يكون عبئاً عليها أكثر مما يكون قوة لها .

والزّعامة الحقة تنبع من ضمير صاحبها ، ومن ثقته بنفسه ، وإيمانه بفكرته .

والزعيم الحق هو الذى يجمع من حوله الأنصار والمؤيدين بكفاءته ونزاهته ، يوجههم ويرشدهم ، ويقودهم فى الطريق المستقيم ، ويهديهم سواء السبيل .

وكان شكرى القوتلى لرفاقه رفيقاً ، ولزملائه أخاً وصديقاً . ثم رفعته مزاياه

إلى أريكة الزّعامة ، فكان بينهم زعيماً ، ولهم قائداً .

وكان لزعامته الفتية ، فضل كبير على تلك الجمعية الفتية ، وعلى العمل الذى تمخض عنها والنشاط الذى انبثق عنها .

وفى عام ١٩١٥ زار الأمير فيصل دمشق . وعقد عدة اجتماعات مع أعضاء جمعية « العربية الفتاة »، لتوحيد الجهود البنّاءة فى مقاومة الأتراك ، وتخطيط سياسة ثابتة للمستقبل ، وانتسب إلى الجمعية ، وأصبح عضواً عاملاً فيها.

وبعد سفر فيصل اعتقلت السلطات التركية شكرى القوتلى، ولفيفاً من إخوانه أعضاء جمعية « العربية الفتاة » ، وأودعتهم السجن الذى كان يعجّ بالأحرار والمصلحين .

وكان للأتراك عيون وآذان ترصدُ الناس ، وتحصى عليهم الأنفاس .

وكان الطاغية السفاح جمال « باشا » ، يبث عيونه فى كل مكان ، لمعرفة ما يجرى فى الخفاء[1] . وفى الأفق البعيد ما ينذر بهبوب عاصفة مدمرة ، وإعصار عنيف كاسح .

ولم يكن عسيراً عليهم أن يعرفوا مبعث النشاط ومركزه ، فالمأجورون والعملاء ، فى كل زمان ومكان ، عين تتلصّص ، وأذن تتجسّس، ولسان يشى وينم . . وليس أخطرَ على الحركات القومية من العملاء المأجورين يبيعون ضمائرهم ، ويؤجرون أنفسهم . . ومهما تقاضوا ثمناً لضمائرهم وشرفهم ، فإن الشرف والضمير أثمن وأسمى . إن للضمير الشريف ثمناً لا تعدِلُه الدنيا ، ولا تطاله كل مغريات الدنيا .

ولكن هل لدى العملاء والمأجورين شرف وضمير ، وإحساسٌ وشعور ؟؟

وهل يدرك هذه الحقيقة أولئك الأذناب ، الذين يعفّرون جباههم ووجوههم فى التراب ؟ ؟

(١) كان الأحرار العرب قد أسسوا فى القاهرة حزب « اللامركزية » سنة ١٩١٣ بقصد حصول البلدان العربية على استقلالها الذاتى . وكان أعضاء الحزب قد كلفوا حقى العظم بنقل التعليمات السرية بين سورية ومصر . ولكنه لم يعرف كيف يصون السر فاطلع الأتراك عليه ، وبوشر بالتنكيل بالأحرار .

وهل يعرفون أن يفاضلوا بين العزة والذلة ، والكرامة والمهانة ، والوطنية والخيانة ، والإيمان والكفر ؟ ؟

إن الضمير الميْت كالجسم الميت ، لا يحس ، ولا يتألم . وربما كان الخطأ أقرب إلى فهمه من الصواب ، والظلمة أحب إلى نفسه من النور ، والكفر أشهى إلى عقله من الإيمان ، والالتواء أفضل عنده من الاستقامة ، والضرّ خيراً عنده من النفع . .

من يَهُنْ يسهل الهوان عليه   ما لجـرْح بميت إيلام

وظهر للأتراك أن القوتلى مستودع أسرار الحركات القومية ، فعمدوا إلى الحيلة ، وأطلقوا سراحه بغية مراقبة نشاطه ، واتصالاته حتى يعرفوا أمكنة رفاقه ومخابئهم ، ثم يعتقلوهم واحداً واحداً .

وعرف القوتلى سبب إطلاق سراحه ، وأدرك الغاية من ورائه ، وأيقن أن وراء « الحرية » التى أبيحت له ، مؤامرةً مدبرة ، وخطةً ماكرة ، تهدف إلى معرفة إخوانه ، واعتقالهم جميعاً . فأكثر من التحوّط والتحرز ، حرصًا على كرامتهم وسلامتهم ، وصيانة لهـا من الامتهان ، والانتهاك .

ولما يئس الأتراك من نجاح خطتهم ، وانطلاء حيلتهم ، اعتقلوا القوتلى ثانيةً ، بعد شهر من إطلاق سراحه ، وزجّوا به فى سجن « خان الباشا » فى دمشق .

والذى قُيض له أن يخرج من ذلك السجن الرهيب ، لم يستطع تصوير ظلمته ورهبته ، وضيقه وأذاه . ولم يستطع تصوير قسوة السجانين — الذين كانوا يُختارون من غلاظ الأجسام والقلوب ، ومن ذوى الضمائر الميتة ، والنفوس المريضة ، والعقول التى لا تميز بين العنف واللطف ، والشدة واللين — لأن « التصور » وما يسببه من ذكريات أليمة ، يحول دون دقة التصوير ، ويعجز عن إعطاء صورة دقيقة لتلك الأعمال الوحشية التى يتبرأ منها الإنسان ، ويتمنى — بسببها — لو لم يكن « إنساناً » ، حتى لا يوصَم بها ، وتعلق به شوائبها .

وليس آلم على الكريم الحرّ ، من أن يُلقى به تحت « رحمة » زبانية مجرمين ، لا تعرف الرّحمة طريقاً إلى قلوبهم ، ولا الإنسانية سبيلا إلى نفوسهم . وجدير بمثل هؤلاء أن يكونوا فى حظيرة للحيوان ، وليس فى مجتمع للإنسان .

ولقد حار قضاة الهند بماذا يحكمون على قاتل « غاندى » . وكل حكم عليه لا يعدل الجريمة الفظيعة التى ارتكبها ، والتى لا يُقدم عليها « إنسان » فى رأسه عقلٌ ، وعنده ضمير .

وطالب فيلسوف هندىٌّ أن يحكم على القاتل الوغد بأن يعيش فى حظيرة الحيوانات مدى الحياة ، وأن يطعم بما يطعم منه الحيوان ، ويشرب من الوعاء الذى يشرب منه . لأن الذى يقتل غاندى العظيم ، من فصيلة الحيوان ، وليس من فصيلة الإنسان . وذلك أروعُ قصاص ، وأعظم حكم ، على أسفل قاتل ، فى أفظع جريمة — ذهب ضحيتها إنسان من أنبل ما رأت الإنسانية ، ومن أسمى ما عرفت : خلقاً ، وصدقاً ، وسمواً ، وإخلاصاً .

وكان طلب الفيلسوف الهندى — وحده — حكماً ، ومثلاً ، وعبرةً فى التاريخ .

القوتلى ينتحر حرصاً على حياة رفاقه

كان سجن « خان الباشا » يعجُّ بالمعتقلين السياسيين . وكان صدى السياط الغليظة التى تنهال على أجسادهم ، تصل إلى مسامع شكرى القوتلى ، ممزوجة بصدى آهاتهم وزفراتهم ، فتحفر فى قلبه جرحاً عميقاً ، ينزف حزناً وألماً — لا على نفسه ، بل على رفاقه الأبرياء الذين لم يقترفوا إثما ، ولم يرتكبوا جرماً ، إلا أنهم يحبون وطنهم ، ويسعون لخير أمتهم .

ويضطر أحدهم ، تحت طائلة الضرب المبرح ، والضغط العنيف ، أن يتكلم بما يعلم ، وبما لا يعلم . وأن يعرض رءوسا لـ « القطاف » ونفوساً للمهانة والعذاب . فكان لسانه يتكلمُ عن غير وعى ، وينطق من غير إدراك لأن الألم

قد خدر وعيه ، وخنق إدراكه ، وتركه سادراً يفضى عقله الباطن ، بكل ما فيه من مخبوءات ومعلومات ، وحتى بأكثر مما فيه من مخبوءات ومعلومات .

والألم والحزن ، واليأس والغضب ، والقلق والفرح ، كلها من « المسكرات » يخدّر فيها العقل الواعى ، ويزول سلطانه عن العقل الباطن ، فيفضى بكل ما اختـُزن فيه من أسرار .

وكان دماغ شكرى القوتلى أحفل بالأسرار من سواه ، وأكثرَ استيعاباً لها ، ومعرفة للمهم الخطير منها .

وتركه سجانوه يرى بأم عينيه وسائل التعذيب الوحشية وآثارها الدامية (١) ، ويسمع بأذنيه صدى دَمدَمة السياط ، فى رحلتها الهوائية بين السقف والجسم ، وصدي رنينها وطنينها ، والأنين العميق المبحوح ، يتصاعد من صدور أولئك الأبطال ، الذين تحملوا من ضروب الألم ، وصنوف العذاب ، ما لا يستطيع تحمله إلا ذو عقيدة ينافح عنها ، ويؤمن بها .

ويفكر القوتلى بأولئك الأحرار الطلقاء الذين يعرفهم واحداً واحداً ، أين هم ، وما هى مهماتهم ، وماذا يعملون .

فكر بوطنه وبهم ، قبل أن يفكر بنفسه وبأسرته . وهاله ما سيصاب به وطنه من أذى ، إذا أصيبوا هم بأذى . وكيف أن النهضة العربية ستصاب من بعدهم بركود وجمود ، وتأخر وانحلال . وخشى أن تُنتزع أسماؤهم منه ، دون قصد ، ودون إدراك . وقد جابهه المحتِّق بها — وليس ثمة مجال لإقرارها ولا لإنكارها ، فهى صحيحة — ولكنها قليلة بالنسبة للمعلومات الكثيرة التى يعرفها عن الجمعية ، وعن المئين عن أعضائها ، ومهماتهم ، وأمكنتهم . ودوّر كل واحد منهم . وثبت عنده أن أحداً من المعتقلين لا يعرف عن أعضاء الجمعية مثلما يعرف هو . وخاف أن يضطره التعذيب الوحشى للاعتراف .

---

(١) حدثنا الرئيس القوتلى أنه رأى الجنود الأتراك يربطون المتهم بين بغلين شرسين . ويضربون البغلين بالسياط ، وبمنتهى العنف والوحشية ، فيتعرض المتهم لحوافرهما ورفسهما بشكل لا مثيل له . . ويظل هكذا حتى يضطر للاعتراف ، والإقرار بكل ما يريدونه منه — وهو بحالة يرثى لها . . ! فتأمل !

ونظر من زاوية ضميره إلى الأفق البعيد الذى استوحى منه شوقى قوله :

وَوَددْتُ لو أنى فداك من الردى   والكاذبون المرجفون فدائى

وقلّب الرأىَ على أوجه كثيرة ، فلم يجد لإنقاذ رفاقه وسيلة ولا حيلة ، إلا وسيلةً واحدة — ليس ثمة سواها :

أن يذهب السر معه إلى القبر . .

وخيل إليه أنه وجد الحل المنشود . فاطمأن ، واغتبط ، وسُرى عنه . وسكنت هواجسه ، وهدأ اضطرابه ، وبدأ فى تلك اللحظات الحاسمة قريرَ العين ، هانئ النفس ، مطمئن الضمير ، سعيداً . .

إنها جرأة قل نظيرها ، وتضحية قل مثيلها . ولكنها تضحية لابد منها ، ولا غنًى عنها ، ما دام الرجلُ الشريف المخلص ، يريد أن يحفظَ حياة رفاقه من الأذى ، وأن يحتفظ بهم ذخراً لوطنه ، وعماداً له فى الملمات .

وصمم . وعقد العزم ، واتكل على الله .

إنها لحظات رهيبة ، فى حياة رجل مؤمن يخافُ الله ، ويرهبه ، ويخشاه . وهو يعرف أن الله لا يريد أن يقتل المرءُ نفسه بيده . ولكن الله ، جل وعلا ، لا يريد أن يكون المرء سبباً فى موت كثيرين من عباد الله الصالحين . والله غفور رحيم ، والجنة إنما أعدت للصابرين. وصلى، واستغفر ربه . وتمدد على فراشه الخشن ، وأغمد الموسى فى زنده — وكان قد استحصل عليها من السجان — وأغمض عينيه على بسمة الخلود .

وانتحر . . . .

وسال الدم الطاهر النقىّ .

ولكن التاريخَ كان فى انتظاره ليخطّ أسطراً ذهبيةً خالدةً فيه ؛ وليتم رسالةً إنسانيةً وقوميةً اضطلع بأعبائها، وبدأ بها ، ولا يستطيع أحد أن يعترض سبيل التاريخ ، ولا أن يغير مجراه ولا أن يحول طريقه من اتجاه إلى اتجاه . فمنطق التاريخ صامت ، ولكنه قوىٌ وعميق . وسبيل التاريخ قويمة ثابتة ، وإن اعترضتها مصاعب وأشواك .

والتاريخ كان فى انتظار شكرى القوتلى ليخط فصلا خالداً فيه . وليضع أول « لبنة » فى بناء الوحدة العربية ، وأول حجر فى جدارها . وقليلا ما تخطئ مواعيد التاريخ — بل إنها لا تخطئ أبداً . وهيهات .

وهكذا . . . انتبه الحراس للدم الغزير ، يتدفق من الشريان المقطوع .

وأسرع الدكتور أحمد قدرى لإسعاف القوتلى — وكان سجيناً معه . وله فضل كبير بإنقاذ حياته فى آخر لحظة ، ونقله إلى المستشفى . وبعد شهر من المعالجة المتواصلة أعيد إلى السجن ، إلى « خان الباشا » نفسه . إلى الغرفة الباردة المظلمة ، والفراش الخشن الجاف ، وما تزال عليه آثار من الدم النقى[1]. إلى السجن الذى مازال يحتفظ فى صدره البارد المظلم ، بصدى السياط الغليظة العمياء .

وهكذا . . . سلم شكرى القوتلى من الموت ، وسلم شرفه الرفيع :

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

أجل — سلم القوتلى من الموت الذى سعى إليه راضيا مختاراً . ولكنّ مشيئة الله فوق مشيئة البشر ، وإرادته فوق إرادة الناس : « وتقدّرون فتضحك الأقدار » . ونجا رفاقه الذين أقدم على الانتحار من أجلهم ، وفى سبيل نجاتهم . وقدّم للمحاكمة أمام المجلس الحربىّ ، وكان من البدهىّ أن يحكمَ عليه بالإعدام .

الثورة العربية على الأتراك

أعلن الملك حسين الثورة فى ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ وكان إعلانها نذيراً بهبوب العاصفة ، وبدء الاضطرابات . وسرت الشرارة الأولى فى الهشيم ، واندلعت النارُ هنا وهناك . وسافر كثيرون إلى الحجاز لينضموا

(١) بعد نقل القوتلى إلى المستشفى عثروا فى جيوبه على ورقة كانت فيها مبادئ لحركة ثورية . وكانت قد تبللت بالدم . ولم يستطع المحقق قراءة كل ما جاء فيها . ولما سئل القوتلى عنها اعترف أنها بخط يده ، وأنها وصيته لإخوانه من بعده . وضمت تلك الورقة — وهى المبادئ لحركة ثورية — إلى إضبارة التحقيق .

إلى صفوف المجاهدين . وفى طليعة من سافر للالتحاق بالثورة الأمير عارف الشهابى ، عبد الغنى العريسى ، توفيق البساط ، عمر أحمد . وهؤلاء من جملة « الشهداء » الذين أعدمهم السفاح جمال باشا .

وكان أعضاء « العربية الفتاة » ينتظرون اللحظة المناسبة للعمل . ولم يكن العملُ فى ذلك الظرف هيناً ميسوراً ، فقد كانت تكتنفه مخاطر ، وتعترضه مصاعب ، وترافقه شدائد وأهوال .

فالمستعمرون — كل المستعمرين — لا تعرفُ الرحمةُ طريقاً إلى قلوبهم ، ولا الإنسانية سبيلا إلى نفوسهم . . وليس للعطف أثرٌ فى معاجم حياتهم . . ناسٌ جبلوا على القسوة ، وفُطروا على الشدّة ، ونشأوا على حبّ الظلم والبغى . . والإنسانية منهم ، ومن أعمالهم وأمثالهم ، براء .

وحاول الأتراك أن يعدموا المحكومين وغير المحكومين — بعد الشهداء الذين أعدموهم فى ٦ آيار سنة ١٩١٦ غداة إعلان الثورة العربية لكى يرهبوا بهم العرب أجمعين . ولكن قادة الثورة فى الجزيرة العربية كانوا أسرع منهم ، إذ احتجزوا الضباط والجنود الأسرى من الأتراك ، وهدّدوا بإعدامهم إذا لم يطلقْ سراحُ العرب المعتقلين .

وهكذا أنقذت حياةُ شكرى القوتلى ، وحياةُ رفاقه الأحرار .

ولكن السفاح جمال باشا أعدم بعدئذ قافلة من الشهداء الأحرار فى ٦ آيار سنة ١٩١٦ فى عالية . وتحتفل الدولة بذكراهم كل عام .

وكان مقدراً لتلك الثورة أن تصل إلى الأهداف القومية ، وتظفر بالأمانى الوطنية ، وتحقق الآمال المعقودة عليها . ولكن مكائد الاستعمار كانت لها ولأهدافها القومية بالمرصاد. فبالوقت الذى كانت تبذل فيه الحكومة البريطانية وعودها للعرب بسخاء ، وتبعثُ رسائلَ إلى الملك حسين — بواسطة ممثلها هنرى مكماهون — تتعهد فيها بمساندة الأمة العربية فى كفاحها لتحقيق وحدتها ، وعدم المساس بأى جزء من أقاليمها ، أو التعرض لها ، من قبل الحكومة البريطانية أو إحدى حليفاتها بسوء — فى ذلك الوقت الذى كانت تناضل فيه

الأمة العربية إلى جانب الحلفاء ضد الأتراك، كان وزير خارجية بريطانيا — بلفور — يمنح اليهود « وعداً » بفلسطين. وكان الحلفاء يعقدون اتفاقية « سايكس — بيكو » التى تقسم الأقطار العربية فيما بينهم، وتجعلها تحت « حمايتهم » و « وصايتهم » . .

وتكشفت الأحداث عن أعظم خيانة تاريخية ، وجناية إنسانية — كان بطلها الإنكليز والفرنسيين ، وضحاياها العرب .

وكان فى الحجاز يومئذ المرحوم خالد الحكيم، والفريق عزيز المصرى ، وقد حذرا الملك حسين من ألاعيب الإنكليز وخداعهم ، ومن عبثهم بالوعود ، ونكثهم بالعهود . ولكن الملك حسين لم يحتطْ للأمر كما حذره الناصحان المخلصان — بل أعرض عنهما ونفاهما من الحجاز .

وما أروعَ ، وأبلغَ ، عتابَ « شوقى » للملك حسين :

قم تحدثْ أبا علىّ إلينا ... كيف غامرت فى جوار الأراقم
وتركتَ النيوبَ فى الهام خُشْناً ... وتمسكتَ بالحواشى النواعم
هات حدِّث عن العوان، وصفها ... لا تُرع فى التراب ما أنا لائم
كلنا وارد السراب وكلّ ... حمل فى وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظا ... ووَرَدْنا الوغى فكنا الغنائم

العهد الجديد

دخلت جيوش الحلفاء — العربية والفرنسية والإنكليزية — سورية فى خريف سنة ١٩١٨ ، بقيادة « المارشال ألنبى » ، واحتلتها — بعد أن هزم الجيش التركى ، وانسحب إلى حدود بلاده الأصلية .

وفى ٥ تشرين الأول سنة ١٩١٨ أذاع الأمير فيصل — قائد الجيش العربى فى جيوش الحلفاء — بياناً على الشعب السورى ، يشكره على معاونته الحلفاء فى مهمتهم ، ويطلبُ منه الإسراع بالبيعة لوالده الشريف حسين . ويعلن أنه أسَّسَ فى سورية أوّل حكومة عربية ، عهد برئاستها إلى « رضا الركابى » .

ومما يجدر ذكره أن « فيصلا » كان قد استشار زعماء البلاد قبل تشكيل الحكومة واختيار رئيسها . واجتمع هؤلاء فى بيت شكرى القوتلى ، واستدعوا المرحوم رضا الركابى ، وأخذوا عليه عهداً أن يعمل لصالح الأمة العربية ، ويذوب فى كيانها ، وينكر ذاته فى سبيلها ، وأبلغوا « فيصلا » موافقتهم على تكليف الركابى . فعهد إليه بتشكيل الوزارة .

وعرض فيصل على شكرى القوتلى منصب « والى دمشق » فاعتذر — لأنه كان منصرفاً للتنظيم الداخلى، وتأسيس قاعدة شعبية مكينة يرتكز عليها العهد الوطنى ، ويستند إليها ؛ وإلى إرسال المعونات اللازمة لتغذية الثورة التى كان أوقد نارها المرحوم الشيخ صالح العلى فى جبال العلويين .

ورشح علاء الدين الدروبى لولاية دمشق .

ولكن الأحداث اضطرته بعدئذ أن يكون إلى جانب « الوالى » فترةً من الزمن ، يشترك معه فى الإدارة والتنظيم، وتهيئة الوسائل الكافية للوقت العصيب ، وكانت الحكومة السورية قد قررت فرض التجنيد على الأهلين ، حتى تكون البلاد كلها على أتم استعداد عند حدوث أول طارئ . وتكون قد أخذت للأمر أهبته ، وأعدّت له عدته .

وفى هذه الفترة بدأ أحرار البلاد بتشكيل « حزب الاستقلال » .

وكان شكرى القوتلى يؤمن بأنه لابد من وجود قاعدة شعبية لمساندة الحكم ومؤازرته — إذا ما تعرض لتيارات خارجية ، واستهدف لمؤامرات استعمارية ، والوقوف فى وجهه ، إذا ما انحرف عن جادة الهدى ، وحاد عن طريق الصواب.

. . وفى سبيل متابعة النضال ، والحفاظ على روحيته ، أنشأ القوتلى ، ورفاقه « حزب الاستقلال » ، وكان أول حزب فى العهد الجديد ، بل أول منظمة سياسية تضطلع بأعباء توجيه الشعب ، والدفاع عن حقوقه ، وتهيئته للنضال عندما يدعو الواجب ، ويحين الوقت المناسب .

وكان حزب الاستقلال فتحاً جديداً فى تنسيق العمل السياسى ، وتنظيمه ، وحشد القوى الشعبية استعداداً لكل طارئ ، وتهيئة لكل احتمال .

وللقوتلى يدٌ طولى — بل يد أولى، بتشكيل هذه المنظمة القومية ، وتمويلها ، وتعميمها بين أوساط الشعب . وكان لها فضل كبير بمساندة الحركات الوطنية وتبنيها ، وحشد القوى والإمكانيات فى سبيلها .

وكان حزب الاستقلال — فى واقع الأمر — اسماً جديداً لجمعية « العربية الفتاة » وعنواناً علنيا لها ، واستمراراً لنشاطها . وقد حل محلها ، وأدى دورها ، على نطاق .أوسع ، وأشمل . تساعده العلنية ويدعمه إجماع المواطنين .

. . . فحزب « الاستقلال » حزب إقليمى فى بلاد الشام وحدها . و« العربية الفتاة » منتشرة فى سائر بلاد العرب . وحتى لا يتاح للأجنبى الاطلاع على أسرارها وأخبارها ، تكتل بعض أعضائها حول اسم جديد. و« العربية الفتاة » هى المحركة والموجهة والدافعة .

فيصل بين حبائل المستعمرين

حينما انتهت الحرب العالمية الأولى فى ١١ تشرين الثانى سنة ١٩١٨ عقد الحلفاء المنتصرون مؤتمراً للصلح فى ١٨ كانون الثانى سنة ١٩١٩ فى مدينة باريس. وكانت بريطانيا وفرنسا تحاولان أن تبعدا القضية العربية عن المؤتمر حتى تستطيعا تنفيذ مؤامرتهما — مؤامرة « سايكس — بيكو» واقتسام الممتلكات العثمانية ، وفرض الانتداب على الأقطار العربية .

واصطدمت الدولتان الاستعماريتان ، بالمبادئ الإنسانية ، التى كانت تغمر المؤتمر ، وتسيطر على أفكار أعضائه — مبادئ « واسن » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تقضى باستفتاء الشعوب فى حق تقرير مصيرها ، وطغت الحماسة على محاولات بريطانيا وفرنسا ، ومساعيهما لعزل موضوع الأمة العربية عن المؤتمر الذى اتخذ قراراً فى ٣٠ كانون الثانى سنة ١٩١٩ بفصل البلاد العربية عن تركيا ، واستفتاء سكانها فى تقرير مصيرهم . وقد دُوّنت مواد القرار الخمسة فى دستور هيئة الأمم الذى وافق عليه مجلس الحلفاء فى شهر شباط سنة ١٩١٩ وأقره مؤتمر الصلح فى ٢٨ نيسان . ، وفى ٢١ آذار

اتخذ مؤتمر الصلح قراراً بإرسال لجنة تحقيق دولية . وعارضت بريطانيا وفرنسا فكرة إرسال لجنة للتحقيق . ورفضتا أن تشتركا فيها . وشكلت اللجنة من أعضاء أمريكيين فقط .

وفى شهر تموز من السنة نفسها عقد المؤتمر السورى العام ، فى مدينة دمشق — بمناسبة قدوم « لجنة الاستفتاء » الأمريكية . وكان قرار المؤتمر إجماعيًّا بطلب الاستقلال التامّ ضمن وحدة سورية شاملة . وكان أكثر أعضاء المؤتمر من جمعية « العربية الفتاة » ، فكان موقفهم واحداً ، وهدفهم واحداً .

وطافت اللجنة الأمريكية ببعض المدن السورية . وتأثرت بإجماع السكان على رفض الانتداب ، والمطالبة بوحدة البلاد . وقدمت اللجنة تقريراً ضافياً دحضت فيه مزاعم اليهود بشأن فلسطين ، وطالبت بضمها إلى سورية وتشكيل حكومة تضم لبنان وسورية وفلسطين — وإعطاء لبنان استقلالا داخليًّا واسعاً . وخذل الشعب الأمريكى « ولسن » فى انتخابات ١٩٢٠ وعادت أمريكا إلى عزلتها . وانسحبت من عصبة الأمم . وطوى تقرير اللجنة وأهمل — حتى استطاعت بعض الهيئات العربية أن تعثر عليه وتنشره كوثيقة تاريخية خطيرة .

وفى أواخر صيف ١٩١٩ استدعى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية الأمير فيصل لمقابلته فى لندن ، حيث سلمه « مذكرة » تتضمن قرار احتلال سورية وفلسطين والعراق « مؤقتاً .. » ريثما تبرم « جمعية الأمم » قرار الانتداب على هذه البلاد. وضمن تلك « المذكرة » الخطوط العريضة لاتفاقية « سايكس— بيكو» الجائرة ، التى عقدت دون أن توافق البلاد العربية عليها ، بل دون أن يكون لها علم بها !!

وأجاب فيصل — فى ٢١ أيلول سنة ١٩١٩ — بـ « مذكرة » ضافية فيها موافقة على بعض « المطالب » ، ورفض للكثير منها .

ولكن الدولتين كانتا قد رسمتا خطتهما ، منذ زمن طويل ، وشرعتا تنفذانها ، وتخلّت روسيا عن نصيبها من اتفاقية « سايكس — بيكو» بعد أن زال عنها الحكم القيصرىّ ، وساد فيها النظام الشيوعى .

وطال الأخذ والرد بين فيصل والحكومة البريطانية . وتوالت المذكرات والاجتماعات . وكانت كلها تدور فى حلقة مفرغة . فبريطانيا تصر على تنفيذ اتفاقية سايكس – بيكو ، واعتبارها أساساً لكلّ مباحثة ، وتصر على إطلاق يد فرنسا فى سورية ، وعلى أن يتفق فيصل مع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا . وفيصل يحاول أن يحمل بريطانيا على التقيد بوعودها وعهودها .

وكما عاتب شوقى الملك حسين ، عاتب الأخطل الصغير الملك فيصل :

لو أفادَ العتابُ ملنا على النفـ   ـس بما لا تطيقه نفسُ نادمْ
أخذَتنا الدنيا بما زيَّنته . .   من أمان — ونحنُ بعدُ براعمْ
وَعلِقنْ من عهدهم بسراب   كم سُموم تحت الشفاه البواسمْ
هفوةٌ جرها الزمان علينا   لا ملومٌ أنا ، ولا أنا لائمْ
ذلك الليلُ فى السنين الخوالى   سوفَ يغدو فجرَ السنين القوادمْ
للتجاريب فى الأمور يدَاها   رُبَّ بانٍ ما كان بالأمس هادمْ

* * *

قلْ لتلكَ العهود فى وَهج الحرْ   ب وفى سكرة القنا والغلاصم
قد لمحْناك فى عيوُن الثعالى   ولمسناكِ فى جلود الأراقم
حدَّثونا عن الحقوق . . . فلما   كبرَ النصرُ أعوزَتنا التراجم
نفحتنا به الحروبُ سلاماً   ورَمانا بها « السلام » أداهمْ

وسافر فيصل إلى باريس . وكانت الأحداث تتوالى فى غيابه . وتتذرع فرنسا بأسباب واهية ، ومصطنعة ، لتوسيع رقعة احتلالها لبعض المناطق . وقد احتلت البقاع فى ١٩ كانون الأول ١٩١٩ بحجة اعتداء الأهلين على ضابط الارتباط الفرنسى ، وجرح جاويشه ! ثم احتلت بعلبك بحجة تأمين النظام والأمن ! وهكذا دواليك !

ودارت مفاوضات بين فيصل والحكومة الفرنسية انتهت بوضع مشروع

معاهدة فيصل – كليمنصو ، فى ٦ كانون الثانى سنة ١٩٢٠ . وعاد فيصل إلى دمشق يحمل مشروع المعاهدة لعرضه على رجالات البلاد[1] .

إعلان استقلال سورية

لقيت المعاهدة معارضةً شديدةً ومقاومةً ضارية . وقامت ضدّها مظاهرات عنيفة صاخبة . وكان أحرار البلاد قد اتجهوا نحو إعطاء الحكم صبغة نيابية صحيحة . وجرت الانتخابات فى المناطق التى يسيطر عليها الجيش العربى على أسس سليمة وفق الأساليب الديموقراطية المعروفة . وأما فى المناطق التى يسيطر عليها الجيش الفرنسى فقد جرى اختيار النواب بواسطة مضابط وعرائض من المواطنين بترشيح أشخاص معينين . وأطلق على المجلس التمثيلى اسم « المؤتمر السورى » . واجتمع المؤتمر فى ١١ حزيران سنة ١٩١٩ عندما قدمت البلاد لجنة الاستفتاء الأمريكية ليعرب عن رغبة الشعب بالوحدة

---

(١) كان مشروع معاهدة فيصل – كليمنصو مشروع « حماية » ، وليس مشروع استقلال ! إذ لم تعترف فيه فرنسا بأن الشعب السورى شعب مستقل . بل اعترفت « للأهلين الناطقين باللغة العربية والقاطنين فى الأراضى السورية من جميع المذاهب أن يتحدوا ليحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفة أمة مستقلة » ! والفرق كبير بين الاعترافين .

وجاء فى المشروع بعد ذلك اعتراف من الأمير فيصل : « بأن السوريين لا يستطيعون فى الوقت الحاضر ، نظراً لاختلال النظام الاجتماعى الناشئ عن الاضطهاد التركى ، والخسائر المحدثة أثناء الحرب ، أن يحققوا وحدتهم ، وينظموا إدارة الأمة دون مشورة ومعونة من أمة معاونة ، على أن يسجل ذلك التعاون فى جمعية الأمم عند تكوينها فعلا ، وباسم أهالى سورية ستطلب هذه المهمة من فرنسا » ! ! ! !

وأصرت فرنسا على عدم جعل المستشارين والمدربين والفنيين الفرنسيين خاضعين لمجلس الوزراء السورى ! كما أصرت على أن تكون آراؤهم ، فى حال الخلاف مع الحكومة واجبة التنفيذ ! وأصر فيصل من جانبه على رفض هذا الشرط بشأن المستشارين الفرنسيين. ولكنه وافق على نص جاء « مائعاً » بشكل تستطيع فرنسا أن تتمسك به ، وأن تفسره على رغباتها وهواها .

كما أن المشروع لم يسمح لسورية بحق التمثيل الخارجى . وجاءت تسمية مندوب فرنسا فى سورية « مفوضاً سامياً » وهو نفس الاسم الذى كان يحمله المندوبون الفرنسيون بعدئذ ! !

راجع نص مشروع فيصل – كليمنصو ، والمراسلات بين الحسين ومكماهون فى الجزء الأول من كتاب الثورة العربية الكبرى .

والاستقلال . ثم اجتمع ثانيةً حين استبدال الجنود الفرنسيين بالجنود البريطانيين ، ليشجب كل محاولة للنيل من كرامة البلاد ، ووحدتها ، وسيادتها . وبدأ يعقد جلساته باستمرار منذ شهر شباط سنة ١٩٢٠ ، مضطلعاً بأعباء مسؤولياته ، ومهامه الكبرى .

واجتمع المؤتمر للنظر بمشروع المعاهدة التى أرادت فرنسا ، وحليفتها بريطانيا ، أن تفرضاها بالقوة على سورية . وسادت المؤتمر فكرة المجابهة ، وعدم التفريط بأى حق من حقوق البلاد .

وكان من غير المعقول أن يقبل أعضاء المؤتمر بالمعاهدة ، وأن يتنكروا على آمالهم وحقهم فى الحياة ، وأن تذهب الدماء التى أريقت من أجل حريتهم واستقلالهم هدراً(١) .

والشعب لم يكافح للخلاص من تركيا ، ويقدّم الأضاحى على مذابح الجهاد ليستبدل استعماراً باستعمار ، ونفوذاً بنفوذ .

وليس فى الكرامة والسيادة والعزّة حدٌّ وسط . وكلُّ تسليم بمطالب فرنسا ، وتساهل معها ، سيسير بالبلاد فى طريق الانتداب ، ويفضى بها إلى العبودية والاحتلال .

ورُفض مشروع المعاهدة .

وكان ذلك الموقف دستوراً للجهاد الوطنى طيلة السنوات التى تلته .

وكانت هذه الصلابة قاعدة لرفض « معاهدة دى جوفنيل » سنة ١٩٢٦ ، و« معاهدة الشعبانى » سنة ١٩٣٣ ، و« مقترحات ديغول » وممثليه سنة ١٩٤٣ وما بعدها ، وعروض الأحلاف العسكرية المختلفة فى السنوات الأخيرة .

إن الوطنية لا تعرف حدّاً وسطاً ، وإذا كان لا مندوحة عن سلب الحرية فلتسلب رغماً عن الشعب لا برضاه وإختياره . ولا تسوّغ المبادئ القومية أن

(١) راجع صورة قرار المؤتمر منشورة بالزنكوغراف مع تواقيع أعضاء المؤتمر فى كتاب « ذكرى استقلال سورية » — طبعه سيوفى وإخوانه الدمشقيون .

يسجل الشعب على نفسه قبول العبودية وإقراره إياها .

يجب أن يحتفظ الشعب للأجيال المقبلة بوطنية سليمة ، وتاريخ نقىّ ، ومواقف مشرّفة فى الجهاد ؛ وهذه هى الروح الصالحة لبناء القومية على ركائز متينة من الاعتداد والاعتزاز .

وإذا كانت الكتلة الوطنية قد شذت عن هذا الموقف سنة ١٩٣٦ ، وعقدت مع فرنسا معاهدة سلّمت لها ببعض القواعد والامتيازات ، فقد دفعت الكتلة ثمناً باهظاً لتساهلها ومساومتها — دفعت كيانها ، وسمعتها ، ومستقبلها كهيئة سياسية كانت مؤيدة من الجميع .

وقرر المؤتمر إعلان استقلال سوريّة ، ووضع الحلفاء وهيئة الأمم تجاه الأمر الواقع .

وعقد اجتماعاً فى دمشق فى ٧ آذار سنة ١٩٢٠ أعلن فيه استقلال سورية والمناداة بفيصل ملكاً عليها .

وفى اليوم التالى أعلن قراره فى بلدية دمشق ، وتوج فيصل فى حفل حاشد حافل . ولم يكن أحرار البلاد يهتمون وقتئذ بشكل الحكم ونوعيته ، بقدر ما كان اهتمامهم منصرفاً للظفر بالحرية ، والحصول على الاستقلال . وأصبح اليوم الثامن من آذار عيداً للاستقلال تعطل فيه الدوائر الرسمية كل عام .

وألف الحكومة فى عهد الاستقلال : محمد فوزى العظم ، وهاشم الأتاسى ، ورشيد رضا ، وعلاء الدين الدروبى — قبل الاحتلال الفرنسى بفترة وجيزة .

وفى ٨ آذار أعلن مؤتمر عراقى فى دار بلدية دمشق استقلال العراق — مما أثار حفيظة بريطانيا ، وحقدها الدفين . فأصدر وزير خارجيتها « كيرزون » بياناً يعلن فيه أن حكومته لا تتقيد بأى قرار يتعلق بالعراق وفلسطين .

وانصرف المؤتمر السورى إلى وضع دستور للبلاد . وأتم القراءة الأولى ، وحالت الأحداث دون إتمام القراءة الثانية . وكان عدد مواده ١٤٨ .

وكان المؤتمر مجلساً تأسيسياً ، ومجلساً نيابياً ، يراقب أعمال الحكومة ،

ويناقشها . وكانت الحكومة تطلب الثقة منه . وحدد المؤتمر عدد أعضائه بتسعين عضواً .

وتألف في المؤتمر حزبان : حزب التقدم ، والحزب الحر المعتدل . وكانت الأحزاب السياسية ، واللجان الوطنية تقوم بنشاط كبير في أيام الحكومة العربية ؛ وتؤثر أبعد التأثير في مساعي الحكومة وخططها ؛ وفي مقدمة هذه الأحزاب واللجان : « العربية الفتاة » ، و « الاستقلال » ، و « العهد » و « لجنة الدفاع عن فلسطين » .

معركة ميسلون

في ٢٦ نيسان سنة ١٩٢٠ عقدت إنكلترا وفرنسا وإيطاليا واليابان مؤتمراً في سان ريمو — ولم تشترك فيه الولايات المتحدة لأنها كانت قد فرضت العزلة على نفسها ، وابتعدت عن السياسة الأوربية بعد انتهاء مدة الرئيس «واسن» وجرى في هذا المؤتمر اقتسام مناطق النفوذ في البلدان التي كانت تحت السيطرة العثمانية . ونالت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان ، وبريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين ؛ وجرى ذلك قبل توقيع المعاهدة مع تركيا .

وكعادة بريطانيا دائماً (اللعب على الحبلين) فقد أبلغ المارشال ألنبي الملك فيصل قرار « مؤتمر سان ريمو »، وطلب منه أن يذهب إلى باريس لمعالجة القضية هناك . وأخبره أن بريطانيا ستعترف به كرئيس دولة — إذا وافق مؤتمر الصلح على ذلك !!

وهذه هي أخلاق بريطانيا ، وهذه أساليبها ، وصورة مصغرة عن مكرها وخداعها . ومع ذلك فقد قرر الملك فيصل السفر . وبينما كان يتأهب له كان الفرنسيون يتأهبون للعدوان .

وفي ١٤ تموز سنة ١٩٢٠ وجه الجنرال غورو إنذاراً إلى الملك فيصل يتضمن :

١ — جعل الخط الحديدي من رياق إلى حلب تحت سيطرة الفرنسيين

واحتلال قوات عسكرية فرنسية المحطات في رياق ، وبعلبك ، وحمص ، وحماه ؛ واحتلال مدينة حلب بكاملها ، ووضعها تحت الإدارة العسكرية الفرنسية ! !

٢ — تسريح الجيش العربي . وإلغاء التجنيد إلغاءً تاماً . .

٣ — قبول الانتداب الفرنسي . .

٤ — إزالة الموانع التي من شأنها الضرر بالنقد الفرنسي . .

٥ — إنزال العقاب الشديد بالمسيئين إلى فرنسا ، وقصاص الذين يشتبه بعدائهم لها . .

واجتمع المؤتمر السوري في ١٥ تموز لاتخاذ قرار حول الإنذار . وفي جلسة عنيفة صاخبة رفض الإنذار بالإجماع . وأعلن تمسكه بقراراته السابقة التي سجلها في ٧ آذار .

ولكن الحكومة اتخذت قراراً في ١٧ تموز بقبول شروط الإنذار الفرنسي ، تحت ضغط الأخبار المتزايدة أن الجيش الفرنسي المتجمع على الحدود قد بدأ بالزحف . واشتدت الحملة عليها في المؤتمر ، الذي كان قد عقد جلسة اقترح بعض أعضائه فيها إحالة الحكومة إلى « الديوان العالي » لمحاكمتها . وجاء يوسف العظمة يتلو قرار تعطيل المؤتمر مشيراً إلى أن العدو على الأبواب .

وسُرح الجيش السوري طبقاً لشروط الإنذار. وخرج الجنود من ثكناتهم ، ومعهم أسلحتهم ، يطلقون النار . واشتعلت نار الثورة في دمشق . وزاد في اضطرامها واحتدامها إشاعة اعتقال الشيخ كامل القصاب من قبل السلطات الوطنية . وحاول شكري القوتلي [1] وإخوانه أن يستغلوا الثورة ويوجهوها لمقاومة جيش العدو الذي كان قد وصل بزحفه إلى مشارف ميسلون ، ولكنهم لم يفلحوا

(١) ذهبنا برفقة الأمير مصطفى الشهابي ، الأستاذ وديع فلسطين الأديب المعروف ، وأنا ، لزيارة أسعد داغر في بيته ، وكان مريضاً وأمامه بعض الملازم من مذكراته التي تطبع . وانشغل الأمير ، والأديب فلسطين ، بمحادثة أسعد داغر وانشغلت أنا بقراءة تلك الملازم . وكانت عن معركة ميسلون . وبعد يومين نعي لنا أسعد داغر ، المجاهد العربي الكبير — رحمه الله . وفي ذمة المخلصين تلك المذكرات القيمة الفريدة .

لأن الغوغاء كانت قد سيطرت عليها ؛ وكانت الفوضى قد استشرت وعمت !

ورغم قبول الحكومة جميع شروط الإنذار فإن جيش غورو تابع زحفه إلى الشام — ويزعم غورو أن برقية الحكومة السورية بالقبول قد تأخرت عن الموعد المحدد لها ساعتين . وأنه لم يعد بالإمكان إيقاف الزحف ! وهذا هو منطق الاستعمار ! ويقول المرحوم أسعد داغر فى مذكراته — المخطوطة — والتى يستشهد فيها بما رواه الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه « يوم ميسلون » إن الثورة التى نشبت فى دمشق ضد الحكومة ، وما رافقها من فوضى — والعدو على الأبواب — كان مشجعاً للفرنسيين على متابعة الزحف .

وزحف الجنرال غورو بجيشه لاحتلال بلاد الشام ، ولم يكن فى سورية جيش يستطيع الوقوف أمام الجيش الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت من أقوى جيوش العالم .

وكان لابد من إثبات موجودية ، ولابد من تضحية ، تكون خميرة للمستقبل ، وأساساً لكلّ جهاد وتفان ونضال .

واجتمع الشعب ، وقرر الزحف لمجابهة المعتدين .

وزحف « يوسف العظمة » — وزير الحربية على رأس جيش من الشعب ، إلى « ميسلون » .

. . . ذهب إلى « ميسلون » وهو يعرف أنه ذاهب ليموت ، بل كان يصرّح فى الطريق أنه ذاهبٌ إلى قبره هناك .

وكان يؤمن — رحمه الله — أنه لابد من وقفة بطولة فى وجه جيش غاصب محتل . وأنه لا يسوغ ولا يليق بالكرامة القومية أن تُحتل سوريا ولا تراق نقطة دم فيها. وكان يردّد فى الطريق كلمته الخالدة : « لن يمروا — إلا على أجسادنا ».

ولم يرض لنفسه ، ولا لبلاده ، أن توصم بتهمة الخنوع والاستسلام . .

وفتح صدره للنار — فى ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ .

وأثبت فى مستنقع الموت رجله   وقال لها من دون أخمصك الحشر

واستشهد . .

وأصبح بطل « ميسلون » رمزاً .

وأصبح قبره محجّاً للزائرين .

واحتلت جيوش فرنسا بلاد الشام .

ودخل غورو إلى قبر « صلاح الدين » ، فى دمشق ، فخوراً معتزاً . .

وقال يخاطب القبر : « أىْ صلاح الدين : ها قد عدنا » . .

وهو يشير إلى « الجيوش الصليبية » التى زحفت لتحتل البلاد العربية باسم الدين — والدّين منها ، ومن مؤامراتها براء — وقد دحرها « صلاح الدين » ، وانتصر عليها .

ولكن جيش « غورو » قد اضطرّ بعد ربع قرن من احتلاله بلاد الشام إلى الجلاء عنها ، وبقيت أرض صلاح الدين طاهرة ، لا تدنّسها أقدام المحتلين ، ولا شماتة الغاصبين .

الاحتلال الفرنسي

لقد اشتهر الحكم الفرنسي بالتقلب والتبدل ، والتهور والتغير ، فالفرنسيون لا يستقرون على رأى ، ولا يثبتون على قاعدة ، ويكفى أن يستعرض الباحث الأحداث التى مرت على فرنسا ، منذ ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ إلى الآن حتى يدرك مدى الاضطراب ، وعدم الاستقرار ، اللذين تعرضت لهما ، ومدى التناقض فى سياسة حكامها ، وولاة أمرها . وإذا كان هذا شأنهم فى وطنهم نفسه ، فما قولك بسياستهم فى مستعمراتهم ، والبلدان الخاضعة لنفوذهم ؟ . .

لقد كان المندوب الفرنسي ينتهج سياسة تتنافى مع سياسة سلفه ، وتناقضها .

وكان المندوبون يتعمدون هذه الطريقة ويتقصّدون هذا الأسلوب . ومثلهم المستشارون ، والموظفون الإداريون .

وكان أول ما يفعله المندوب الفرنسي حين تسلمه سلطاته وصلاحياته ، أن يعرض بسياسة سلفه ، وينتقدها ، ويسفهها . ويعمل على رسم خطة جديدة تتعارض — دائماً — معها ، وتتمشى فى اتجاه مغاير لها . ولم يكن ذلك عن

حنكة سياسية ، « وتوجيه » من السلطة العليا فى باريس وإنما كان دليلا على تفسخ « الرأى » الفرنسى ، ومظهراً من مظاهر انحلاله ، واضطرابه ، وعدم استقراره . فالفرنسيون ذوو عنجهية وغطرسة وكبرياء . وعند واحدهم من الاعتداد والزهو ما يدفعه للتسفيه برأى غيره ، ومحاولة فرض رأيه على الآخرين .

وقد عانت سورية من هذه الأطوار الغريبة ، ما لم تعان مثله بلاد أخرى . على أن اختلاف السبل ، وتعدد المناهج والأساليب ، لا يعنى الخلاف على الموضوع الأساسى — وهو الاستعمار الذى كان هدف الفرنسيين جميعاً ، وتركيز دعائمه كان الغاية التى يسعون إليها جميعاً .

وكان يأتى مندوب فيسلك طريقاً ، ويرسم اتجاهاً ، وحينما ينتقل يأتى مندوب آخر فيغير الاتجاه ، ويسير فى طريق أخرى — وهكذا دواليك . بعكس السياسة البريطانية التى ترسم الطريق بدقة وتصميم ، وينتهجها الخلف عن السلف ؛ وكان المندوبون الفرنسيون يتأثرون إلى حد بعيد بالموظفين والمستشارين ، وكان هؤلاء يعرقلون دائماً كل محاولة للتساهل والتفاهم .

لقد كانت سياسة الفرنسيين فى سورية صورة عن الخلق الفرنسى المتفسخ ، والعقلية الفرنسية التى لا تعرف الحد ولا الاتزان .

وسنستعرض فى لمحات خاطفة أبرز الأحداث التى جرت فى عهد فرنسا ، ونتوقف عند المهم منها .

* * *

بعد أن دخلت الجيوش الفرنسية دمشق واحتلتها ، وغادرها فيصل إلى عمان كان مفروضاً بالوزارة التى كان يرأسها علاء الدين الدروبى ، أن تستقيل من الحكم ، وأن تدعو الشعب إلى متابعة النضال . ولكن رئيس الوزارة لم يفعل ، بل أذاع بياناً فى ٥ آب ينذر فيه الأهلين والموظفين ، ويبرر أعمال الجنرال غورو ، ويوجد له الأعذار « لإزاحة العراقيل التى كانت توضع فى سبيل جنوده الذين يقاتلون عدو الحلفاء جميعهم » !. وأقام له مأدبة تكريمية أثنى فيها على « تقاليد فرنسا المجيدة فى تحرير الشعوب . . . إلخ ! » وكان تصرف

الحكومة السورية موضع استنكار جميع فئات الشعب وازدرائهم . وقضى رئيس تلك الحكومة فى ٢١ آب فى حادث « خربة الغزالة » فى حوران . وحل محله جميل الألشى فى ٦ أيلول سنة ١٩٢٠ . وأقيل فى مطلع كانون الأول من السنة نفسها . وخلفه حقى العظم الذى عين « حاكماً » لدولة دمشق .

وتعاقب على حكم سورية عدة مفوضين سامين ، قبل نشوب الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ . فقد بقى الجنرال غورو حتى شهر نيسان سنة ١٩٢٣ ، والجنرال ويغان إلى تشرين الثانى سنة ١٩٢٤ ، والجنرال سراى إلى تشرين الثانى ١٩٢٥ — أى بعد نشوب الثورة . وكان هؤلاء الثلاثة ، من القواد اللامعين فى الحرب العالمية الأولى . وكان الأولان من الأحزاب اليمينية ، والأخير يسارياً متطرفاً .

وتفنن الفرنسيون فى تمزيق شمل البلاد السورية وإقامة دويلات متعددة فيها . كما تفننوا فى البطش والتنكيل ، وملاحقة الأحرار ، وزج من تمكنوا من القبض عليه منهم فى أعماق السجون . مما اضطر فريقاً كبيراً من الأحرار للنزوح إلى مصر — حيث كان قد أسس فيها فى نهاية الحرب « حزب الاتحاد السورى » ، الذى أصبح فيما بعد قاعدة للحملات المركزة على الانتداب الفرنسى ، فى هيئة الأمم .

وفى مقر اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السورى فى القاهرة ، اتفق الرأى على عقد مؤتمر فى جنيف إلى جانب « عصبة الأمم » ، يهاجم سياسة فرنسا الغاشمة ، ويطالب باستقلال البلاد . وفى ٩ نيسان سنة ١٩٢١ أذاعت اللجنة المركزية بياناً دعت فيه جميع الأحزاب والجمعيات للاشتراك فى المؤتمر الذى اجتمع فى أواخر آب سنة ١٩٢١ فى جنيف ؛ واشترك فيه ممثلو الاتحاد السورى ، والمؤتمر الفلسطينى ، ومجلس الإدارة اللبنانى ، والاستقلال العربى ، واللجنة الفلسطينية بمصر ، وجمعيات عديدة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والأرجنتين ، والبرازيل ، وتشيلى .

وقدم المؤتمر بياناً رسمياً إلى هيئة الأمم ، ختمه بالمطالب الآتية :

١ ــ الاعتراف بالاستقلال ، والسلطان القومى ، لسورية ، ولبنان ، ولفلسطين .

٢ ــ الاعتراف بحق هذه البلاد فى أن تتحد معاً بحكومة مدنية ، مسؤولة أمام مجلس نيابى ينتخبه الشعب . وأن تتحد مع باقى البلاد العربية المستقلة فى شكل ولايات متحدة (فدراسيون) .

٣ ــ إعلان إلغاء الانتداب حالا .

٤ ــ جلاء الجيوش الفرنسية والإنكليزية عن سورية ولبنان وفلسطين .

٥ ــ إلغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومى لليهود فى فلسطين .

واستمر وفد اللجنة التنفيذية يعمل فى أوروبا ، متنقلا بين عواصمها ، ومتابعاً اتصالاته ونشاطه فى هيئة الأمم . وظلت اللجنة تتابع جهودها ، فى القاهرة حتى نهاية الثورة سنة ١٩٢٧ وحتى دب الخلاف والشقاق بين أعضائها ، فتمزق شملهم ، وتفرق جمعهم ، وعادوا كما كانوا شيعاً ، وفرقاً ، وأحزاباً !!

فى . . « ذمة » المدنية

فى ٢٤ تموز سنة ١٩٢٤ فرض الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان ، بقرار من « هيئة الأمم » التى أصبحت ألعوبة فى يد بريطانيا وفرنسا . وجاء فى « صك الانتداب » : « أن هذه الشعوب تعتبر وديعةً مقدسةً فى ذمة المدنية »[1].

قول هراء . .

متى كان للاستعمار « ذمة » حتى يقدِّر قيمة « الوديعة المقدسة » ويحافظ عليها ؟ . .

لو كان للاستعمار « ذمة » و « ضمير » لما وجدت هذه الكلمة بمعناها ومبناها . ولكانت الإنسانية كلها تنعم بالرفاه ، والسعادة ، والاستقرار . ولما كان فى العالم سيد وعبد . وظالم ومظلوم ، ولما نشبت حروبٌ وفتن ، وقلاقل

(١) راجع النص الكامل لصك الانتداب فى كتاب « الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب » منشورات جريدة الأيام الدمشقية .

واضطرابات . ولكانت « الودائع » مقدسة ، والعهود مصونة ، والعالم كله « بألف خير ونعمة » .

ولقد عرف العالم كيف حافظت فرنسا على « الوديعة المقدسة » . وكيف كانت « ذمتها » و « مدنيتها » . . وكيف فرقت البلد الواحد إلى بلدان . . والدولة الواحدة إلى دويلات . . والشعب إلى شيع وأحزاب . . وعشائر وطوائف . . وكيف استنفدت خيرات الشعب وأفقرته . . واضطهدته واستعبدته . . وأغرقته فى مهاوى الجوْر والفاقة والهوان . . وفرضت على بعض مناطقه الذلة والعبودية والصغار[1] .

وعرف العالم كيف حافظت بريطانيا على « الوديعة المقدسة » فلسطين . . وكيف عبثت بحرمة القومية والعدالة والتاريخ . . وقدمتها لقمة سائغة لليهود . . وساعدت على تشريد مليون عربى من بيوتهم وأراضيهم ، ليحلّ محلهم فيها يهود أجانب من جنسيات مختلفة ، وبلدان متعددة !

وهكذا فهمت « مدنيّة » بريطانيا وفرنسا معنى « الذمة » !! وهكذا حافظت ذممهما على « الوديعة المقدسة » وصانتها ! !

فواخجلَ الإنسانية من أبنائها ! . . .

وواخجلَ التاريخ . . .

فرض الانتداب

واجترأت بريطانيا قطعة من سورية الجنوبية أطلق عليها اسم « شرق

(١) ذكر القس « لويس جالابر » فى كتابه « سورية ولبنان » ص ٨١ أنه شاهد ضابط الاستخبارات فى مدينة « شهبا » فى جبل الدروز قد نصب نفسه حاكم صلح يحكم فى قضايا الناس أحكاماً لا ترد . وقال : « عندما دخلت مع رفاقى على الضابط وقف المتداعون من الدروز إجلالا لنا . ومنهم من قبلوا أيدينا . وعلمنا أن هكذا يجرى فى العلويين أيضاً » انتهى .

. . . ويلى هذا ما كان يجرى فى العلويين ، وربما أشد منه وأقسى . فقد كان المستشار الفرنسى « ڤيو » يرغم الناس على تقبيل يده . وكان يمدها لهم ، ويضرب من يحجم أو يمتنع عن تقبيلها .

الأردن » ، جعلت منها « إمارة » نصبت عليها عبد الله بن الحسين . وتحققت بذلك رغبة « تشرشل » ، صاحب هذه الفكرة ومقترحها ، والذى أراد أن يجعل من تلك « الإمارة » « تكأة لإسرائيل، وشوكة فى جنب العراق ، والسعودية ، وسورية الأم — عند اللزوم .

مملكة تائهة فى الصحراء ، لا تعتمد على مورد أساسى ثابت ، ولا قاعدة جغرافية معروفة ، كتلك التى يقوم عليها كيان دولة ، ووحدة بلاد . وإنما هى « دويلة » اصطنعت اصطناعاً ، وابتدعت ابتداعاً ، وانتزعت من صميم الجسم السورى انتزاعاً — لتكون ركيزة للاستعمار وأداة للتهديد والتهديم ، والجاسوسية والفوضى . .

وقد أدت مهمتها هذه — خلال ثلث قرن ونيف — خير أداء ، وما تزال تؤديها إلى الآن . بالرغم عن جهاد الشعب الأردنى ، ووطنيته ، وإخلاصه لقوميته ، واستعداده للسير فى الركب العربى المتحرر .

ونفذت بريطانيا وفرنسا مؤامرتهما . . وحققتا أحلامهما . . فوضعتا سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطانى . وتركتا الحجاز للملك حسين ، الذى اضطر إلى مغادرته بعد أن احتله الوهابيون ، والتجأ إلى الأردن ، حيث أقنعه ابنه عبد الله بالتنازل له ، عن ميناء « العقبة » والالتجاء إلى جزيرة قبرص ، التى بقى منفياً فيها إلى أن توفى — رحمه الله —

ونصبت بريطانيا فيصلا ملكاً على العراق فى ٢١ تموز سنة ١٩٢١ .

الثورة العلوية

حينما احتلت جيوش الحلفاء سورية فى خريف سنة ١٩١٨ انفردت القوات الفرنسية باحتلال المنطقة الساحلية كلها — تنفيذاً لمؤامرة « سايكس بيكو » التى جعلت للفرنسيين خطاً يمتد من حدود فلسطين الشمالية فى كيليكيا ،

ويشمل الساحل اللبنانى ، ومحافظة اللاذقية ، ولواء الإسكندرونة .

وكان المرحوم الشيخ صالح العلى قد قام بثورة على القوات التركية لمساندة القوات العربية . وكان فيصل يزوده بالمعدات والسلاح .

وبعد أن أجلى الأتراك عن سورية ، وغمرت الفرحة نفوس الثائرين الذين كانوا يتطلعون إلى حكم عربى سليم ، فوجئوا بالقوى الفرنسية تحتل بلادهم ، وتنزل الأعلام العربية عن الدوائر الرسمية ، وبيوت الأهالين بشيء من التحدى والامتهان ! !

فاستأنفت الثورة عملها ، وتابعت نشاطها(١) . وعاد الشيخ إلى عرينه ، تردد روحه بيت الشاعر القروى ، قبل أن ينظمه الشاعر القروى :

بدت لك فرصة لتعيش حراً — فحاذر أن تكون لها مضيعاً

واستأنفت الثورة عملها ، وبدأت نشاطها . والتهبت فى جبال العاويين . واضطرمت نارها ، واشتد أوارها .

وكان الحكم العربى فى دمشق يساعدها ويساندها . وكان شكرى القوتلى ، ورفاقه ، يدأبون على تزويدها بما تفتقر إليه من سلاح ومعدات . وجاء بعض الضباط من الجيش العربى يساعدون « الشيخ صالح العلى » فى قيادته، ويضعون أنفسهم تحت إمرته . واستمرت الثورة فى جهادها المقدس ثلاث سنوات ونصف سنة بلا انقطاع (٢) . وكانت أعنف ثورة وأطولها فى الشرق العربى كله، وأشدها فتكاً وضراماً ، وأحفلها بالحوادث المثيرة ، والمعارك الخطيرة . وقد أنهكت فرنسا ، وكبدتها كثيراً من الخسائر فى الأموال والأرواح . حتى إن « الكتاب الذهبى » ، الذى يتحدث عن بطولة الجيش الفرنسى ، ويفاخر بالمواقع التى انتصر فيها ، أفرد عدة صفحات عن « الثورة العلوية » ، وعنفها ،

---

(١) راجع كتاب الأمير مصطفى الشهابى « القومية العربية » ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) للمؤلف كتاب عن « الثورة العلوية » يقع فى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وطول مدتها ، ومتاعب الجيش فيها ، وكيفية تغلبه عليها[1] . وكان الشيخ صالح على اتصال وثيق بالزعيم إبراهيم هنانو الذى أعلن الثورة على الفرنسيين فى صيف سنة ١٩٢٠ وشملت جميع الأجزاء الغربية من محافظة حلب المطلة على نهر العاصى وجبال العلويين . وكانت ثورة هنانو كثورة الشيخ قوية عنيفة كاسحة ، وقد انتهت فى منتصف تموز سنة ١٩٢١ .

وبقيت ثورة الشيخ صالح العلى تؤدى واجبها على أوسع نطاق حتى احتلت فرنسا المناطق الداخلية بعد مأساة « ميسلون » . وكان سقوط الحكم العربى فى دمشق مقدّمة لانتهاء الثورة الناشبة فى جبال العلويين ، بعد أن قُطع المددُ الداخلى عنها ، وبعد أن ضُيق عليها الخناق ، وحصرت فى مناطق جبلية وعرة — كان من الممكن أن تكون سنداً لها بالمقاومة ، ومتابعة النضال ، لولا أنها حالت بينها وبين الاتصال بالعناصر الوطنية فى الداخل والساحل . مما جعل تموينها متعذراً ، بل مستحيلا .

ومع ذلك . . . فقد بقيت الثورة مستمرة سبعة عشر شهراً ، بعد مأساة ميسلون ، واستشهاد يوسف العظمة ، ونزوح فيصل ، والقوتلى ورفاقه ، عن الشام . ولما استنفد المرحوم « الشيخ صالح العلى » آخر طلقة كانت معه اضطر إلى إلقاء السلاح . وبقى متخفيًا عن الأنظار حتى أصدر الفرنسيون عفوًا عامًا ، عن الثائرين والمحكومين ، فى مطلع سنة ١٩٢٤ — كما سيجىء . فعاد حينئذ إلى عرينه . ورفض كل عروض الفرنسيين للتعاون معهم . كما رفض أن يكون « حاكماً » على محافظة اللاذقية فى ظل الحراب الفرنسية . وبقى فى

---

(١) نشر الجنرال سراى — الذى كان مفوضاً « سامياً » فى سورية ولبنان رداً على مقال للكاتب الفرنسى هنرى بوردو ادعى فيه أن سورية كانت هادئة ساكنة فى عهد غورو وويغان . وجاء فى رد الجنرال سراى : « إن هذا الكاتب إما أنه يجهل كل شىء ، وإما أنه يكذب . فقد قامت فى سورية وحدها حينئذ ثورات عديدة ، دفن فيها من الجيش الفرنسى وحده خمسة آلاف جندى » .

الصف الوطنى مكافحاً ومنافحاً إلى أن توفى فى ١٣ نيسان سنة ١٩٥٠ — رحمه الله[1] .

فيصل . . ينشد عرشاً

بعد أن لمس القوتلى انحراف فيصل عن الطريق الصّاب ، وإذعانه لمطالب فرنسا . وتأثّره ، هو وإخوانه ، بتوجيهات بريطانيا ، — أيقن بأنه لا فائدة من التعاون مع رجال يطمحون قبل كل شىء إلى توطيد مراكزهم ، وتأمين عروش لهم .

---

(١) اقيمت للشيخ صالح العلى حفلة تكريمية كبرى فى ١٧ نيسان سنة ١٩٤٥ فى مدينة اللاذقية . وكان لى شرف ترتيبها ، والدعوة لها . وقد اشتركت فيها وفود عديدة من مدن دمشق ، وحمص ، وحلب ، وحماه ، وجبل الدروز ، وجبل عامل ، وبيروت ، وطرابلس ، وأكثر الأقضية السورية ، كما اشترك فيها عدد كبير من المجاهدين السوريين ، وفرق من الكشاف السورى يحملون المشاعل الليلية المضيئة ، ويتشدون الأناشيد . وزحف أبناء محافظة اللاذقية لذلك المهرجان الذى لم تشهد اللاذقية له مثيلا . وتلقت اللجنة مئات من البرقيات والكلمات من كبار الشخصيات العربية الذين لم يتمكنوا من حضور المهرجان . وتبارى الخطباء والشعراء فى تعداد مزايا المجاهد الكبير المتصوف . وفى نهاية الحفلة علق الأمير مصطفى الشهابى . وكان محافظاً للاذقية يومئذ — وسام الاستحقاق السورى من الدرجة الممتازة على صدر الشيخ المجاهد وسط عواصف من التصفيق والهتاف .

وكان الشيخ صالح العلى ضيف الشرف الوحيد من بين المجاهدين السوريين فى أعياد الجلاء — ١٧ نيسان سنة ١٩٤٦ — وألقيت أنا كلمته فى المهرجان الرسمى الذى خطب فيه رؤساء وفود الدول العربية . وخصه يومئذ فخامة الرئيس القوتلى رئيس الجمهورية بالتفاتة خاصة ، إذ أنه نهض من مقعده ، واتجه إليه ، وصافحه مردداً أمام الجمهور أطيب عبارات الثناء على وطنيته وصوفيته ، وجهاده الصادق الكبير .

وأقيمت للشيخ بعد وفاته حفلة تذكارية فى مدينة اللاذقية أيضاً . حضرها رئيس مجلس الوزراء ، وبعض الوزراء ، والنواب ، والمحافظين ، ووفود ضخمة من سورية ولبنان . وكانت كالحفلة التكريمية روعة وضخامة واحتشاداً . كما أقام المغتربون عدة حفلات فى المهجر .

وكان مجلس النواب السورى قد وقف دقيقة حداداً على روح الشيخ صالح العلى . وحول اقتراحاً — كنت تقدمت به وعدداً كبيراً من النواب — مع توصية إلى الحكومة لتسمية شارع فى العاصمة والمدن الرئيسية ، وثكنة عسكرية فى مدينة طرطوس — التى توفى فيها الشيخ — باسمه ، وهكذا كان .

وللدلالة على ذلك ، وإنصافاً للحقيقة ، والواقع التاريخى ، أثبت هنا ما رواه لى إخوان عراقيون ، قالوا :

حينما وقع فيصل معاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٣٠ ، وبقى سلطانها الجائر على العراق حتى قيام الثورة الأخيرة ، هدده الإنكليز بخلعه عن العرش إذا لم يقرّ مجلس النواب المعاهدة بكاملها . . ووقف الشعب العراقى الباسل ، كعادته دائماً ، موقفاً صلباً من المعاهدة ، ومن موقعيها ، ولقيت معارضة عنيفة من النـــواب . حضر فيصل بنفسه جلسة مناقشتها ، والتصويت عليها . وحينما اصطدمت المعاهدة بمقاومة النواب الضّارية ، ومعارضتهم العنيفة ، وحملاتهم المركزة ، صاح فيصل من مقصورته : « يا قوم : لا تتركوا فيصلا معلقّاً بين السماء والأرض » وبكى . وفى ذلك الجوّ العاطفىّ الضاغط صُدّقت المعاهدة .

هذه قصة سمعتها من أفواه الكثيرين من العراق . وهى تشير بوضوح إلى أن المسألة بنظر فيصل ، كانت مسألة « عرش » ، وحكم ، ومكان « يستقر » فيه .

ولا نقصد التجنى على فيصل — رحمه الله — وإنما نقرر حقيقةً وواقعة ، ففيصل قد أذعن للمستعمرين واستكان ، لأنه لم يُرد أن يعيش « مشرداً » ، ولا أن يموت « منفيًّا » فى قبرص ، كما مات والده الملك حسين . وقليل من الناس من يستلذ حياة الكفاح والنضال ، ويعيشها حتى النهاية .

لقد قضى فيصل حياته السابقة طائفاً جائلا ، مكافحاً مناضلا ، ثم استقر به المطاف فى سورية ، وتُوّج ملكاً عليها ، ولم يكن من السهل عليه أن يعود إلى حيـــاة المشقة والعناء ، والطواف وعدم الاستقرار ، لقد استمرأ حياة « الترف » فى الحكم ، وألفها ، وعز عليه أن يفارقها ، أو يُسلبها ، وحاول أن يحتفظ بمقامه فى سورية — ولكن مكائد المستعمرين أفقدته إياه .

وفتح له مجال جديد فى العراق فتشبث به ، وصار همه أن يحافظ على عرشه ، ويحتفظ بمركزه . فهو أسير الهواجس والخوف والقلق . . شبح « النفى »

دائماً أمامه ، وخيال التشريد لا يفارقه — فاستكان للانكليز ، ومشى معهم فى الطريق التى يريدون [١] .

قد يكون هذا التصوير قاسياً .

ولكن الحقيقة دائماً جارحة ومرة .

وهل هناك تعليل آخر يرضى القارئ ، ويقنعه ، ويرضى معه الحقيقة ويقنعها غير هذا التعليل ؟

وهكذا ربط فيصل ، وإخوته ، سياستهم بسياسة بريطانيا . وانقادوا لها طائعين أو مكرهين .

ونصب الإنكليز فيصلاً ملكاً على العراق ، وعبد الله أميراً على الأردن ، ومن البداهة بمكان أن هذا التنصيب كان ينطوى على معان كثيرة ، أهمها قطع الطريق على الوحدة العربية ، لأنه من غير المعقول أن يجتمع السعوديون والهاشميون على صعيد واحد . وهذا شىء يدرك بالبداهة ، ولا يفتقر إلى دليل .

والقوتلى ينشد استقلالا كاملاً ، وحريةً تامةً ، ووحدةً عربيةً نقيةً سليمة ، وهذا ما لا يمكن توفره مع رؤساء يضعفون أمام القوة ، ويلينون فى وجه الشدة .

القوتلى يرسم اتجاهاً قوميا جديداً

من هذه الزاوية خط القوتلى سياسةً جديدة ، وبدأ يسير عليها ، ويدعو لها ، وبدأ بتأسيس قاعدة للقومية العربية ، وتوجيهها وجهه أخرى ، إلى أن يعود ساسة العراق والأردن ، إلى جادة الحق والصواب ، ويستأنفوا سيرهم مع الركب

(١) وفى سبيل الأمانة بنقل الوقائع التاريخية ، دون التأثر بغاية أو هوى ، نحب أن نشير هنا إلى ما ذكره الأمير مصطفى الشهابى فى كتابه « الاستعمار » : إن الملك فيصلا كان يوحى إلى المرحوم ياسين الهاشمى وإخوانه بمعارضة المعاهدة العراقية - الإنكليزية ؛ وطلب تعديلها حتى يستطيع المطالبة بذلك رسمياً ، مستنداً بذلك إلى مطالبة الشعب ومعارضته » . وهو صاحب القول المشهور : « خذ وطالب » . وكان يحمى معارضى المعاهدة ، ويحول دون التنكيل بهم . راجع كتاب « الاستعمار » المشار إليه .

العربى الساعى للتحرر والانعتاق ، بعد أن انحرفوا عن طريق الثورة التى رسمها الشعب. وبدأ بالعمل على تشكيل جبهة للوقوف فى وجه مطامعهم التى استغلتها بريطانيا أبشع استغلال ، واستثمرتها أسوأ استثمار ، وحاولت أن تتغلغل بواسطتها ، وعن طريقها ، إلى سورية .

وشرع القوتلى يتنقل بين مصر والسعودية زمناً طويلا . يتصّل بالشعب ، ويتصل بالمسؤولين . ويلفت أنظارهم للخطر الذى يتهدّد العرب ، من ساسة العراق والأردن . ويسعى لإيجاد جبهة مكينة من شعب سورية ، وشعب مصر ، والمملكة العربية السعودية . و « الميثاق الثلاثى » ، الذي عقد فيها بعد ، كان نتيجة لمساعى القوتلى المتواصلة ، منذ ثلث قرن ونيف .

وكان القوتلى مؤمناً بأن الشعب فى مصر لابد أن يحكم نفسه بنفسه ؛ ويتسلم مقاليد أموره بيده ؛ ويصبح ركيزة للعرب أجمعين .

ولم يكن هدف القوتلى فى سياسته الجديدة ، أن يقاوم أسرة معينة ، أو أشخاصاً معينين . وإنما كان يهدف إلى مقاومة السياسة الاستعمارية ، التى كانت تستعين ببعض الرجال ، لتنفيذ برامجها ، وتحقيق أهدافها .

ولو كان بين القوتلى ، والعائلة الهاشمية ، عداءٌ شخصىّ لما وقف إلى جانب فيصل فى دمشق يؤازره ويدعمه قبل أن ينحرف فيصل ، ويقبل التعاون مع الإنكليز .

وأما بعد أن انحرف فيصل ، فقد وقف القوتلى فى وجهه ، موقفاً أملاه عليه واجبه نحو قضيته ، وإخلاصه لقوميته .

لقد كان القوتلى — كما ألمعنا — ينشد استقلالاً كاملاً ، فمن سار معه فى الطريق — أيده ونصره ؛ ومن تخلفّ — قاومه وخذله ، ولا مكان فى الصفّ الوطنى لمن يتخلف عن الركب ، أو يتنكبّ عن السير فى الطريق القويم .

يصادق القوتلى من أجل الوطن ، ويعادى فى سبيل الوطن ، ولا شىء فى حياته غير الوطن — وأن يكون وطنه سيداً ، عزيزاً ، حرّاً ، مستقلاً .

على هذه « القاعدة » بنى القوتلى سياسته . وعلى هذا « الخطّ » المستقيم سار منذ سنة ١٩٢٢ — ١٩٥٨ .

ولولا وقوف القوتلى موقفاً صارماً لتثبيت دعائم سياسته هذه وتركيزها ، لتعرضت سورية لمخاطر وكوارث — لا يعرف غير الله نتائجها ومداها .

ومرت على البلاد فترات متقطعة ، استطاعت أبواق الدعاية الإنكليزية أن تُقنع أكثر الساسة السوريين بالاتحاد مع العراق . وأما شكرى القوتلى فقد ظل فى موقفه صامداً لا يلين . وبقى يكافح وينافح ، ويجاهد ويناضل ، حتى انتصرت سياسته ، وتغلبت عقيدته ، وثبت للناس كلهم صواب رأيه ، ودقة فراسته وتفكيره .

سياسة « فرّق تسد »

وحكمت فرنسا البلاد حكماً رهيباً ، استهانت فيه بالقيم ، واستخفت بالأعراف والأصول — حكماً استعماريّاً ، لا يعرف غيرَ ابتزاز المال وخنق الحريات ، وغيرَ البطش والتنكيل ، والتفريق والتمزيق ! ! وسلخت الأقضية الأربعة عن سورية ، وضمتها إلى لبنان . وكان إلى جانب كل وزير أو مدير ، أو محافظ أو قائمقام ، مستشار وهو مرجع السلطة الحقيقى — يأمر وينهى ، ويوافق ويرفض ، وفى يده « الحل والربط »[(1)] .

وقسمت سورية إلى خمس دُوَيلات : دمشق ، وحلب ، والإسكندرونة ، وجبل العلويين ، وجبل الدروز .

---

(١) يقول الدكتور نجيب الأرمنازى فى كتابه « من الاحتلال حتى الجلاء » : « إن المسيو جونار الذى كان حاكماً فى الجزائر قدم تقريراً للجنة الأمور الخارجية (الجريدة الرسمية سنة ١٩٢٢) فى مجلس الشيوخ قال فيه : إن الموظفين الفرنسيين الذين تنبذهم حكومة الجزائر ومراكش ترسلهم الحكومة الفرنسية إلى سورية ! وانتقد كثرة عدد الموظفين . كما انتقد الشيخ فيكتور برار الإسراف والتبذير ، وسياسة التفرقة والتجزئة فى إنشاء « دويلات » لا مبرر لوجودها ، ونفث العداوة والبغضاء بين شعوبها وتجديد المنازعات الدينية بينها إلى درجة لم تكن تعرفها من قبل ! كما انتقد مسيو دومرغ — رئيس لجنة الأمور الخارجية يومئذ ورئيس الجمهورية فيما بعد — السياسة العقيمة التى تتبعها فرنسا فى سورية . (ملاحظة — ومع ذلك فقد تبنى نفسه هذه السياسة بعد أن صار رئيساً للجمهورية) ! !

ثم اختصرتها بعدئذ إلى ثلاث : دمشق ، واللاذقية ، وجبل الدروز .

ولم يسلس لفرنسا القياد فى حكم سورية كما كانت تحلم وتأمل : ولم يتعاون معها من أبناء البلاد إلا حفنة من الخونة لا يخلو من مثلهم زمان ولا مكان. وهب أحرار البلاد ينافحون فى سبيل وحدتهم ، ويكافحون من أجل عقيدتهم كفاحاً متواصلا مستميتاً .

ويشهد التاريخ ، وكل من بقى من الأحياء ، أن شكرى القوتلى كان فى طليعة هؤلاء ، وأنه وقف ثروته الطائلة — وكان فى ذلك الحين من أغنى أغنياء الشام — على القضية الوطنية ، والجهاد ضد الاستعمار .

واستفزت تضحيته الناس ، وفعلت فى نفوسهم فعل السحر ، وغذّت فيهم روح المقاومة والاستبسال ، ودفعتهم للتهافت على مساندة كلّ حركة ترمى إلى إخراج المستعمر ، واستعادة الاستقلال . وهكذا كان شكرى القوتلى سباقاً لكلّ فضيلة ، ورائداً لكلّ مكرمة وعنواناً للجهاد والنضال .

وحنق الفرنسيون عليه ، مثلما حنق الأتراك من قبلهم . وللاستعمار سياسة واحدة ، يترسم خطاها الخلف عن السلف ، وغاية واحدة ، وإن اختلفت السبل ، وتباينت الآراء ، وتناقض الأسلوب . وكثيراً ما تتفق سبل المستعمرين وأهدافهم ، وغاياتهم وأساليبهم ؛ وكثيراً ما تكون الوسيلةُ واحدةً والاتجاه واحداً . فكما حكم الأتراك على شكرى القوتلى بالإعدام ، حكم عليه الفرنسيون بالإعدام سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٦ ، وكما طارده أولئك بمنتهى العنف والقسوة ، طارده هؤلاء ، وزاد الفرنسيون أن صادروا أملاكه ، ووضعوا عليها غرامات باهظة ، كأن على ذوى القتيل أن يدفعوا ثمن « المدية » التى قتل بها ! ! وكلّ مؤامرة استعمارية على سورية كانت تستهدف القوتلى أولا ، وتعمل على إزاحته ، والقضاء على حكمه وعهده .

واضطرّ القوتلى ، ورفاقه فى الكفاح ، إلى النزوح عن سورية إلى مصر ، والأقطار العربية الأخرى ، يستنفرونها ، ويستنصرون بها ، ويستعدونها على الفرنسيين .

ولم تقتصر جولاتهم وجهودهم ، على البلاد العربية وحدها ، بل ذهبوا إلى أوروبا يزورون أنديتها ومحافلها ، ويجأرون بالشكوى الحقة ضد الدخلاء المستعمرين . فلم يتركوا سبيلا إلا سلكوها ، ولا وسيلة إلا استخدموها ، ولا مناسبة إلا استغلوها واستثمروها .

وضاق الفرنسيون ذرعاً بهذه الحرب العنيفة تُشن عليهم ، فى عقر دورهم . وتهيج عليهم الخواطر ، وتؤلب العالم[1] . فلجأوا إلى « سياسة الملاينة » و « المصانعة » . وأعلنوا عن استعدادهم للتفاهم مع قادة البلاد ، وأحرارها النازحين . وقدموا برهاناً على استعدادهم للتفاهم ، بأن أصدروا عفواً عن المحكومين السياسيين ، وفى طليعتهم شكرى القوتلى واعتبروها ، هو وإخوانه ، بادرة يمكن التعلق بها للحصول على مطالب البلاد بالاستقلال .

وعاد القوتلى وبعض إخوانه المبعدين إلى سورية سنة ١٩٢٤ .

الثورة السورية الكبرى

بعد أن عاد القوتلى ورفاقه إلى دمشق مكثوا برهةً ينتظرون . ولكن أحداً من الفرنسيين لم يتصل بهم ، ولم يفاوضهم . ولم تبدر من الفرنسيين بادرة تدل على رغبتهم فى التفاهم ، والتسليم بمطالب الوطنيين .

وأرسل الوطنيون من يجس نبض الفرنسيين ، ويستطلع نياتهم وثبت لهم أن الفرنسيين لا يزالون عند موقفهم الأول ، وأنهم أكثر عناداً وتشبثاً ، وأن العفو عن المحكومين كان يقصدُ منه تجميد نشاطهم فى الخارج ، والظهور بمظهر المسالم أمام عصبة الأمم ، وأنهم يخادعون ويخاتلون ، وقد ظهرت نواياهم على حقيقتها ، ونفوسهم على طويتها وسجيتها .

(١) حينما عين ده جوفنيل مفوضاً سامياً على سورية خلفاً للجنرال سراى — كما سيجىء — أدلى بتصريح إلى مندوبى الصحف فى باريس قال فيه : إنه سينقل أخبار سورية من الصفحات الأولى ، إلى الأخيرة . مما يدل على أن أخبار سورية كانت تستأثر باهتمام العالم ، وتشغله . لأن أخبار الصفحات الأولى دائماً هى الأخبار البارزة والهامة .

ولم يعد ثمة مجالٌ للتردد . فهبوا يطالبون باستقلال بلادهم ، وجلاء القوات الأجنبية عنها . ويعملون لتحقيق هذه الأهداف بعزم وإصرار ، ولم يخفهم التهديد والوعيد ، ولم يرهبهم البطش والتنكيل .

واستفادوا كثيراً من الفرصة التى أتيحت لهم بعودتهم ، إذ مكنتهم من توجيه الشعب نحو قضيته العادلة ، وجمع الصفوف ، وحشد الإمكانيات .

وفى هذه الفترة جرت انتخابات نيابية فى فرنسا ، فازت فيها الأحزاب اليسارية المتحدة . وكانت قد تعهدت فى برامجها الانتخابية باتباع سياسة المسالمة والتساهل مع البلدان المستعمرة ، والشعوب « المنتدب » عليها . وشكلت حكومة جديدة برئاسة هريو ، نقلت الجنرال ويغان — اليمينى المتطرف — من سورية ، وعينت مكانه الجنرال سراى — اليسارى المتطرف أيضاً — فى ٢٨ تشرين الثانى ١٩٢٤ وزودته بتعليمات تقضى بإيجاد تسوية لمشكلة سورية .

واستهل الجنرال سراى أعماله ، بعد وصوله إلى بيروت ، بإلغاء الأحكام العرفية ، والعفو عن كثيرين من المحكومين أمام المحاكم العسكرية . وكان يبدى انتقاده واستنكاره لكثرة الموظفين الفرنسيين فى الدوائر الرسمية .

ورحب الشعب السورى من جانبه بهذه البادرة الطيبة من المفوض الجديد . وذهب وفد من دمشق ووفد من حلب لمقابلته فى بيروت ، وإبلاغه مطالب الشعب بالحرية والوحدة والاستقلال . وقد أحسن الجنرال سراى مقابلتهم ، وطلب إليهم أن يتفقوا فيما بينهم بشأن الوحدة ، وأن يجمعوا صفوفهم ، تمهيداً للاتفاق والتعاقد معهم . وأعرب لهم عن حسن نواياه ، وعن استعداده للتفاهم معهم ، واستجابة مطالبهم .

وبدأ الوطنيون بعد ذلك بتشكيل « حزب الشعب » الذى كانت له فروع فى دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، وبقية المدن السورية ، وكان أول حزب رسمى يعترف به فى عهد الانتداب .

ولكن الجنرال سراى الذى بدأ عهده بتصريحات سلمية ، وأعمال إيجابية لم يستطع التخلص من سيطرة الموظفين الفرنسيين ، فتأثر بهم ، بدلا من أن

يؤثر عليهم ! وكان الموظفون الفرنسيون ، وأذنابهم ، دائماً وأبداً ، علة العلل فى ازدياد المشاكل ، وتأزم الموقف بين سورية وفرنسا . وهكذا صار الجنرال « اليسارى » ألعوبة فى أيدى الموظفين « اليمينين » ! وصار يتخبط فى لجج هوجاء ، ويتبع أساليب عقيمة ، تتناقض مع وعوده وعهوده ، مما حفز النفوس للثورة ، ودفعها للكفاح والنضال . وكانت الشرارة الأولى من جبل الدروز بعد معركة « المزرعة » التى اندحر فيها جيش الجنرال ميشو ، وهزم أشنع هزيمة ؛ وغنم الدروز الأشاوس مقادير هائلة من السلاح والعتاد ، مما اضطر الجنرال سراى إلى طلب نجدات عسكرية سريعة من فرنسا .

والتهبت الثورة ، واندلعت نارها فى كل مكان . وأضاءت شعلتها الوهاجة كل حىّ فى المدينة ، وبيت فى القرية ، وكوخ فى الحقل ، وخيمة فى الصحراء[1] .

وجلّى أبناء معروف فى ميدان البطولة . وأظهروا من ضروب الشجاعة ما يعجز عن وصفه اللسان والبيان .

وكان قائدهم سلطان الأطرش يذكى فى نفوسهم نار التضحية ، ويقودهم فى معارك الموت — بجرأة وبسالة وإقدام . وقد صدق فى وصفه ووصفهم الشاعر القروى :

خفقتَ لنجدة العانى سريعا   غضوباً لو رآك الليثُ ريعا
وحولك من بنى معروف جمعٌ   بهم ، وبدونهم ، تفنى الجموعا
كأنك قائدٌ منهم هضاباً   تبعن إلى الوغى جبلاً منيعا

وهب الشعب السورى كله هبة رجل واحد . وكانت ثورة عنيفة جارفة ، دوت أخبارها فى الشرق والغرب ، واستأثرت بالعناوين البارزة فى أكثر صحف الدنيا .

(١) راجع كتاب « الثورة العربية الكبرى » للأستاذ أمين سعيد و « مذكراتى عن الثورة العربية » للدكتور أحمد قدرى ، ففيهما بحوث مستفيضة عن الثورات السورية ومراحلها ومعلومات دقيقة عنها .

وكان شكرى القوتلى فارسها المجلى ، وبطلها المغوار ، ينتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن بيت إلى بيت . يشترى السلاح والعتاد ، ويوزعه على المجاهدين هنا وهناك . وكان مع قبضة مؤمنة من إخوانه الأحرار الأبرار ، مشعل هذه الثورة ، ومصدر قوتها وإمكانياتها . وكان روحه يردد دائماً قول الشاعر المغترب جورج صيدح :

كُتبتْ آيةُ الجهـاد علينـا   وعلى الله ، والسيوف ، البقيه

وكان مقدراً لهذه الثورة أن تظفر وأن تنجح . وأن تحقق غايتها القومية ، وأهدافها الوطنية ، لولا أن الفرنسيين قد استقدموا جيشاً جراراً ، وحشدوا فى المعارك الدائرة أقوى فرقهم العسكرية ، وأكثرها وحشية واستماتة .

وشهد العالم معركة عنيفة بين الحق والباطل ، بين حق أعزل ، وباطل مسلح . بين مجاهدين صابرين لا يحملون إلا الإيمان والعقيدة ، والنزر القليل من السلاح ، وطغاة مستعمرين فى أيديهم السلاح الذى غلبوا به ألمانيا إبان قوتها وسطوتها[1] ، فلم تكن المعركة متكافئة ، ولا السلاح متكافئاً ، وكان التفاوت بين القوتين كبيراً ومخيفاً . وكان إيمان المجاهدين بحقهم هو السند ، وعزيمتهم هى العضد . وصاحب الحق دائماً قوى وجرىء . ولو تكافأ السلاح يومئذ ، أو لو كان قريباً من التكافؤ ، لعرف الظالمون أى منقلب ينقلبون ولكن كما قال بدوى الجبل :

نُجابه الظلم سكران الظبى أشراً   ولا سلاح لنا إلا سجايانا

وإنه لمما يؤذى الإنسانية ، ويدمى كبدها ، أن ينصرع حق صراح أمام باطل وقح . وأن يجد الباطل له نصراء ، ولا يجد الحق له شفعاء ، وأن تدور معركة رهيبة بين القوة والضعف ، بين مظلوم وظالم ــ سلاح الأول الإيمان ، وسلاح الآخر الطغيان .

(١) ورد فى رسائل نهرو – التى استعرض فيها تاريخ العالم – إلى ابنته ذكر لنضال الشعب السورى وكفاحه من أجل حريته واستقلاله فى وجه الدولة التى كانت تعتبر نفسها بعد الحرب الكبرى من أقوى دول العالم . وقد أثنى الزعيم نهرو على زعماء الشعب السورى ، ومما قاله : « من أى نبعة اشتق ذلك الشعب الذى ناضل ذلك النضال من أجل حريته واستقلاله ؟ »

وسجل التاريخ مرة أخرى : غلبة الباطل على الحق ، وانصراع المبادئ والقيم أمام القوة والجبروت . .

وعلى جماجم الشهداء ، وفوق تلال الأشلاء ، ارتفع علم البطولة ، وأشع نور الفداء يروى للأجيال القادمة قصة نضال وكفاح ، قصة صارت « لبنة » فى بناء الحرية ، ودعامة فى كيان الاستقلال ، ومنارة يهتدى بها الضالون ، ويسترشد التائهون . والبطولة شعلة الأمل والإيمان ــ كما قال الأستاذ أنور العطار :

والبطولات شعلة الأمل السا   طع فى ظلمــة الليالى الســود

وكانت خاتمة هذه الثورة ، وثورة الشيخ صالح العلى قبلها ، بداية ، ولم تكن نهاية .

كانتا « خميرتين » لكل الثورات التى جاءت بعدهما ، تتغذى بهما ، وتهتدى بهديهما ، وتسير على غرارهما ، وتكمل رسالتهما .

كانتا « قاعدة » قامت على أساسها كل الحركات القومية خلال ذلك الجيل ، والجيل الذى نحن فيه .

كانتا نواة ومناراً ، ومشعلاً وسبيلاً .

كانتا عقيدة ومبدأ .

كانتا غذاء دسماً لقلم التاريخ ومداده ، وينبوعاً ثراً لروائعه وأحداثه .

كانتا درساً وأمثولة . وعظة الأجداد للأحفاد ، والآباء للأبناء .

كانتا ــ وحدهما ــ تاريخاً مستقلا ، طافحاً بالبطولة ، حافلا بالرجولة ، زاخراً بالشجاعة النادرة ، والتضحيات المثلى .

ودخلتا التاريخ من بابه العريض .

وكانتا للشعب العربى كبقية الثورات القومية ذخراً وفخراً .

وانتهت الثورة ــ بعد أن أدت مهمتها ، وبلغت نهايتها .

وحكم على القوتلى مرة أخرى بالإعدام سنة ١٩٢٥ .

ومرة أخرى نزح عن وطنه العربى فى دمشق بعد انتهاء الثورة إلى وطنه العربى فى القاهرة والقدس والرياض . يهيجُ الخواطر ، ويحرك المشاعر ، وينشر

فظائع الفرنسيين ، ويؤلّبُ عليهم العرب أجمعين .

نزح عن وطنه وهو يردّد قول شوقى :

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه　　نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وخرجَ من دمشق مديناً ، بعد أن أنفق كل ما يملكه فى سبيل الجهاد .

وتوطدت صلته خلال هذه الفترة بالمرحوم الملك عبد العزيز آل سعود . وكان لهذه الصلة أثر كبير فى السياسة العربية ، وأحداثها الكبرى فيما بعد . وساعدت القوتلى فى تمتين القواعد التى بنى عليها سياسته بعد احتلال الشام كما مر معنا فى فصل سابق . واستطاع بفضل صداقته للملك عبد العزيز آل سعود أن يتوسط لإدخال المجاهدين السوريين إلى المملكة العربية السعودية . وكان هؤلاء قد التجأوا إلى الأردن بعد إخماد نار الثورة السورية ، وتغلب الفرنسيين عليهم . وقد أنذرتهم حكومة الأردن بمغادرة بلادها ، فاضطروا للجوء إلى الصحراء ، وكانوا فى حالة يرثى لها من المرض ، والألم والبؤس . . وسافر القوتلى إلى السعودية تحت وطأة الحمى القاسية ، وكان برفقته يومئذ صبرى العسلى . وقد استجاب الملك سعود إلى طلب القوتلى ، ورحب بالمجاهدين السوريين — وعلى رأسهم سلطان الأطرش — وحدب عليهم ، وأكرمهم ، وأقطعهم أرضا فى « قرايا الملح » ، وأنزلهم فى « وادى السرحان » ، فى مكان يقال له « النبك » ، حيث ظلوا فيه إلى أن تركوه مختارين .

وخلال إقامة القوتلى ، ورفيقه العسلى ، فى السعودية ، كانت تجرى مفاوضات بين الملك عبد العزيز وممثلى بريطانيا ، لإلغاء معاهدة « العقير » — التى عقدت سنة ١٩١٥ — والتى حلت محلها معاهدة « جدة » الحالية ، وهى معاهدة صداقة ليس فيها ارتباط ولا امتياز . وكان للقوتلى مواقف مشهودة إلى جانب الملك الراحل فى تلك المفاوضات .

لا مفاوضة قبل الجلاء

فى ٨ تشرين الثانى سنة ١٩٢٥ — والثورة السورية على أشدّ ما تكون قوةً واحتداماً ، عينت الحكومة الفرنسية هنرى دى جوفنيل مفوضاً « سامياً » فى سورية ولبنان ، خلفاً للجنرال سراى الذى أقالته من منصبه ، واعتبرته مسؤولا عن الحوادث الدامية التى وقعت فى سورية .

وكان دى جوفنيل عضواً فى مجلس الشيوخ ، وأحد ممثلى بلاده فى هيئة الأمم ، ومن كبار الكتاب ، والخطباء السياسيين ، وكانت له مطامح واسعة ، يحلم بتحقيقها عن طريق استقرار الوضع فى سورية . وقد اجتمع مع الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابرى فى جنيف ، وعرج فى طريقه على مصر للاجتماع باللجنة التنفيذية للاتحاد السورى . وكان بانتظاره فى الإسكندرية سكرتير المفوضية ، وبعض كبار الضباط الفرنسيين الذين ذهبوا لإحباط كل مسعى للاتفاق مع الوطنيين — كما هى عادتهم !

وبينما كانت المفاوضات تجرى بين الوطنيين والمفوض الجديد ، كانت القوى الفرنسية تدمّر المنازل فى حى الميدان فى دمشق ، وترتكب من الفظائع ما لم ترتكبه فى عهد الجنرال سراى — مما اضطر رئيس الدولة السورية صبحى بركات للاستقالة فى بيان صريح وعنيف . وحاول دى جوفنيل إصلاح الوضع بتصريحات إيجابية مشجعة ، وأعلن عن تشكيل حكومة يشترك فيها وزراء وطنيون تجرى انتخابات نيابية ، ينبثق عنها دستور ، ومعاهدة بين سورية وفرنسا . وشكلت حكومة برئاسة الداماد أحمد نامى الشركسى ، اشترك فيها فارس الخورى ، ولطفى الحفار ، وكان برنامجها يتضمن ثلاث قواعد رئيسية : الدستور ، والوحدة ، والمعاهدة . وكانت الأقضية الأربعة فى لبنان تطالب بإلحاقها فى سورية . وكان المفوض « السامى » يعد بتحقيق ذلك فى الدستور ، وفى فترة ترقب الظرف ، لتحقيق الوعود المقطوعة ، صدر دستور لبنان ،

فاستنكر الوزراء الوطنيون ذلك ، واعترضوا عليه . وكان الجواب على اعتراضهم واستنكارهم أن أرسلوا إلى أحد المعتقلات فى الجزيرة .

ومع ذلك فقد قرر دى جوفنيل متابعة طريقه « السلمية » ! وأعلن عن انتخابات نيابية لوضع دستور للبلاد . ولكن الشعب السورى قد أصرّ من جانبه على مقاطعة تلك الانتخابات ، مقاطعة تامة . واستطاعت السلطة أن تجرى الانتخابات فى ولاية حلب ، ولكن المجلس الذى انبثق عنها قد اتخذ قراراً بإعلان الوحدة السورية فى أول اجتماع له ؛ فعطله المندوب الفرنسى ، ثم ألغاه بعدئذ .

وعرج جوفنيل مرة أخرى إلى مصر ، وهو فى طريقه إلى باريس ، وحاول الاتصال بالوطنيين وإقناعهم بفائدة التعاقد مع فرنسا . ورغم كل المساوئ التى حصلت فى عهده ، والمجازر الرهيبة التى جرت فى ظل حكمه ، فقد وجد بين الوطنيين من يوافق على الدخول معه فى مفاوضات لعقد معاهدة !

وهنا برز من بينهم شكرى القوتلى ، وجلجل صوته يومئذ فى أسماع الدنيا وهو يردد قول مصطفى كامل : « لا مفاوضة قبل الجلاء » . وأخفقت محاولة جوفنيل الجديدة .

وتسلم بوانكاريه مقاليد الحكم فى فرنسا . وذهب بريان المعروف بسياسته السلمية ، التى حصل بواسطتها على جائزة « نوبل » وهو الذى قال عنه يومئذ فندرفلد وزير خارجية بلجيكا ، ورئيس الحزب الاشتراكى فيها متهكماً : « سلم فى الغرب ، وحرب فى الشرق ! » وكان بريان سند جوفنيل و « معلمه » . واستقال جوفنيل من منصبه — أو أنه أجبر على الاستقالة .

وقفة قصيرة

إننا — ونحن نؤرخ حياة شكرى القوتلى ، نجد أثر هذه الحياة بيّناً فى كل حادثة ذات طابع قومىّ ، وسياسىّ ، واجتماعىّ ، فلا نستطيع أن نغفل هذه الحوادث أو أن نهملها ولا نستطيع ونحن نمر بها ، إلا أنّ نقف عند كل واحدة منها — ولو وقفة قصيرة عابرة .

وعلى ضوء هذا الاعتبار التاريخىّ لابدّ من أن نقفَ عند انتخابات « الجمعية التأسيسية » سنة ١٩٢٨ وعند « معاهدة الشعبانى » سنة ١٩٣٣ التى عرفتْ باسمه ، وأصبحت صفةً لازمةً له . . ولم يجرؤ عميل استعمارى — فى ذلك الحين — أن يتحدى قومه وقوميته ، كما تحداها شاكر نعمة الشعبانى فى مشروع معاهدته تلك . .

أجل . . لابد من وقفة قصيرة عند « معاهدة الشعبانى » ، والدستور الذى وضعته الجمعية التأسيسية . وما كان لشكرى القوتلى — مقيماً ومغترباً — إلى جانب إخوانه البررة ، من جهاد مشكور ، فى القضاء على كل محاولة ترمى إلى إعطاء الدولة المغتصبة المحتلة ، صفةً شرعيةً لاغتصابها ، واحتلالها .

الدستور الأول

كانت سمعة فرنسا قد تردت كثيراً فى « عصبة الأمم » بفضل الجهود التى كان يبذلها المجاهدان الكبيران : إحسان الجابرى ، والمرحوم الأمير شكيب أرسلان [1] . وكانا يقيمان يومئذ فى جنيف . ويدأبان باستمرار على تزويد أعضاء « عصبة الأمم » بالمعلومات الدقيقة عن الحالة فى سورية . وعن الوضع السيئ فيها . وعن السياسة المستبدة الغاشمة التى تتبعها فرنسا ضد الشعب الذى ينشد الحرية ، ويطلب الاستقلال .

فضلا عن الزعماء الكثيرين الذين كانوا يترددون إلى مقرّ « عصبة الأمم » ، يتصلون بأعضائها ، ويوزّعون عليهم البيانات ، ويسهبون بشرح تعديات فرنسا ، وخنقها للحريات ، وتنكيلها بالأحرار .

وفضلاً عن الصيحات المدوّية التى كان يصل صداها إلى مقر « العصبة » من المغتربين السوريين فى الخارج ، الذين كان لهم مواقف مشرّفة بالدفاع والكفاح [2] ، ومن سورية نفسها رغم وسائل الكبت والقمع ، والضغط

(١) راجع كتاب الدكتور سامى الدهان عن الأمير شكيب أرسلان .

(٢) للأديب الكبير الأستاذ نظير زيتون كتابات كثيرة وجولات رائعة فى هذا الموضوع يحسن الرجوع إليها فى مؤلفاته العديدة المفيدة .

والإرهاب ، ضدّ كلّ من يحاول النقد أو يجأر بالشكوى .

ولم تكن عصبة الأمم يومئذ — ولا بعدئذ — موئلاً للحقّ ، ولا ركيزةً له . بل كانت سبيل الأقوياء للتحكم بالضعفاء . ووسيلةً لإضفاء الصّفة الشرعية على كل حماية وانتداب ، وظلم واغتصاب — كما قال الشاعر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فنظمت حواشيه حتى صار ظلماً منظما

وكانت كلُّ دولة مستعمرة فى تلك الهيئة الدولية الفاشلة ، تحاول أن تضفى على نفسها مسوح الرهبان . وتحاول تجاه الرأى العامّ العالمىّ أن تظهر بمظهر المعلم المرشد للشعوب المتخلفة ، والبلدان المتأخرة . و « التخلف » و « التأخر » كان بزعم تلك الدول الباغية ، وقفاً على الشعوب المستعبدة ، والأقطار المستعمرة .

وبالرغم من أن صيحات الاستقلال لم تجدْ لها فى أروقة « عصبة الأمم » نفوساً مستجيبةً ، ولا قلوباً متفتحةً للرحمة والعدل ، إلا أنها كانت عاصفةً فى آذان المستعمرين ، وشجىً فى حلوقهم ، وشوكاً فى دروبهم ، ووسيلة لإيذائهم ، والنيل من سمعتهم وكرامتهم .

أجل . . بالرغم من أن تلك الحملات العنيفة ، المستمرة ، لم تجد طريقها إلى ضمائر المندوبين فى تلك « الهيئة الدولية » ، ولم تجدْ سبيلها القويمَ إلى وجدان من كان ذا وجدان منهم ، إلا أنها استطاعت أن تشق طريقها إلى آذانهم ، وأن تدغدغها فى كل صباح ومساء ، وتطرقها فى كل مناسبة وظرف ، وأنْ تؤرّق صاحبها ، وتشغله بعض الوقت ، وتنبهه إلى أن صاحب الحق الهضيم ، لا يسكت عن حقه ، ولا ينام .

وكان لابد للفرنسيين أن يخمدوا تلك الصيحات ، وأن يخنقوها فى مهدها — طالما أنهم لا يستطيعون خنقها فى مركز « عصبة الأمم » . فأعلنوا عن رغبتهم فى وضع دستور لسورية ، وعقد معاهدة صداقة وتحالف معها .

وعين بونسو مفوضاً سامياً — فى ١٤ آب سنة ١٩٢٦ — ومعه تفويض من وزارة الخارجية الفرنسية لتهدئة الحالة فى سورية ، وضمان الاستقرار فيها . وكان

بونسو هذا يلقب بالمفوض « الصامت » ، وكان عهده أطول من عهود سائر المفوضين الفرنسيين ، إذ أنه قضى فى سورية ولبنان سبع سنوات ونيف .

واستهل بونسو عهده — كسائر المفوضين السابقين — بتصريحات مشجعة وبيان مسهب حافل بالوعود والعهود . وقابله الوطنيون بمطالبهم المعروفة التى لم تتغير ولم تتبدل — لحمتها الحرية ، وسداها الاستقلال .

وبعد فترة طويلة من الدّراسة ، والتنقل بين بيروت وباريس ، أقيل الداماد أحمد نامى من رئاسة الحكومة ، وعين بدلا منه الشيخ تاج الدين الحسنى — فى ٨ شباط سنة ١٩٢٨ — وكان الشيخ تاج يومئذ من رجال المعارضة ، فلم يعترض على تعيينه الوطنيون ، وربما رحب بعضهم به ، واعتبرها بادرة طيبة يمكن الاعتماد عليها .

وفى ١٥ شباط أصدر المندوب الفرنسى بياناً دعا فيه لانتخاب « جمعية تأسيسية » ، تضع دستوراً يتفق وأمانى الشعب . وانقسمت « اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى » على بعضها . وعارض بعض أعضائها الموجودين خارج البلاد فكرة الاشتراك بالانتخابات . وانتقدوا قانون الانتخاب الذى أعد بشكل يكفل للسلطة تحوير إرادة الناخبين . ورغم مساوئ قانون الانتخابات والجو الذى يكتنفه الغموض والإبهام ، فقد رأى الوطنيون أن المصلحة تقضى بأن لا يتركوا الساحة لعملاء فرنسا ، يضعون دستوراً على هواهم ، وهوى الدولة « المنتدبة » ، ويكون سنداً لها فى خنق الحريات ، وركيزة للاضطهاد والاستعباد . وقرّروا خوض معركة الانتخابات .

وجرت الانتخابات فى ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٨ وكانت حامية الوطيس ، محتدمة الأوار . ونجح الوطنيون فيها نجاحاً باهراً رغم المداخلات والاستفزازات ، وسيطروا على « الجمعية التأسيسية » التى افتتحت فى ٩ حزيران وانتخب هاشم الأتاسى رئيساً لها . كما انتخب إبراهيم هنانو رئيساً للجنة الدستور ، وفوزى الغزى مقرراً . وباشرت « الجمعية التأسيسية » عملها بهمة ونشاط .

وبعد أن وضعت اللجنة مشروع الدستور ، وعرض على الجمعية التأسيسية ،

ثار المفوض « السامى » وأرغى وأزبد ! وتلا سكرتيره بياناً مطولا فى « الجمعية التأسيسية » حذرها من الموافقة على المواد ٢ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ١١٠ و ١١٢ [١] وطلب حذف هذه المواد من صلب الدستور قبل التصويت عليه . وتعاقب الخطباء الوطنيون على المنصة فى حماسة بلغت الذروة ، وعرض على الجمعية قرار برفض طلب المندوب الفرنسى ، وإقرار الدستور بجملته دون حذف شىء من مواده . وجرى التصويت فلم يخالف إلا ٧ من أصل ٦٩ وكان رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين أحد المخالفين . وخرج من قاعة المجلس يجر أذيال الخيبة والفشل . وافترق عن الوطنيين من تلك الجلسة التاريخية ، وصار فيما بعد خصماً عنيداً لهم .

وعجز الفرنسيون عن الوقوف فى وجه التيار الذى فرض الدستور الحرّ على الجمعية التأسيسية فرضاً . وهكذا ربح الشعب معركة الدستور ، واستعد لمعركة المعاهدة .

لقد كان لموقف الجمعية التأسيسية البطولىّ أثر عميق فى نفس الفرنسيين ، وصدى شديد الوقع عنيف — كان من نتائجه الأولى أن اتخذ المفوض « السامى » قراراً بتعطيل الجمعية التأسيسية ثلاثة أشهر ، ثم أتبعها بثلاثة أخرى ، ثم أصدر قراراً بتأجيلها إلى أجل غير مسمى ! وغرق بونسو « الصامت » فى « صمته» العميق .

وبعد مرور سنة على تعطيل « الجمعية التأسيسية » عقد الوطنيون مؤتمراً فى « عين زحلتا » تقدّموا فيه بمذكرة إلى الجهات الفرنسية جاء فيها :

« إن الشعب السورىّ لم يعد يطيق الحكم المطلق الذى من طبيعته ضياع المسؤولية ، وجعل الحكم فى أيدى موظفين ضعفاء ، لا كفاءة لهم حتى يكونوا

(١) هذه المواد تتعلق بوحدة البلاد السياسية والجغرافية . وبصلاحيات رئيس الجمهورية بإعلان العفو الخاص ، وعقد المعاهدات الدولية وإبرامها ، واختيار رئيس الوزراء ، وتعيين الوزراء (بناء على اقتراح رئيسهم) والقضاة والموظفين الملكيين (ضمن حدود القانون) وإعلان الأحكام العرفية – على أن يعلم المجلس بها فوراً . وتنظيم الجيش . ويمكن الاطلاع عليها فى دستور سنة ١٩٢٨ .

حجة على قصور السوريين ، وعجزهم عن الحكم . . ! ونحن نصرّح بأن هذا الشعب لا ينظر بعين الرّضى والقبول إلى أىّ دستور كان غير دستوره الذى قبله نوابه فى ٧ آب من العام الماضى ، ولا أى تعديل يطرأ عليه بغير إرادته . وهو يعتبر كل حكومة تقوم على غير أساس الدستور حكومة غير مشروعة . ولا يكون الشعب السورى مسؤولا عما تتخذه من قرارات ، وتوقعه من عقود ، وتمنحه من امتيازات » .

وفى ٢٣ حزيران سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر فى دمشق حضرته وفود عديدة من بيروت ، وطرابلس ، وجبل عامل ، وبعلبك ، ووادى التيم ، واللاذقية ، والبقاع ، وجبل الدروز ، وحصن الأكراد ، أعلنت كلها تأييدها للكتلة الوطنية ، وطالبت بتحقيق الوحدة السورية ، وبدستور يضمن الوحدة والحرية ، ويكفل الاستقلال التام .

وفى أوائل آذار سنة ١٩٣٠ عقد الوطنيون مؤتمراً فى إحدى ضواحى دمشق قرروا فيه العودة إلى النضال إذا لم تُستجب مطالب الشعب بإصدار الدستور الذى أقرته « الجمعية التأسيسية » . وتقدموا بمذكرة جديدة إلى المفوض الفرنسى هددوا فيها بإعلان الإضراب ، إذا لم يفرج عن الدستور « المعاق » ، وإذا لم يصدر خلال فترة حددها الإنذار .

وغادر بونسو « الصامت » بيروت إلى فرنسا ، ثم عاد ليعلن الدستور — بقرار أصدره المفوض السامى فى ١٤ أيار — بعد أن أضاف على آخره المادة ١١٦ التى غلته وشلته ، وعطلت أحكامه ، وقيدت حريته [١] .

(١) نصت المادة ١١٦ على ما يأتى :

ما من حكم من أحكام الدستور يعارض ، ولا يجوز أن يعارض التعهدات التى قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية – لا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعية الأمم .

يطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد التى تتعلق بالمحافظة على النظام ، وعلى الأمن ، وبالدفاع عن البلاد ، وبالمواد التى لها شأن بالعلائق الخارجية .

لا تطبق أحكام هذا الدستور التى من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية فى أثناء مدة هذه التعهدات –إلا ضمن الشروط التى تحدد فى اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية =

ومما زاد الطين بلة ، والجو اضطراباً واكفهراراً ، أن صدر مع دستور سورية قرارات بأنظمة ، وقوانين أساسية تتعلق بحكومة العلويين ، وجبل الدروز ، ولواء الإسكندرونة ، ونظام المصالح المشتركة . وكانت هذه القرارات بمثابة تفكيك لعرى الوحدة السورية ، وتمزيق شملها ، وتقطيع أوصالها . وقامت المظاهرات فى سائر أنحاء البلاد احتجاجاً على هذه السياسة الخرقاء التى تتبعها فرنسا ، لتجزئة الوطن الواحد ، وجعله حكومات وبلداناً !!

واستمر السوريون يعربون عن سخطهم واستنكارهم فى شتى المناسبات والظروف ، ولم تمر سانحة إلا اغتنموها ، ولا وسيلة إلا استثمروها ، لإظهار نقمتهم ، وعدم رضاهم . وقام هاشم الأتاسى خلال هذه الفترة بعدة مفاوضات لعقد معاهدة مع الفرنسيين ، ولكنها لم تسفر عن نتيجة ؛ مما حفز الجانب السورى لمتابعة الإبراق إلى هيئة الأمم ، والقيام بالمظاهرات ، والإعراب عن النقمة والسخط ، بشتى الوسائل والأساليب .

وإزاء ضغط الشعب ، وصلابته ، اضطر المفوض « الصامت » إلى أن « ينطق » آخر الأمر ، ويدعو الشعب إلى انتخابات نيابية ينبثق عنها عهد دستورى صحيح . وأقال حكومة الشيخ تاج التى ظلت فى الحكم قرابة أربع سنوات . وأصدر ثلاثة قرارات : أولها بتشكيل مجلس استشارى . وثانيها بإحداث أسلوب إدارى مؤقت[١] . وثالثها بإعطاء نفسه صلاحية رئيس

= وعليه فإن القوانين المنصوص عليها فى مواد هذا الدستور ، والتى قد يكون لتطبيقها علاقة بهذه التبعات ، لا يتناقش فيها ولا تنشر وفقاً لهذا الدستور — إلا تنفيذاً لهذا الاتفاق .

ان القرارات ذات الصفة التشريعية والتنظيمية التى اتخذها ممثلو الحكومة الفرنسية لا يجوز تعديلها إلا بعد الاتفاق بين الحكومتين .

(١) كان المجلس الاستشارى مؤلفاً من رؤساء الدولة السورية السابقين ، ورئيس مجلس الشورى ، ورئيس محكمة التمييز ، وعميد جامعة دمشق ، ورئيس مجلس الإسكندرونة ، ورئيسا غرفتى التجارة فى دمشق وحلب . ولم يجتمع هذا المجلس إلا مرة واحدة فى ٧ كانون الأول أعلن فيها موعد الانتخابات . وافتتحه المفوض السامى بخطبة ضافية . . . وأما المجلس الإدارى المؤقت فكان مؤلفاً من وزراء عاملين يرأسهم بايع المؤيد ، وكان السيد توفيق الحيانى أميناً عاماً له .

الدولة ! ! وظل هذا النظام الجديد أكثر من ستة أشهر، وقد جرت الانتخابات النيابية فى ظله .

وانقسم الوطنيون على أنفسهم بين مؤيد لفكرة الاشتراك بالانتخابات ، وبين معارض لها . واستقر الرأى آخر الأمر على دخول المعركة حتى لا يترك المجال رَحباً لأذناب الاستعمار ، يُفرضون على البلاد فرضاً ، ويجىء بهم الأجنبى المستعمر ، ليُقروا معاهدة جائرة ، ويقودوا البلاد إلى ساحة التعاقد الذليل — مع الدولة المعتدية الباغية .

وجرت الانتخابات فى ظل الحراب الفرنسية فى ٢٠ كانون الثانى سنة١٩٣٢ . وكانت فرنسا قد هيأت لأنصارها كل أسباب الظفر والنجاح . ولكن إرادة الشعب قد شمست عليها فى دمشق ودوما وحلب وحماه . فسقط فى هذه المدن عشرات القتلى والجرحى . وانسحب الوطنيون فى حلب احتجاجاً على أعمال التزوير والضغط وكبت الحريات . وهكذا خلا الجو لقائمة الفرنسيين فى حلب فنجحت بكاملها . وأما فى حمص فقد نجحت قائمة الوطنيين واضطرت السلطة لإيقاف الانتخابات فى دمشق وحماه ودوما ، ثم عادت فأجرتها فى ٢٠ آذار حيث نجح الوطنيون ومن يؤيدونهم ، وسقطت قوائم الفرنسيين . وأما فى بقية أنحاء البلاد الأخرى فقد أنجح الفرنسيون مرشحيهم كافة بقوة السلاح !

وترك إقصاء إبراهيم هنانو وسعد الله الجابرى عن المجلس الجديد أثراً كبيراً فى نفوس الناس . وكان فشل هذين الزعيمين فضيحة لفرنسا ، وفضيحة لانتخاباتها المزورة — التى صورها الشاعر القروى ، فأبدع فى تصويرها :

إنى أعيذُكَ من مجدٍ يُخَضِّ له جفنُ الإباء ، ويَستحيي به الكَرَمُ
قد يحسبُ المرْءُ نذلا وهو مُنتَصِرٌ وقد يُعدُّ شَريفاً وهو مُنهزمُ

ولم ينجح ضد التزوير الفاضح إلا ١٧ نائباً — من أصل ٦٩ — جاءوا ليعبروا عن إرادة الشعب ، فى معركة الشعب — معركة الحياة والموت . معركة عبودية مشروعة ، وعبودية غير مشروعة .

ولم يكن المهم أسماء النواب الناجحين ، ولا أشخاصهم ، ومن هم ، وإنما

كان المهم العمل الذى سيقومون به ، والدور الذى سيؤدونه ، والمهمة التى يضطلعون بأعبائها — وهى إحباط المعاهدة التى كانت ستضفى على الاستعمار غير المشروع الصفة الشرعية والقانونية .

وانتخب صبحى بركات رئيساً للمجلس ولم ينل هاشم الأتاسى مرشح الوطنيين إلا أصواتهم السبعة عشر ، لأن المندوب الفرنسى كان فى المجلس يراقب النواب الذين فرضهم بقوة السلاح ، ويحصى عليهم الحركات والأنفاس !!

واحتدمت المعركة حول انتخاب رئيس للجمهورية ، وكان هاشم الأتاسى مرشح الوطنيين ، وصبحى بركات وحقى العظم مرشحى الفرنسيين . وبعد مفاوضات عدة ، وتهديد الوطنيين بالانسحاب من المجلس ، وإعلان مقاطعته اضطر الفرنسيون لقبول حل وسط وهو انتخاب محمد على العابد رئيساً للجمهورية . وفاز محمد على العابد بستة وثلاثين صوتاً ، وصبحى بركات باثنين وثلاثين . وقبل الوطنيون الاشتراك فى الوزارة التى شكلها حقى العظم ، مكافأة له لأنه انسحب من ميدان الترشيح ، وانحاز إلى جانب محمد على العابد الذى أيده الوطنيون . وكان الوزيران الوطنيان فى حكومة العظم جميل مردم ، ومظهر رسلان — اللذين استمرا فى الحكومة المؤتلفة إلى نهاية شهر نيسان سنة ١٩٣٣ حتى أصدر الزعيمان الأتاسى وهنانو بياناً أعربا فيه عن إخفاق كل محاولة للتفاهم مع فرنسا .

وفى هذه الأثناء نقل المفوض « السامى » بونسو من منصبه فى سورية ولبنان إلى مراكش ، وعين خلفاً له الكونت دومارتل الذى وصل إلى البلاد فى ١٤ تشرين الثانى سنة ١٩٣٤ . وبعد وصوله بفترة وجيزة قرر عرض المعاهدة على مجلس النواب — بعد أن نشر نصها فى الصحف . وكان يأمل أن تلاقى موافقة من المجلس الذى فرض أكثر أعضائه على الشعب ، وفيه أكثرية ملحوظة تعمل لصالح الفرنسيين . .

ولم يثن دومارتل عن عزمه ما قابل به الشعب السورى هذا القرار من

مظاهرات واحتجاجات واضطرابات ، بل عقد العزم وهو مطمئن إلى « الأكثرية » التى تعضده فى مجلس النواب .

وبمناسبة صدور الدستور اضطر الفرنسيون لإصدار عفو عام يشمل المنفيين ، والمحكومين السياسيين . فعاد القوتلى من منفاه ليشترك مع إخوانه فى مقاومة « الشعبانى » وحكومته ، ومعاهدته ، وليعمل وإياهم على وأدها ، وخنقها فى مهدها .

معاهدة الشعبانى

وسميت باسم « الشعبانى » لأنه كان أكثر الوزراء حماسة لها ، واندفاعاً فى سبيلها ، ودفاعاً عنها فى مجلس النواب !!

وجند الفرنسيون « عملاءهم » لإقرار المعاهدة ، وجند هؤلاء « العمال » إمكانياتهم الهزيلة لخدمة مصلحة فرنسا ضد مصالح بلادهم وأمتهم ، وفى كل عهد يجد الإنسان « إسخريوطيا » جديداً ، يبيع نفسه — كما باعها يهوذا ، الذى أصبح فى التاريخ مضرب المثل فى الخيانة واللؤم .

وجند الوطنيون الأحرار إمكانياتهم الضخمة للحؤول دون خطر المؤامرة ، وإقرار المعاهدة .

وكان النواب الوطنيون قد انسحبوا من مجلس النواب ، وقاطعوا جلساته . فاضطروا للعودة إليه حتى يحولوا دون التصديق على المعاهدة ، وإقرارها .

وشهدت البلاد « حرباً » عنيفة ضروساً .

وقامت المظاهرات فى الشوارع ، والخطباء فى المساجد ، والفدائيون يطرقون بيوت النواب فى الليل ، يهددونهم ، وينذرونهم .

وهب الشعب كله يهتف وينادى بسقوط المعاهدة وخيل للناس أن القيامة قد قامت ، وأن يوم الحساب قد دنا .

وفى هذا الجو العنيف الضاغط عرضت المعاهدة على مجلس النواب [1] .

---

(١) كان المرحوم سليم جنبرت عضواً فى الوزارة ، وقد استقال منها قبيل عرض المعاهدة على مجلس النواب رغم أنه كان من أصدقاء فرنسا الحميمين .

واضطر النواب الموالون لفرنسا أن يسمروا أيديهم على المقاعد — لا يرفعونها ، وأن يخنقوا أصواتهم فى الحناجر لا يجهرونها ، وأن يحبسوا ألسنتهم فى أفواههم لا يخرجونها .

ولم يُجد دفاع شاكر نعمة الشعبانى عن المعاهدة ، ولا ثناؤه عليها ، وامتداحه إياها ؛ وسقطت المعاهدة ، وسقط هو بعدها . .

وقاد المعركة النواب الوطنيون السبعة عشر : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

ووقف رئيس المجلس النيابى صبحى بركات إلى جانب النواب الوطنيين يؤيدهم ويعضدهم — وهو لم ينس معركة رئاسة الجمهورية ، وقد خذله فيها الفرنسيون ، بعد أن كانت منه قاب قوسين أو أدنى .

وسقطت المعاهدة ، وربح الشعب معركة قومية رهيبة ، وأضاف إلى انتصاراته الخالدة نصراً جديداً .

وانطوت من تاريخ الاستعمار الغاشم صفحة لتتلوها صفحات .

وكان لجميل مردم موقف رجولة وبطولة فى ذلك اليوم . ومن الواجب أن يذكر له ، ومن الخير أن يسجل . فقد اعتلى منصة مجلس النواب ، واستأثر به . وظل ينقد المعاهدة ، ويهدمها ويذكر مساوئها ومخاطرها ، حتى سقطت صريعة تحت أقدام النواب .

وخذلت فرنسا من المجلس الذى حشدت فيه أكثرية لتحقق رغبتها ، وتنفذ إرادتها .

وخرج الشعب السورى منتصراً ظافراً . فهو لا يؤمن بأنصاف الحلول ، ولا يساوم على الحرية والكرامة . ورحب بالقيد الخشن الغليظ ، مفضلا إياه على القيد المموه الناعم ، اللين الملمس ، والمحكم الإغلاق :

فإما سيادة كاملة ، وحرية شاملة ، وإما . . . لا شىء .

و . . . « اللا شىء » أفضل وأجمل من عبودية تحت ستار حرية ، واحتلال وراء مظهر استقلال .

واستقال حقى العظم — أو أنه أجبر على الاستقالة من رئاسة الوزارة . وفى ١٦ آذار سنة ١٩٣٥ فرض الشيخ تاج على رئيس الجمهورية لتكليفه بتشكيل الحكومة الجديدة . وكان بين محمد على العابد ، والشيخ تاج عداء و بغضاء وكره . ولكنه أفهم أن «الأزمة» قد تنتقل إلى رئاسة الجمهورية إذا لم يوافق — فوافق . وهكذا عاد « الشيخ » مرة أخرى إلى الحكم — يلهى الناس بالأبنية والأقنية ، والخطوط الحديدية ، عن قضيتهم الكبرى — وهى الاستقلال .

وذهب الشيخ تاج إلى باريس فى فصل الصيف . وودعه عمر أبو ريشة بقصيدة عنيفة — منها :

ذَهبَ « الشيخ » والوقيعة تبـدو ... بين عينيـه والدَّمارُ الفاجعْ
ليْتَ شعرى ماذا يُسَطَّرُ عنا ؟ ... قطَّعَ الله كفَّـه والأصابـعْ

المؤتمر العربى القومى

وسافر شكرى القوتلى إلى القدس فى كانون الأول سنة ١٩٣١ ليشترك مع أحرار العرب فى عقد « المؤتمر العربى القومى » . وليقرّر وإياهم الميثاق التاريخى الذى يحتّم على رجال العرب أن يسيروا عليه . وهو :

١ — إن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ . وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ، ولا نعترف به .

٢ — توجه الجهودُ فى كل قطر من الأقطار العربية إلى جهة واحدة — هى استقلالها التام كاملة موحدة . ومقاومة كل فكرة ترمى إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية .

٣ — لما كان الاستعمار بجميع أشكاله ، وصيغه ، يتنافى كل التنافى مع كرامة الأمة العربية ، وغايتها العظمى ، فإن الأمة العربية ترفضه ، وتقاومه بكل قواها .

ثم قرر المؤتمرون ضرورة عقد مؤتمر عربىّ عام فى إحدى العواصم العربية ، للبحث فى الوسائل المؤدية ، والخطط الموصلة إلى تحقيق هذا الميثاق . وألفوا لجنة

تنفيذية لنشره ، وتهيئة الوسائل لعقد المؤتمر . وكان شكرى القوتلى أحد أعضاء هذه اللجنة .

القوتلى يرعى النهضة الاقتصادية

وعمد الفرنسيون إلى أسلوبهم التقليدىّ فى مستعمراتهم ، وهو إفقار الشعب ، والقضاء على كل نهضة اقتصادية وصناعية فيه . وهكذا فرضوا ضرائب باهظة على الزراعة والصناعة ، وحالوا دون توسعها وانتشارها ، بل دون نمائها وبقائها .

واستبدت بالبلاد أزمة اقتصادية خانقة ، كانت كابوساً ثقيلا مرهقاً ، لا يقل أثراً وخطراً عن كابوس الاستعمار .

والفقر فى ظل الاستعمار شىء طبيعى . . وفى منطقه الأعرج الأعوج شىء عادى .

وهكذا . . . انتقل الجهاد ، من ميدان إلى ميدان ، من ميدان موحل مغبر ، يعج بالحديد والنار ، ويمتلئ بالدم والغبار ، إلى ميدان صامت ساكن ، يخفى فى قلبه العاصفة ، ويحتضن البركان ؛ وهو فى صمته أعظم هولاً من ضجيج العاصفة ، وأشد رُعباً من زمجرة القنابل ، ودوى الرّصاص .

هذا هو ميدان الاقتصاد الذى يحترب من أجله العالم ، ويصطدمُ ، ويتنازع . والذى تنبعثُ منه كل شرارة حرب ، وكل فكرة قتال . والذى تلمح أثره وراء كل أزمة ، وخلال كل اتفاق .

وعكف شكرى القوتلى على دراسة الأوضاع الاقتصادية ، ومجابهة المستعمرين الذين يعملون على تفاقم الأزمة ، واضطراب الأحوال ؛ ويسعون لإشغال البلد فى مشاكل اقتصادية ، تلهيه عن مشاكله السياسية ، وواجباته القومية ، وتضعف فى نفسه روح العمل الجماعى ، وتخلق له ألف مشكلة ومعضلة ؛ وتضع فى طريقه عراقيل يصطدم بها فى البيت ، وفى الشارع ، وفى كلّ مكان يتجه إليه ببصره ، وتجول به قدماه .

وهى خطة ماكرة مدبرة ، كثيراً ما تنجح فى أول الأمر ، ولكنها تنقلب على أصحابها فى آخره .

ووجد القوتلى وإخوانه أعضاء الكتلة الوطنية — التى شكلت سنة ١٩٢٨ وجمعت أحرار البلاد كلهم فى هيئة واحدة — أن اقتصاد البلاد أوشك أن ينهار ، وأن الحال تزداد سوءاً كل يوم . فالصناعة فى تدهور ، والزراعة فى تأخر ، والإنتاج فى كساد ؛ والحكومة الفرنسية تعفى منتجاتها من كل رسم — إلا من بعض الرسوم الشكلية التافهة ؛ وهى تزاحم المنتجات المحلية فى عقر دارها ، وتغزوها ، فالمنتجات الفرنسية تجد كل تسهيل ومساعدة ، فى حين لا تجد المنتجات الوطنية إلا التثبيط والمقاومة ، والعمل على إضعافها وانهيارها !

وكان للقوتلى رصيد ضخم عند الشعب استمده من كفاحه ونضاله ، وتضحيته وإخلاصه ، وقد استثمر رصيده عند الشعب ، لخدمة الشعب ؛ وسعى به ، وبواسطته ، لتنمية الاقتصاد وازدهاره ، ولإيجاد صناعة قوية متماسكة ، متضامنة متساندة ، تصون اقتصاد البلاد ، وتدعمه ، وتنميه .

ومن المشاريع الهامة التى أسسها شركة « الكونسروة » ، التى ساعدت على تصريف الإنتاج الزراعى ، وكانت وسيلةً صالحةً لتصنيع المنتجات الزراعية وتحسينها ، وإيجاد أسواق لها فى الخارج كما ساهم فى إيجاد عدد من المؤسسات الصناعية للغزل والنسيج .

وهكذا أثمرت الجهود المضنية التى بذلها القوتلى وإخوانه ، أيما إثمار ، وضمن نطاق الإمكانيات وشهدت البلاد تقدماً اقتصادياً ملموساً ، ونهضة صناعية حبت على قدميها ، ثم شمرت عن ساعديها ، ثم نهضت كالعملاق ، ثم أصبحت نواة للنهضة الاقتصادية الحديثة ، ومنارها وفخارها .

وكان لشكرى القوتلى يد طولى ، فى ذلك ، وفضل كبير .

فترة

ومرت فترة ركود كان يتخللها إضرابات ومظاهرات ، وتعبير عن شعور الكراهية ، وعدم الرّضى ، بشتى الوسائل والمناسبات .

وكان الفرنسيون — كعادتهم دائماً — يعمدون إلى وسائل التنكيل والتعذيب ، كلما ارتفع صوت ، أو قامت مظاهرة ، أو بدَتْ فى الأفق دلائل تشير إلى تحفز ، ووثب ، وتهيُّؤٍ للكفاح . وكان الوطنيون يستثمرون كلّ مناسبة ويستغلونها لإظهار نقمتهم ، وحمل الشعب على التظاهر والإضراب .

ومع ذلك فقد كانت هذه الفترة أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة ، أو الذى ينجم عنها . ولابدّ للجسم المتعب من فترة استراحة تطول ، أو تقصر ، تبعاً لوضعية الجسم ، والظرف والمناسبة .

واستثمر الفرنسيون غلبتهم وظفرهم ، لتوطيد دعائم استعمارهم ، وتركيزها على أسس متينة صابة . فنكلوا بالأحرار ، واستبدوا بالساطة ، وبسطوا على الحكم أجنحة صفيقة من الظلم والإرهاب . . وأيقظوا النزعات الطائفية ، والعشائرية ، والإقليمية ، والعنصرية ، واستغلوها إلى أبعد مدى ، وأوسع نطاق .

وساعدهم على بثّ روح التفرقة والتجزئة ، وإضعاف الروح المعنوية نفوس الشعب ، وبذر بذور الفتنة والشقاق بين أبنائه ، فئةٌ من المرتزقة المأجورة ، لا كرامة لها ، ولامروءة عندها . فكانت أشدّ ضرراً على العربى ، من الأجنبى ، وعلى الوطنى ، من المستعمر الدخيل[1] ! !

(١) يقول الأستاذ أديب الطيار فى كتابه « حسنات الاضطهاد » إن الحكومة الفرنسية قد استصدرت من المجلس التمثيلى لدولة العلويين قراراً وقعه أكثر الزعماء العلويين فى ذلك الحين وينص على أن العلوى مخلوق « دامى سوقاج » — أى نصف بربرى — لا يحكم إلا بالشدة والعنف ! وأرسل القرار إلى هيئة الأمم ليدعم به روبير دوكه ممثل فرنسا فيها ادعاءاته للاحتفاظ فى محافظة اللاذقية تحت الانتداب الفرنسى ! فتأمل ! !

وعاشت سورية الجريح أياماً كالحة السواد ، دامية الاحداث .

وعانت خلال هذه الفترة أقسى ما يعانيه مؤمن امتحن بالبلاء ، والداء . فتحمل الألم ، واعتصم بالصبر ؛ واحتبس فى قلبه غُصَصَ الأسى ، وفى نفسه حلاوة الحقد ، ومرارة الهوان .

معاهدة ١٩٣٦[1]

أطل عام ١٩٣٦ وفى ثناياه طلائع عاصفة ، ونذر بركان .

أطل على جو مشحونٍ بالغيوم ، حافل بالاضطرابات .

وانقضت فترة الهدوء والركود فى مستهل هذا العام وعاد الشعب إلى نضاله وكفاحه من أجل الحرية والاستقلال . فكان ذلك الإضراب الذى استمر نيفاً وستين يوماً تخللته أحداث جسام ، واضطرابات عنيفة ، مروعة ، واستبسل الشعب بالدفاع عن حقه المضيم . واستقلاله السليب.

وكانت وفاة المرحوم إبراهيم هنانو فى أوائل كانون الثانى سنة ١٩٣٦ فاتحة عهد جديد ، لكفاح مجيد . وانطلقت شرارة سنة ١٩٣٦ الأولى، من حفلة ذكراه الأولى . فصدق فيه قول المرحوم شوقى :

قد بعثتَ القضيةَ اليوم ميْتاً   رُبَّ عظم أتى الأمور العظائم

وأصدرت « الكتلة الوطنية » بيانها المعروف بالمطالب الوطنية . فقابله الفرنسيون باحتلال مكاتب « الكتلة » ، وبأشد أنواع الظلم والضنك والإرهاب . وهب الشعب السورى كله هبة رجل واحد . وأعطت دمشق الجبارة أروع صورة لأعنف كفاح . وكانت شوارعها المقفرة ، وحوانيتها المغلقة ، تروى قصة بطولة ندر مثيلٌ لها بين البطولات ، حتى أصبحت مضرب المثل ، وجزءاً من الأساطير ، مما اضطر مدرساً فرنسياً أن يعترف أمام طلابه : « أن شعباً يضرب عن العمل ستين يوماً ، لهو غريب الأطوار ، عظيم » .

(١) راجع كتاب « الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب » منشورات جريدة « الأيام » الدمشقية .

وكان لقرار المفوض « السامى » بشأن « الطوائف الدينية » ، وقراره الآخر بشأن « إدارة المحافظات » ، أثر كبير فى التهاب الخواطر ، وتفاقم الاضطرابات .

واشتركت القرى الصغيرة فى الريف السورى ، مع العاصمة ، والمدن الكبرى ، بالإضراب والاحتجاج ، وشاركتها فى شعورها وحماستها . وهكذا هب الشعب كله للمطالبة بحقه ، دون هوادة ولا لين .

وتميز هذا الإضراب بمشاركة أحرار اللاذقية ، وجبل الدروز . مطالبين بـ « الوحدة السورية » ومقاومين سياسة « الانفصال » .

ونشط الفرنسيون وعملاؤهم لمحاربة فكرة « الوحدة » والإبقاء على الانفصال . وكانت معركة عنيفة بين أنصار الفكرتين المتناقضتين ، قام الفرنسيون فيها بدور رهيب حازم . وقام الشعب من جانبه بدور مستميت حاسم . ولم يأبه أبناؤه للاعتقال ، ولا أحراره للاعتداء والإيذاء ، ونشطت حتى « اللصوصية » ضد المطالبين بالوحدة السورية . ونشطت سياسة العنف والتنكيل والتعذيب .

وكان الفرنسيون يسلطون الأشرار على الأحرار ، والخونة على المخاصين ، يسلبون وينهبون ، ويعتدون ويؤذون ! كل ذلك تحت سمع فرنسا وبصرها ، وبتشجيع من جنودها و « مستشاريها » !

وكثيراً ما كان يسجن « المسروق » و « المضروب » ، ويترك « القاتل » ، و « الضارب » ، ويكرم « المعتدى » ، ويعاقب « المعتدى عليه » . كل ذلك باسم المدنية والإنسانية ، وباسم قانون الانتداب ، وشرعة « عصبة الأمم » . ! !

مآس ستظل فى جبين الإنسان لطخة عار إلى الأبد . .

وستظل نقطة سوداء فى تاريخ المدنية والحضارة ، وفى جبين الدولة التى تدّعى المدنية والحضارة .

وثبتت العقيدة — آخر الأمر — وانتصر الإيمان .

وخذل الباطل ، وانهزم الاستعمار .

وأقيلت وزارة الشيخ تاج فى ٢٤ شباط . وكلف عطا الأيوبى بتشكيل

الوزارة الجديدة ، لكى تقوم بمهمة الوساطة مع الوطنيين .

واضطر الفرنسيون إلى الإذعان لمطالب الشعب . ووقع مندوبهم « الكونت دومارتيل » اتفاقاً فى أول آذار يتضمن : « موافقة الحكومة الفرنسية على استقبال وفد رسمى يتفاوض معها فى باريس لعقد معاهدة » .

وأطلق سراح المعتقلين السياسيين .

وعاد فخرى البارودى من منفاه فى الجزيرة . ودخل دمشق محمولا على الأكتاف . وفخرى البارودى أنفق فى سبيل بلاده ماله ، وبذل جهده ، ووقف نفسه[1] . فكان مناضلا شريفاً وكان مواطناً كريماً . وكانت نفسه الخيرة مشبعة بحب التضحية والجهاد وهو الذى شكل فرقة « القمصان الحديدية » التى أقبل عليها الشباب السورى إقبالا منقطع النظير ؛ وانتصر الشعب .

وذهب الوفد إلى باريس فى ٢١ آذار سنة ١٩٣٦ برئاسة : هاشم الأتاسى . وعضوية : فارس الخورى ، سعد الله الجابرى ، جميل مردم ، الأمير مصطفى الشهابى ، إدمون الحمصى ، وكان الأخيران عضوين فى الحكومة الانتقالية ، وممثلين لها فى المفاوضات . وذهب مع الوفد أحمد اللحام ، ونعيم الأنطاكى بوصفيهما خبيرين . كما رافق الوفد المرحوم رياض الصلح الذى كان خير عون وسند له فى المفاوضات . وكان لخطبته الطويلة التى ألقاها فى مؤتمر الحزب الاشتراكى الفرنسى أثر كبير فى القرار الذى اتخذه ذلك الحزب بوجوب التعاقد مع سورية وإنهاء عهد الانتداب[2] :

وتستلم شكرى القوتلى دفة الكتلة الوطنية مدة غياب الوفد ، وناب عن

---

(١) كل ذنب فخرى البارودى فى نظر من تنكروا له بعدئذ ، أنه إنسان يجب أن يعيش — كما يريد هو ، لا كما يريد الناس . . .

إن فخرى البارودى زعيم سياسى وليس « إماماً » لمسجد . ولكن الناس فى بلادنا يريدون من الزعيم السياسى أن يكون زعيما ، وإماماً بالوقت نفسه ! وتلك بعض خلائق الناس ! ! !

(٢) اغتالت يد أثيمة مجرمة من الحزب السورى القومى المرحوم رياض الصلح سنة ١٩٥٠ وهو فى طريقه إلى المطار فى عمان . وخسرت القضية العربية بوفاته ركناً من أركانها ، ودعامة متينة من دعائمها — يرحمه الله .

رئيسها هاشم الأتاسي . وقاد الحركة الوطنية بمنتهى المهارة والحذق ، والكفاية الإدارية ، والمقدرة السياسية . واستطاع بقوّة أعصابه ، وصبره وإيمانه ،أنْ يحميَ ظهر الوفد ، وأنْ يدعمه بتأييد شعبيّ كبير ، ويحافظ على وحدة الصف الوطني — قويا متيناً متراصاً .

وكان لكياسته ولباقته ، وجرأته وإخلاصه ، فضل كبير فى توسيع نطاق الدعوة للوحدة السورية فى إقليمي : اللاذقية ، وجبل الدروز ، مما ساعد على إرسال ألوف البرقيات منهما ، تطالب بالوحدة ، وتعارض الانفصال .

وقوى مركز الوفد المفاوض بهذه البرقيات . واشتدت مطالبته بضم اللاذقية وجبل الدروز إلى الوطن الأم . وجعل انضمامهما أساساً لكلّ اتفاق ، وقاعدةً لكلّ تفاهم .

وبعد ستة أشهر من المماطلة والتسويف استطاع الوفد — بعد أن جرت انتخابات نيابية فى فرنسا نجحت فيها الهيئة الشعبية ، وشكل ليون باوم الزعيم الاشتراكى الوزارة — أن يعقد معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق مع الإنكليز . وكانت فى ذلك الحين أقصى ما يمكن التوصّل إليه . وقبلها الوفد بوصفها خطوة تمهيدية نحو استقلال كامل ، وحرية تامة . وقد تضمنت المعاهدة السلم والصداقة بين فرنسا وسورية ، والتشاور فى السياسة الخارجية ، وما يمس مصالحهما المشتركة . وانتقال الحقوق والواجبات ومسؤولية حفظ النظام إلى سورية . ومنح فرنسا التسهيلات اللازمة فى الطرق والمواصلات البرية والبحرية والجوية . واتفاق عسكرى . وبروتوكالات تتعلق بالشؤون العسكرية والاقتصادية والجامعة والقضاء على الجهل . ومراسلات تخص الحقوق المكتسبة للعسكريين . والاستعانة بالموظفين الفرنسيين . والتمثيل السياسى ، وضمان حقوق الأفراد والجماعات والامتيازات .. والمحافظة على التعاون النقدى . والانتماء إلى عصبة الأمم . وضم اللاذقية وجبل الدروز . وشرط الإقامة لرعايا الفريقين . وما يتعلق بذلك . ومدة المعاهدة ٢٥ سنة . وتضمنت المعاهدة أن تتمتع اللاذقية وجبل الدروز بنظام مالى وإدارى . .

وارتفعت أصوات كثيرة ضدها . وكان الناس يتناقلون أبيات عمر أبو ريشة « العروسة » ، وفيها تنديد بالمعاهدة ، وحملة عليها ، فى كثير من الرضى والارتياح :

جلَوْها « عروساً » وكدوا لها الـــــحناجر بالنغمة الســاحره
. . . صريع الهوى إن خلف البراقـــع تلك المطلقة الفاجــره

وعاد الوفد فى شهر أيلول . وجرت له استقبالات حافلة .

وجرت الانتخابات النيابية . وفازت « الكتلة الوطنية » فوزاً ساحقاً فى جميع الدوائر الانتخابية . واجتمع مجلس النواب فى كانون الأول سنة ١٩٣٦ .

الكتلة الوطنية تتسلم الحكم

عندما اجتمع مجلس النواب قدّم محمد على العابد استقالته من رئاسة الجمهورية ، وانتخب هاشم الأتاسى رئيساً للجمهورية ، وفارس الخورى رئيساً لمجلس النواب ؛ وشكل جميل مردم أول وزارة فى عهد الاستقلال [1] ، وكان شكرى القوتلى وزير المالية والدفاع فيها . وكانت تنتظره فى وزارة المالية متاعب جسيمة ومشاكل عديدة ، ورواسب كثيفة من عهود الاحتلال والانتداب . وقد استطاع بجده وسهره أن يذلل كثيراً من المصاعب والمتاعب ، وأن يُحل كثيراً من المشاكل ويسهل السبل لتنظيم موازنة الدولة ، وتحقيق وفر ضخم فيها .

ثم شرع بتأسيس « وزارة الدفاع » ، وهذا ما أثار من جديد حنق الفرنسيين ، وموجدتهم وحفيظتهم .

---

(١) منذ أن شكلت فى سورية حكومة وطنية بدأت تسير فى السياسة العربية ، وتؤدى رسالتها ، وتقوم بواجبها كجزء من الأمة العربية . فى ٢٤ نيسان سنة ١٩٣٧ عقدت مع العراق معاهدة صداقة وحسن جوار . وفى ٢٦ تشرين الأول من السنة نفسها وافق المجلس عليها بالإجماع . وفى ٨ أيلول سنة ١٩٣٧ عقد فى بلودان مؤتمر لبحث القضية الفلسطينية . ولنبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين يومئذ ، فضل كبير بالدعوة لذلك « المؤتمر » الذى حضرته وفود من كافة الدول العربية . واشتركت فى البرلمان العربى الذى عقد فى مصر فى ٧ تشرين الأول سنة ١٩٣٧ وساهمت فى الثورة العربية فى فلسطين مساهمة فعالة ضمن طاقتها وإمكانياتها .

وذهب إلى الحج سنة ١٩٣٧ فعقد مع الملك عبد العزيز آل سعود اتفاقاً لتسيير الخط الحجازى من دمشق إلى المدينة . وهى الفكرة التى كانت تراود أذهان الكثيرين . وكان شكرى القوتلى أول من عمل لها ، وسعى فى سبيلها ووضع « اللبنة » الأولى فى أساسها .

القوتلى يدعو إلى المقاومة . . ويستقيل

لما عاد القوتلى من الحجاز ، وجد الجو مكفهراً ، والأفق ملبداً بالغيوم ، وقد بدأ الفرنسيون يحسرون القناع عن وجوههم ، ويظهرون بمظهر الناقم . . . « المتربص » .

وطلب من رفاقه فى الحكم أن يتبعوا سياسة العنف ، وأن يطرحوا جانباً سياسة اللين ، لأن فرنسا لا تفهم إلا بلغة القوة ، ولا تذعن إلا لها .

ووقف وحده فى جانب ، يطالب بسياسة المجابهة ، وبقية زملائه فى الجانب الآخر ، يفضلون سياسة اللين والهوادة ، لأنها كانت فى نظرهم أنجح وأسلم .

ولما أعيته الحيلة بإقناعهم استقال[1] .

وأبت عليه مروءته ووطنيته ، ووفاؤه لإخوانه وأصدقائه ، وحرصه على وحدة الصف الوطنىّ أن يتنكر لهم ويحاربهم ، ويؤلب الناس على سياستهم المتداعية المتراخية . فهو واحد منهم ، وما اعتاد أنْ يطعن إخوانه من الخلف ، وأنْ يهاجمهم فى ساعة المحنة والضعف .

وأثبت بذلك أنه صديق شريف ، ومواطن شريف ، يضع مصلحة بلاده

(١) كان القوتلى يكتم حتى عن أقرب الناس إليه أسباب استقالته المباشرة ، حرصاً منه على سمعة إخوانه ، وعلى صفاء الجو بينه وبينهم . وعرف فيما بعد أن فى طليعة الأسباب المباشرة لاستقالته عقد اتفاقيَى البنك السورى والبترول فى غيابه . وكان يعارض هاتين الاتفاقيتين ، ويصر على عدم عقدهما . ولكن رئيس الوزارة وقد أصبح وكيلا عنه فى وزارتى المالية والدفاع أثناء سفره إلى الحجاز قد وقع على الاتفاقيتين فى غياب القوتلى – الذى فوجىء به حين عودته ، وكان قد نفد صبره ، وطال احتماله ، فاستقال فى ٢٢ آذار سنة ١٩٣٨ .

فوق كل مصلحة ، واعتبارها فوق كل اعتبار .

وبعد أربعة أشهر من استقالته ذهب إلى أوربا ، ورغم حاجته إلى الراحة والاستشفاء شرع يعمل لقضية وطنه ، ويستجلب لها الأنصار والمؤيدين .

نكول فرنسا

وأبت على فرنسا سخائمها وخلائقها إلا النكول عن سياسة التعاقد ، والتمهيد لإلغاء المعاهدة ، والقضاء على الاستقلال . وشرعت بتحريك أتباعها فى محافظات اللاذقية ، والجزيرة ، وجبل الدروز ، ودفعهم للعدوان ، وإعطائهم السلاح ، وتدريبهم على استعماله ، وخلق الفتن وقطع الطرقات ، ونشر الاضطرابات و و . . . إلخ ! !

وشكل المندوبون الفرنسيون حزب « الشارة البيضاء » فى حلب والجزيرة ؛ وبثوا أعوانهم هنا وهناك ، ينشرون الأخبار الملفقة ، وينفثون السموم . كل ذلك والوطنيون صابرون ، يتحملون الأذى ، ويتجرعون الصّاب ، ويرون بأعينهم نشاط المارقين والمأجورين ، وما يقومون به ، فى الساحل والداخل ، من تخريب وتهديم ! !

وشهدت البلاد حكماً مزدوجاً عجيباً ، فالمستشار فى جانب ، وممثل السلطة الوطنية فى جانب آخر !

ولعلّ من أعجب وأغرب ما حصل فى هذه المرحلة – ما كان يحصل فى محافظة اللاذقية ، فى عهد محافظها إحسان الجابرى .

لقد كان المحافظ يقود المعركة الوطنية فى وجه الفرنسيين ، وأذنابهم ، بقلبه وإيمانه ، وصلابة وطنيته وعقيدته ؛ ويحبط مؤامرات كثيرة تدبّر ضدّه ، وضدّ العهد الوطنى . حتى إن القحة قد وصلت بالفرنسيين إلى حدّ الجرأة على ترتيب هجوم من مأجوريهم على اللاذقية واحتلالها ، واعتقال المحافظ نفسه ، والاحتفاظ به رهينة فى الجبل ! مما اضطرنا نحن – بعض شباب الجبل – إلى السهر أمام بابه أياماً ، لنذودّ عنه بأنفسنا ، ونتقىّ العاديات

بصدورنا ونغسل بدمائنا عارَ قومنا ، ونُحبطَ مؤامرة لئيمة ضد سمعتنا وكرامتنا .

ذكريات مرة أليمة . تطفح بالمرارة والأسى ، وتعطى المتشككين بنيّات فرنسا صورة واضحة المعالم ، بارزة الخطوط ، تسفر عن غاياتها ونياتها ، وأنها لا تقيم للعهد حرمة ، ولا للتعاقد وزناً .

محاولات جميل مردم

ولم تجد رحلات جميل مردم — رئيس مجلس الوزراء — إلى باريس ، ولا مكوثه فيها بضعة أشهر ، ولا مفاوضاته ، ولا التساهل بالسيادة القومية شيئاً ، وأبت الحكومات الفرنسية المتعاقبة أن تعرض المعاهدة على مجلس النواب ! ! والغريب أن كل حكومة فرنسية ، وكلّ سياسى فرنسى ، كان يتزلّف للشعب ولمجلس النواب ، مطالباً بنقض المعاهدة ، والعودة إلى الحكم المباشر ، والاحتلال السافر .

وأراد جميل مردم أن يضع حدّاً لسياسة المماطلة والتسويف والتعنت التى تتبعها فرنسا ، متمشياً على قاعدة « خذ وطالب » ، ومحاولا أن يقطع على فرنسا « خط الرجعة » ، وأن يحرجها حتى تضطر لتصديق المعاهدة المعلقة — فتبادل مع « دوتسان » وكيل الخارجية الفرنسية رسائل للوصول إلى هذه الغاية وُقّعت فى ١١ كانون الأول سنة ١٩٣٧ وقد نصّت على ما يدعى بنظام « الأقليات » وتنفيذ « قانون المحافظات » . وعقد فى ١٤ تشرين الثانى سنة ١٩٣٨ اتفاق « بونه — مردم » الذى كان يتألف من « بيان » تتعهد فيه فرنسا بإبرام المعاهدة من قبل مجلس النواب الفرنسى خلال كانون الثانى سنة ١٩٣٩ ومن : « بروتوكول » يتألف من ٧ مواد يزيد فى ثقل « القيد » على سورية — ويتضمن : (١) تنفيذ الشروط الواردة فى الرسائل المتبادلة مع المسيو دوتسان ، وتحديد الحكومة السورية لامتياز البنك السورى ، واستثمار آبار البترول فى سورية بواسطة شركة فرنسية . (٢) النظام الدائم للموظفين الفرنسيين : ومن ذلك مستشار لوزارة الداخلية له ملحقان فرنسيان أحدهما فى

الشمال . (٣) حرية الضمير فى شأن المسيحيين . (٤) العناية باللغة الفرنسية. (٥) تنمية التجارة بين سورية وفرنسا، ومؤازرة فرنسا لسورية فى الأمور المالية . (٦) تحديد المهل المنصوص عليها فى مقدمة المعاهدة و البروتوكول فى ٣٠ أيلول سنة ١٩٣٩ . (٧) إرسال ممثل سياسى سورى إلى باريس بعد إبرام المعاهدة فى المجلس النيابى الفرنسى .

وخُدع جميل مردم — رغم ذكائه ودهائه — وخيل إليه أنه استطاع إقناع المسؤولين الفرنسيين ، باحترام التعاقد ، وتصديق المعاهدة بعد توقيع هذه « الملاحق » و « الذيول » . ولو صُدّقت تلك « الملاحق » لكانت شراً على البلاد من معاهدة « كليمنصو » وشروط غورو ، ومعاهدتى « جوفنيل » ، و « الشعبانى » . ولما كان ثمّة موجب للدماء التى أريقت، والجهود التى بذلت ، والثورات التى أحرقت الأخضر واليابس ؛ ولذهب كل ذلك هدراً ، وبدون مسوّغ ولا مبرّر . ولم يكن ثمة موجب لانتظار بضعة عشر عاماً ، من العناء والدماء ، والجهود والتضحيات .

ونحن لا نقصد الغمز من قناة جميل مردم ، ولا الإساءة إليه ، وليس من السهل علينا أن نتهمه أو نظن به السوء . فالرجل مواقف مشهودة ضد الانتداب الفرنسى ، قبل هذا التاريخ وبعده ، وقد مر معنا شىء عنها .

وإذا حاولنا أنْ نجد لهذا « الاجتهاد » تفسيراً أو تعليلا ، فإننا لا نجد « أرق » من القول إنه « اجتهاد » خاطئ . .

ولْنعدْ إلى قصة « الملاحق » و « ذيولها » ، وتعنت الفرنسيين ونكولهم .

فبينما كان جميل مردم فى البحر عائداً إلى بلاده ، وفى حقيبته نسخة من التعديلات الجديدة ، على المعاهدة « العتيدة » ، كان رئيس وزراء فرنسا يصرّح أمام الصحفيين :

« إن سورية ليست بحاجة إلى معاهدة ولا استقلال ؛ ولكنها بحاجة إلى

رجل قويّ حازم كالمسيو بيو »[1] !

وجاء « بيو » — مندوباً سامياً — فى رأسه خطة مرسومة ، وفى جيبه تفويض مطلق . ومعه تعليمات صارمة بإنهاء « مسرحية » الاستقلال — على حد تعبيره السخيف .

وكان « بيو » سفيراً لفرنسا فى النمسا حينما اجتاحتها جيوش النازية واحتلتها . وقد جاء إلى الشرق ليحقق لبلاده « ظفراً » سياسيًّا ، بعد النكسات التى حلت بها فى أوروبا ! !

وقامت المظاهرات ضد الحكومة نفسها ، وضد فرنسا ، وغمر النفوس يأس شديد من هذه « المسرحية » المضحكة المحزنة . ووصل اليأس بالناس إلى حدٍّ خرجت فيه دمشق كلها تستقبل الشيخ تاج الدين استقبال الملوك الفاتحين ! ! وكان ذلك الاستقبال فى ربيع سنة ١٩٣٩ نكاية بالكتلة الوطنية التى كانت ما تزال متمسكةً بالحكم .

وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر يطوف فى أحياء دمشق ، يعقد الاجتماعات ، ويلقى الخطب ، منددا بالكتلة الوطنية ، وبتشبثها بالحكم ، وبإهمالها وتراخيها .

وأصغت دمشق كلها إليه .

وخُيّل للمراقبين أنه لم يعد للكتلة الوطنية نصير . حتى إن بعض أعضائها البارزين بدأوا يبتعدون عنها ، ويعلنون استقالاتهم منها .

وفى هذا الجو المضطرب المحموم ، قدم جميل مردم استقالة الوزارة فى ١٨ شباط سنة ١٩٣٩ وألفها لطفى الحفار ، ثم ألفها نصوح البخارى . وحاول

---

(١) فى ٣١ كانون الأول سنة ١٩٣٨ عقد مجلس النواب فى سورية جلسة أعلن فيها جميل مردم : « أنه فى حل من المراسلات والتصريحات التى وقعها مع «دوتسان» و «جورج بونه » . لأن الحكومة الفرنسية لم تنفذ تعهداتها . ثم اتخذ المجلس قراراً استنكر فيه موقف فرنسا ونكولها عن الاتفاق المعقود معها بموجب معاهدة ١٩٣٦ وقد جاء فى القرار : « يسجل مجلس النواب تصريح رئيس الوزراء السيد جميل مردم بك بأنه يعد نفسه فى حل من جميع الاتفاقات والعقود التى يمكن أن يكون وقعها ويعتبرها لغواً » .

كل منهما أن يصون الاستقلال من عبث الفرنسيين ، وأن « يمضى » فى سياسة التعاقد إلى النهاية ؛ ولكن هذه الرغبة كانت من جانب الحكومة السورية وحدها ، وأما الفرنسيون فكانوا قد أحكموا تدبير مؤامرتهم ، وتهيئتها ، وشرعوا ينفذونها .

بيو — يستفتى ، ويغتصب السلطة

وكان المندوب الفرنسى « بيو » يطوف البلاد كلها تحت حراسة الجنود الفرنسيين « يستفتى » الأهلين ! ويطلع على ميولهم واتجاهاتهم — هل يريدون الاستقلال ، أو لا يريدون ؟ ![1]

وهل هناك أسخف من هذه العقلية ، وأكثر ازدراء منها بالقيم والأخلاق ؟!

وسؤال « بيو » : « أتريدون الاستقلال أو لا تريدون ؟ — يشبه إلى حد بعيد هذا السؤال : « أتريدون الشقاء أم تريدون السعادة ؟ وهل تفضلون الموت على الحياة . . أو تفضلون الحياة على الموت ؟ » !!

هكذا كان استفتاء « بيو » . وهذه هى مدنيّة فرنسا ، وسياستها الرعناء الهوجاء !

واتصل « بيو » بالناس . ولم يسمع من سوادهم وقادتهم ، من كبيرهم وصغيرهم إلا هذه الكلمة : « الاستقلال » .

ولكنه لم يأت ليسمع هذه الكلمة ، ولا ليرى الأعلام السورية ترتفع

---

(١) أشار بيو فى كتابه « سنتان فى الشرق » إلى أنه كان يسعى لإقامة نظام ملكى فى سورية ! وأن ذلك كان أدعى — على حد زعمه — إلى إيجاد استقرار فيها ، وتثبيت لمركز فرنسا ومكانتها فى الشرق . وأنه سأل فؤاد حمزة وزير خارجية الملك عبد العزيز آل سعود إذا كان الملك عبد العزيز يقبل تعيين أحد أولاده ملكاً على سورية . ولم يشر فى كتابه إلى جواب الملك ، ولكنه أشار إلى أن فؤاد حمزة قد استحسن هذه الفكرة وأطلع عليها سيده فوراً . كما ذكر فى كتابه أنه حاول إقناع رئيس الوزارة الفرنسية دالادييه بهذه الفكرة ولكنه قابلها باستهجان وتندر . وذكر بيو فى كتابه هذا أن « كايو » نصحه وحذره من إقامة نظام برلمانى فى سورية وأنه أجابه بقوله : « إنك تعظ من اهتدى » !

على الأبنية وفى الطرقات وإنما جاء ليتصل بالخونة المارقين ، يشجعهم ويدفعهم ، يهيجهم ويستثيرهم . ويغدق لهم الوعود والعهود ، والسلاح والهبات .

وحسر الفرنسيون قناع الحياء عن وجوههم ! وبرزوا بوجوه صفيقة منكرة ! يدفعون « عبيدهم » تحت حماية جنودهم ، لرفع الأعلام الفرنسية ! واحتلال المراكز الحكومية ! والإخلال بالأمن ! ونشر الفوضى والاضطراب !!

وانشقت فلول « الكتلة الوطنية » على نفسها — بين معارض ومؤيد ، وبين مهاجم للحكومة ومدافع عنها . بين مطالب ببقائها — حتى تستنفد إمكانياتها ، وبين مطالب باستقالتها — حتى تحتفظ بكرامتها وكرامة البلاد .

وازداد الصف الوطنى تصدعاً وانقساماً . وعمل الفرنسيون كل ما بوسعهم لازدياد التصدّع والفرقة والانقسام . ثم عمد المفوض الفرنسى آخر الأمر لتعيين شوكت العباس « محافظاً » للاذقية ، وحسن الأطرش محافظاً لجبل الدروز — متحدياً بذلك السلطة الشرعية ، وغير عابئٍ بها ، ولا مكترثٍ لوجودها ! وهم بذلك يريدون إحراجها لتستقيل !

ولم يبق ثمة موجب لبقاء الحكم الوطنى ، بعد أنْ تقلصت سيادته ، وامتُهنتْ كرامته ، وبعد أن أخذ الفرنسيون يمارسون صلاحيات الحكومة دون رادع ، أو وازع ، أو مانع . فاستقال هاشم الأتاسى من رئاسة الجمهورية فى ٧ تموز بكتاب أرسله إلى مجلس النواب . وغادر دمشق إلى بيته فى حمص . وحل الفرنسيون بعد ذلك مجلس النواب ، وعطلوا الدستور .

وهكذا طويت صفحة من تاريخ الاستقلال ، لتفتح بعدها صفحة جديدة من تاريخ النضال .

وألف الفرنسيون حكومة المديرين .

وحكموا البلاد حكماً مباشراً .

واعتقلوا قسماً كبيراً من الوطنيين الأحرار ؛ وفر قسم كبير منهم إلى خارج البلاد . وكنا فى العراق مئات ومئات ، ووراءنا المحاكم العسكرية تحكم بالسجن والنفى والإعدام ! !

مأساة لواء الإسكندرونة

لم تبدأ الحكومة الوطنية أعمالها فى أواخر سنة ١٩٣٦ حتى قامت الحكومة التركية تطالب بامتياز خاص للواء الإسكندرونة . وكانت بريطانيا وفرنسا تظاهرانها سرّاً وعلناً !

ووقفت سورية وحيدة تدافع وتمانع . وتألب أخصامها عليها — فى لواء الإسكندرونة ، وفى عصبة الأمم .

ونوجز هنا أهم المراحل التى مرّت فيها قضية الإسكندرونة ، إلى أن انتهت بمأساتها الأليمة .

فى نهاية الحرب الأولى كان الفرنسيون يحتلون بعض الأراضى التركية والعربية على حدود تركيا الجنوبية (الأناضول) ؛ وعقد الفرنسيون هدنة مع الأتراك الكماليين فى ٣٠ آيار سنة ١٩٢٠ ، وتخلوا لهم عن أراض عربية وتركية ، وفى سنة ١٩٢١ عقد فرنكلن بويون اتفاقاً فى أنقره منح فيه سكان « اللـّواء » حكماً خاصًّا ، وامتيازات فى اللغة والتعليم والإدارة ، وكانت أول السبل لانسلاخه عن سورية . وخلال مدة حكم الفرنسيين فى سورية كان للواء — قبل انسلاخه عنها — وضعٌ إدارى ومالى خاص ! وفى ١٩ كانون الأول سنة ١٩٣٦ أرسل بيير فينو — وكيل وزارة الخارجية الفرنسية — كتاباً إلى السيد هاشم الأتاسى أشار فيه إلى طلب الأتراك أن تبحث حدود سورية مع تركيا . وفى أول بيان ألقته الحكومة السورية أمام مجلس النواب تعرضت فيه إلى قضية اللواء وأعلنت عن تمسكها به . وبدأت فرنسا تمالئ تركيا على « اللواء » وتمهد لها السبيل . . ! ونقلت القضية إلى « عصبة الأمم » ، ووقفت الدول الكبرى إلى جانب تركيا . واتخذت « العصبة » قراراً فى شباط سنة ١٩٣٧ يقضى باستقلال « اللواء » التام فى شؤونه الداخلية ، أما شؤونه الخارجية فتقوم بإدارتها الحكومة السورية ضمن حدود وقيود .

ويشترك « اللواء » مع الحكومة السورية فى الإدارة وفى العملة . ويعين له مندوب فرنسى يختاره مجلس العصبة نفسه . وتكون اللغة التركية لغة رسمية . وفى ٢٩ آيار سنة ١٩٣٧ قرر مجلس العصبة النظام والقانون الأساسيين للواء ، وأنشأ لجنة خبراء . وكان واضحاً تحيز العصبة ضد مصالح سورية التاريخية والقومية .

ومنذ تشرين الأول سنة ١٩٣٨ بدأت فرنسا تمهد السبل للتخلى لتركيا عن « اللواء » . وكان السفيران الفرنسيان «بونسو» و « ماسيغلى » يجريان المفاوضات مع المسؤولين الأتراك فى هذا السبيل مقابل أن تعقد تركيا حلفاً عسكرياً مع فرنسا . وكان الجيش التركى يشترك مع الجيش الفرنسى باحتلال « اللواء » ، بعد أن تعهد وفدا الدولتين أمام عصبة الأمم بحماية « اللواء » ضد كل هجوم خارجى (كذا) ! أو تهديد من أى جهة كانت! ! وفى كانون الثانى سنة ١٩٣٩ صرح وزير خارجية تركيا سراج أوغلو للسفير الفرنسى « ماسيغلى » أن الوقت قد حان « لإنهاء فصول الرواية وإلحاق اللواء نهائياً بتركيا». وفى ٢٣ حزيران سنة ١٩٣٩ تم الاتفاق على جلاء الجيوش الفرنسية عن « اللواء » . وقد جلت هذه الجيوش فعلا فى ٢٣ تموز سنة ١٩٣٩ عن أراضى الإسكندرونة وسلمتها لقمة سائغة للأتراك . وأطلقت تركيا على اللواء اسم « هاتاى » — أى « الحثيين » ومنعت تعليم اللغة العربية تحت طائلة العقوبة ، وحرمت حتى التحدث بها فى المجالات العامة ! !

وهكذا توالت فصول المسرحية من استقلال ذاتى ، إلى استقلال تام . إلى اندماج كلى بالجمهورية التركية .

وكان العالم على أبواب الحرب . وقبضت تركيا ثمن حيادها أرضاً عربية — كانت جزءاً من سورية منذ أن عرفت سورية بعاصمتها القديمة أنطاكية .

وكان كمال أتاتورك ديكتاتور تركيا يطمح للتوسع على حساب الدول الأخرى — أسوة بزميليه هتلر وموسولينى .

والشىء المضحك فى هذه المسرحية قصة « الاستفتاء » الذى أجرته « عصبة الأمم » تحت إشراف مندوبيها . فقد مسخت الأكثرية وهى تربو على الثلثين — !

وإذا بها أقلية ! ونفخت الأقلية — وهى تنقص عن الثلث — وإذا بها أكثرية !

وكان الاستفتاء أسخف مهزلة فى فصول تلك المأساة الأليمة !

وسكان « اللواء » عرب — تعيش معهم أقلية تركية . وأرض اللواء عربية منذ أقدم عصور التاريخ .

ولكن هل يراعى الاستعمار حقوق الأكثرية ، ومنطق التاريخ ؟

لقد ضربت فرنسا بقدسية التاريخ ، وحقوق الأكثرية عرض الحائط ، وتآمرت مع الأتراك على العرب . وساعدتهم على اغتصاب بقعة من أخصب بقاع سورية ، وأغناها ، وأجملها موقعاً ، وأهمها مركزاً ، وتشريد الألوف من أبنائها ، والالتحاق بوطنهم الأم . وعبثت بـ « الوديعة المقدسة » التى وضعت فى « ذمتها »[1] ، وسلمت جزءاً منها إلى الأتراك !

وكما صنعت فرنسا فى الإسكندرونة ! صنعت بريطانيا فى فلسطين !

ولكن منطق التاريخ قوى وعميق . .

وسيتغلب — آخر الأمر — منطق التاريخ . .

أسد علىّ وفى الحروب نعامة . .

وأعلنت الحرب العالمية الثانية فجمدت الأوضاع القائمة ، وهدأت النفوس الثائرة ، وثبطت عزائم الناس وهممهم — ككل حرب ضروس ، تشيع عند نشوبها القلق ، وتبعث على الانكماش .

ولكن فترة الهدوء والركود لم تدم طويلا . وكان لفرنسا — دائماً وأبداً — يد طولى فى استثارة الناس ، وتهييج مشاعرهم وخواطرهم . بما تقوم به من تحد واستفزاز ، وضغط واضطهاد .

ورغم أنها كانت فى محنة ، وأنها خسرت الحرب ، وداس المحتلون الألمان عنفوانها وشموخها ، واستذلوا كرامتها وكبرياءها ، واستولوا على مواردها ومرافقها — رغم ذلك كله فإنها لم ترعو ، ولم تتعظ بما حصل لها ، ولم تأخذ بذلك درساً

(١) راجع فصل : فى . . ذمة المدنية . .

ولا عظة ، وإنما ظلت تستأسد وتتنمر ، وتتمادى ! !

وما أجمل تقريع « بدوى الجبل » لها ، وشماتته بها :

سَمِعتُ باريسَ تشكو زهو فاتحها ... هلا تذكرتِ يا باريس شكوانا
عشرين عاماً شربنا الكأس مُتْرَعةً ... منَ الأذى فتملَّىْ صِرْفها الآنا
ما للطواغيت فى باريس قد مُسِخُوا ... على الأرائك خُدَّاماً وعُبدانا
إنى لأشْمَتُ بالجبَّارِ يَصْرَعُهُ ... باغٍ ويُوسِعُهُ ظُلماً وعدوانا
لعله تبعثُ الأقدارُ رحمته ... فيُصْبِحَ الوحشُ فى برْدَيه «إنسانا»

ومع ذلك فإن « الوحش » ظل « وحشاً » — إلا أمام مستعبديه ، ومستذليه ، وممتهنِى كرامته ، ومحتليه ، فقد كان « إنساناً » ، و « إنساناً » متواضعاً صغيراً ... !

ولم تستطع الأقدار أن تبعث رحمته — لأن قلبه خالٍ من الرحمة وخال من الإنسانية والعاطفة .

ومن التناقض العجيب فى أخلاق بعض الناس ، ذلهم أمام الأقوياء ، وغطرستهم أمام الضعفاء ! فكأنهم بهذا يحاولون الانتقام من الطبيعة ومن أبنائها جميعاً ! وبدلا من أن يحسنوا معاملة من هو أضعفُ منهم ، حتى يحسن معاملتهم من هو أقوى منهم ، وبدلا من أن يحسنوا معاملة محكوميهم ، حتى يحسن معاملتهم حاكموهم ، يعمدون للتشفى من الآخرين ! والانتقام من الأبرياء الذين وضعتهم « الظروف » تحت سلطتهم ، دون أن يكون لهم فى ذلك إرادة أو شأن .

وليس من العسير على فرنسا — وقد علمت من أخلاقها ما علمت — أن تجد وسيلةً لاعتقال الأحرار ، والتنكيل بهم ! فهى لم تعدم مرة إيجاد وسيلة لتحقيق رغباتها ، وإخفاء غاياتها ، وإذا لم يكن ثمة وسيلة فإنّ من السهل عليها اصطناع الوسائل ، واختلاق الأسباب !

واتهمت أحرار البلاد بأنهم يتعاونون مع الألمان ، ويتصلون بهم سرّاً . ونسى الفرنسيون أنّ فرنسا نفسها — أكثر أبناء فرنسا — قد تعاونوا علناً مع الألمان . ومع ذلك فإنّ الشعب العربى يأبى التعاون مع دولة صنّفتهم فى آخر

شعوب الأرض . دولة تحتل البلدان ، وتستعبد الشعوب . والشعب السورى قد أعلن الحرب على ألمانيا المعتدية حينما أتيح له الإعراب عن رأيه بأسلوب دستورىّ شرعىّ .

وكانت تهمة فرنسا لأحرار البلاد ، بالتعاون مع الألمان ، كافيةً لزجهم فى السجون والمعتقلات ومحاكمتهم بتهمة التآمر على « سلامة الاستعمار » .

وكان اغتيال الدكتور عبد الرحمن شهبندر إحدى الوسائل التى اصطنعتها فرنسا لخلق جو من الإرهاب والتنكيل — مما اضطرّ بعض زعماء البلاد وفى طليعتهم جميل مردم ، وسعد الله الجابرى ، ولطفى الحفار ، وكثيرين غيرهم ، للجوء إلى العراق . وكان قد سبقهم إليه عادل العظمة وآخرون كثيرون . وقد أثار اغتيال المرحوم شهبندر قلقاً فى الخواطر والنفوس . وأحدث فى البلاد موجة ذعر وقلق . واتهمت « الكتلة الوطنية » بتدبير مؤامرة الاغتيال . ولكن القاتل اعترف بجريمته ، بعد أن حضّه أحد مشايخ الصوفية على الاعتراف وكان من مريديه ، فبرأ ساحة رجال الكتلة الذين صدر حكم ببراءتهم ، وأعدم القاتل المجرم . وكانت محاكمة مقتل المرحوم شهبندر إحدى المحاكمات الفريدة المشهودة — لما تخللها من مرافعات ومفاجآت .

اخرجوا من بلادنا

أدرك الزعيم القوتلى بثاقب نظره ، وبعيد بصره ، أن الظرفَ الدولىّ قد أصبح مواتياً للمطالبة بالاستقلال . وأن الفرصة أصبحت سانحة ، ويجب اغتنامها ، فجهر بنداءاته المتواصلة بإعطاء الشعب حقه فى السيادة — وإلا فسيعمد إلى الكفاح .

ولم يبال وهو يندد بفرنسا « المغلوبة » فى « بلادها » أن تكون « غالبة » فى « بلادنا » . . والتى تترك أرضها « مستعمرة » محتلة ، ثم تبقى فى « أرضنا » تستعمرها وتحتلها . ويخاطب القواد الفرنسيين بمنتهى الجرأة :

« عودوا بجنودكم إلى بلادكم ، وحرروها من أعدائكم ، وعيشوا فيها بحرية

وأمان ، ودعونا نعش فى بلادنا بحرية وأمان . ماذا تعملون " هنا "، وبلادكم " هناك " مسرح للغاصبين والمحتلين ؟ اخرجوا من بلادنا ، وعودوا إلى بلادكم ».

وكان لواء الزعامة قد انعقد لشكرى القوتلى — وحده — فى البلاد السورية جمعاء . وكان الإجماع عليه منقطع النظير . كلمة واحدة منه تثير ثائرة الناس . وكلمة واحدة تهدئهم وتقعدهم . وكأن الفرزدق قد عناه بقوله :

إذا نحنُ سرْنا سارَت الناسُ خلفنا
وإنْ نحنُ أومْأنا إلى الناس وقّفوا

وخشى الفرنسيون مغبة الإقدام على أىّ إجراء تعسفىّ ضده . وعرفوا أن مركزهم لا يسمح لهم بتحدى الرجل العنيد الصلب . فعمدوا إلى المداورة والمناورة ؛ واتصل به « الجنرال دانز » مندوب حكومة فيشى التى كانت تخضع لإرادة الألمان ، محاولا تلطيفَ الجو ، والإبراء عن سياسة المسالمة واللين ، وعن استعداده للتعاون مع سورية ، وإجابة مطالبها القومية الحقة — حينما « يتيح الظرف ، وتسمح المناسبة » .

وإتاحة « الظرف » ، وسماح « المناسبة » كلمات مبهمة ، تصطنعها الدبلوماسية الماكرة ، للتهرب من مجابهة الواقع بقصد المماطلة والتسويف ! وهى حيلة خبيثة فى وقت لم تعد تنطلى فيه الحيل على أحد . وكثيراً ما بُلى السوريون بحيل فرنسا ومناوراتها ، وصار من المستحيل أن يخدعوا بها .

وشعر القوتلى بما وراء هذا الكلام المعسول من مناورة وتخدير . إذ لم يكن فيه ما يدل على صدق النية ، ويدفع إلى الثقة بها . وكان طابعُ التضليل بيناً واضحاً فى لهجة « دانز » وفى تصرفاته وتحدياته . فأغلق القوتلى باب المفاوضة وأعرض عن كل محاولة لمتابعة الأبحاث « الفارغة » مع ممثل فرنسا .

ولما يئس « دانز » من نجاح سياسة « الإلهاء » المباشرة ، عمد إلى سياسة « الإلهاء » غير المباشرة ، فقرّر حل « مجلس المديرين » ، وتعيين حكومة يؤازرها « مجلس استشارى » ، و « مجلس شورى » لإعداد القوانين . واختير خالد العظم رئيساً للحكومة ، وأعطى صلاحيات واسعة تشبه صلاحيات

رئيس الدولة . واعتقد العظم أن حكومته هذه ستكون مقدمة لإنهاء عهد الاحتلال ، وتحقيق فكرة الاستقلال ؛ فاستصدر بعد لأى عفواً عامّاً عن المنفيين والمعتقلين السياسيين . ولكن ذلك كله لم يُجْد فتيلاً ، ولم يزحزح الشعب عن موقفه ، ولم يبدل شيئاً من رأيه . لأن الحكومة الفرنسية لم تعترف بالاستقلال . وقد رفضت إعادة الدستور . ولم تشر إلى قرب اعترافها به ، ووضحت خطة التغطية والإلهاء التى عمد إليها الفرنسيون بتغيير شكل الحكم ، وإظهار التساهل مع الأخصام السياسيين [1].

وكان العظم مدفوعاً بسائق اعتقاده أنه يخدم وطنه ، ويسعى لخير بلاده ، حين أقدم على تسلّم الحكم . ولم يكن يعلم أن فرنسا تحاول بشتى الوسائل تغطية سياستها ، والتمويه عن غايتها .

وأدرك شكرى القوتلى أن وراء سياسة فرنسا خطة مدبرة لإسكات الشعب حتى منتهى الحرب ، وحينئذ تفرض فرنسا نفسها ووجودها بالحديد والنار . وبما أن ظرفها الحالى لا يساعدها على المقاومة ، فقد عمدت إلى ما عمدت إليه من حيلة غادرة ، ولعبة ماكرة .

وأيقنَ القوتلى أنه لابد من العودة إلى النضال العنيف .

الشعب فى معركة الإضراب

لم يُطلّ شهر آذار سنة ١٩٤١ حتى أطلّت معه روح المقاومة والكفاح ، وبشائر الإيمان بالنصر ؛ ولجأ الشعب إلى استعمال سلاحه الوحيد ، وهو الإضراب الذى جابه به المعتدين فى شتى عهود الاحتلال ، وأثبت أنه أمضى سلاح

---

(١) كان الفرنسيون قد كلفوا عطا الأيوبى بتشكيل الوزارة على أن يشترك معه الأمير مصطفى الشهابى . ولما راجعا شكرى القوتلى بذلك رفض الموافقة على تشكيل أية حكومة إلا على أساس سيادة كاملة ، واستقلال تام . ورفضت فرنسا ذلك فاعتذرا ، وحينما كلف خالد العظم بتشكيل الوزارة زار هاشم الأتاسى فى حمص ، واستشاره بأمر تكليفه — فوافق الأتاسى وشكل خالد العظم الوزارة بناء على موافقة هاشم الأتاسى ؛ فى حين أصدر القوتلى بياناً بمعارضته فى اليوم الثانى ...

وأفتكه فى أيدى شعب مسالم أعزل ، وكان له فضل كبير فى مقاومة العدوان ، وزحزحة الطغيان . ولم يكن ثمة شيء يؤذى فرنسا ، فى صميم كرامتها وسمعتها كالإضراب .

ورغم سوء الحالة الاقتصادية ، واضطرابها ، وتفاقم خطورتها ، وبصورة خاصة قضايا التموين ، وفقدان أكثر المواد الغذائية من الأسواق ، فإن الشعب السورى قد أقدم على الإضراب بحماسة بالغة ، ولهفة منقطعة النظير ؛ ودام هذا الإضراب العنيف أربعة وثلاثين يوماً ، باستمرار مدهش ، وشمول عجيب .

وازدادت الحالة الاقتصادية سوءاً ، وهدد تجار كثيرون بالإفلاس ، ورغم جهود الجمعيات التعاونية ، والمعونات التى كان يبذلها الأغنياء للفقراء ، فقد طغت الحاجة ، وعمت الفاقة ، وكثر المنكوبون والمعوزون .

وكانت عين الزعيم القوتلى ساهرة ، ترعى الشعب بعين اليقظة والانتباه ؛ وكانت عين الله ترعاه :

ينامُ بإحدى مُقْلتَيه ويتّقى بأخرى المنايا فهوَ يقظانُ نائمُ

وأدرك مدى ما يتعرض له الشعب من سوء الحال ، إذا استمرت على هذا المنوال ؛ فوجه نداء إلى الشعب يدعوه فيه إلى إنهاء الإضراب ، ويعده : « أن البلاد لا تحيد قيد أنملة عن طريق الاستقلال ، وأنه سيواصل حمل العناء عن الشعب حتى يتحقق الأمل المنشود » .

وكان الإضراب قد أدى مهمته ، واستنفد غايته ، إذ أنه جعل الفرنسيين يدركون أن جذوة الحرية لا يمكن أن تنطفئ ، وفى جسم السوريين عرق ينبض بدم الحياة ، وأن عليهم أن يفكروا برءوسهم ، وأن يوقنوا بأن الشعب لا يسكت عن حقه أو يموت .

وانتهى الإضراب ، على أن يبدأ من جديد حينما تدعو الحاجة ، وتقتضى المصلحة ويطلب الزعيم .

وكانت لجنة الهدنة الإيطالية قد وصلت إلى سورية خلال شهر آب سنة ١٩٤٠ . ثم وصلها كثير من الألمان الذين جعلوا البلاد مركزاً لجواسيسهم

وأعمالهم « المنتظرة » فى الشرق . وأصبحت البلاد مسرحاً لوكلاء الألمان والطليان وعملائهم . وقاعدة لطيرانهم الذى كان يغير على قناة السويس من جزر الدوديكانيز مما كان يثير حفائظ الإنكليز وضغائنهم .

انتفاضة العراق

والتهبت الثورة فى العراق . وكان اشتعالها مفاجأة للعالم كله ، ومبعث أمل ورجاء للعرب أجمعين .

وامتشق رشيد عالى الكيلانى حسام الحرية يضرب به هام الاستعمار . وهلل العرب وكبروا . وهُرع كل من استطاع الهروع منهم إلى الميدان .

وميدان العرب واحد ؛ وعدوهم واحد : هو الاستعمار أينما كان ، وكيفما كان ، يحاربونه فى كل مكان وزمان .

وكان النصر أول الأمر للعراق وللحق ، ثم صارت الحرب سجالا ؛ ثم تألبت قوى الاستعمار من الشرق والغرب ، من « خليج البصرة » ، إلى « الرطبة » ، تألباً مروعاً عنيفاً . وكان لجيش « كلوب » تأثير كبير فى إنهاء الحرب ، واحتلال بغداد .

وكانت إمكانيات « عبد الله » — أمير الأردن يومئذ ، وملكها بعدئذ — تحت تصرف الإنكليز ، لخدمة مقاصدهم ومآربهم .

ولن ننسى ذلك اليوم الذى دخل فيه بغداد ، على رأس الجيش البريطانى ، وقد لفحت الشمس وجهه ويديه ، من لهب الحر فى الصحراء ، بين الأردن والعراق . . لقد كان فى ذلك « أجيراً » — ولم يكن « أميراً » — فهو كما قال عنه بدوى الجبل :

يهدّدُ بالسلاح ويدعيه وما ملكَ الجنودَ ولا السلاحا

واعتقل الأحرار السوريون ، وزج بهم فى أعماق السجون ؛ ثم سلمتهم السلطات البريطانية فى العراق إلى السلطات الفرنسية والإنكليزية فى سورية وفلسطين ، لتعتقلهم من جديد ، وتفرض على بعضهم إقامة إجبارية . وتضع البعض الآخر فى معتقل « الميةومية » .

سورية بين الديغوليين والفيشيين

وكانت القوات البريطانية والديغولية ، قد بدأت تغزو سورية من الجنوب تحت قيادة الجنرال كاترو مندوب الجنرال ديغول ، ومعتمده وقائد جيشه فى الشرق فى صباح ٨ حزيران سنة ١٩٤١ .

وأذاع الجنرال كاترو بياناً أعلن فيه : « أنه قادم لإنهاء عهد الانتداب . وإعلان الاستقلال وعقد معاهدة توضح العلاقات المتبادلة بين سورية وفرنسا » .

ولما كانت بريطانيا هى « الوصية » على اللجنة الفرنسية الحرة التى يرئسها الجنرال ديغول ؛ وكانت ألمانيا هى « الوصية » على حكومة فيشى التى يرئسها الماريشال بيتان ؛ فقد أصدر بعض الرجال الرسميين من الإنكليز تصريحات مماثلة لبيان الجنرال كاترو — تعهدوا فيها بالاعتراف لسورية بالسيادة والاستقلال [1] .

ولم يدافع الشعب مع العدوّ المرابض فى دياره . ولم يهاجم مع العدوّ القادم لاحتلاله فهما عدوان : عدو يقاتل عدوًّا . والشعب عدوّ الاثنين — لأنه غير واثق من عهودهم ووعودهم . فقد ملها وسئمها . وأصبحت عنده عقيدة ثابتة وهى أن الاستقلال « يؤخذ ولا يعطى » .

وللحرية الحمراء بابٌ بكلّ يدٍ مضرّجةٍ يُدَقُّ

وكان الشعب ، وقادته ، يتمسكون بالوعود ، ويحتفظون بها ، لا لأنهم كانوا يعتمدون عليها ، ويثقون بصحتها ، بل لأنهم كانوا يتخذونها وسيلة لمحاربة المستعمرين فى المحافل الدولية ، وذريعة لمجابهتهم بها وإحراجهم بموجبها .

---

(١) رغم جميع المحاولات التى بذلت لكى تعترف أمريكا باستقلال سورية ولبنان أسوة ببريطانيا ، فقد رفضت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك . إلا أنها أصدرت فى ٢٩ تشرين الثانى سنة ١٩٤١ بياناً أظهرت فيه عطفها على أمانى الشعبين السورى واللبنانى بالتمتع بالسيادة والاستقلال . وذكرت فى بيانها أن معاهدة سنة ١٩٢٤ قد منحت أمريكا حقوقاً يجب أن تحافظ عليها حتى تحل معاهدة محلها ! وباءت جميع المحاولات مع أمريكا — خلال عدة سنوات — بالفشل ! ولم تعترف باستقلالهما إلا فى ١٩٤٤/٩/٧ .

معركة . .

بين معاهدة ١٩٣٦ والاستقلال

وانتصر جيش ديغول على جيش بيتان ، بل انتصرت بريطانيا على ألمانيا . واحتل الجنود البريطانيون والديغوليون سورية ولبنان .

وكان لابدّ من النهوض للمطالبة بتنفيذ الوعود ، وحشد القوى والإمكانيات ، لتحقيق فكرة الاستقلال .

وقام شكرى القوتلى يتابع جهوده لأداء الواجب ، وتحقيق المطالب . ودارت مفاوضات كثيرة حول إعادة الوضع السابق كما كان عليه سنة ١٩٣٩ — وعودة رئيس الجمهورية ومجلس النواب ، لممارسة صلاحياتهما الدستورية السابقة ، واستمرار الحكم الوطنى إلى أن تنعقد الجمعية الوطنية الفرنسية » لتصديق معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وأدرك القوتلى ، وإخوانه ، خطر هذه اللعبة الفرنسية الجديدة فرفضوها رفضاً باتًّا . وأصروا على المطالبة بالاستقلال التام — غير المقيد بمعاهدة ولا بشروط . وأنهم لا يقبلون إعطاء فرنسا أى امتياز ، ولا يعترفون لها بأى حق .

وكانت غاية الفرنسيين من ذلك عودة المعاهدة التى عقدت سنة ١٩٣٦ بكل ما فيها من نفوذ لفرنسا ، وقيود لسورية ، وبكل ما فيها من إجحاف وحد من السيادة والاستقلال .

ولم تكن ثمة وسيلة لإقناع الشعب بالتنازل عن حقه فى السيادة ، والعودة إلى جحيم التعاقد مع فرنسا .

ورفض هاشم الأتاسى — وكان رئيساً للجمهورية سنة ١٩٣٩ — هذا العرض الفرنسىّ الماكر ، الذى كان ينطوى على مؤامرة محكمة ، ونية مبيتة ، لإبقاء « مركز ممتاز » لفرنسا فى سورية . وامتنع فخامته عن تلبية طلب الجنرال كاترو بالعودة إلى قصر الرئاسة ، وممارسة صلاحياته كرئيس للجمهورية .

تعيين الشيخ تاج رئيساً للجمهورية

وتوقّفت المفاوضات عند هذا الحدّ . ورجع الفرنسيون إلى عقليتهم القديمة ، وسياستهم السقيمة ، فأصدر الجنرال كاترو قراراً بتعيين الشيخ تاج الدين الحسنى رئيساً للجمهورية السورية .

وأثبت بذلك أن فرنسا ما زالت فرنسا . . لم تغيّر الحرب شيئاً من عقليتها ، ولا الزمن شيئاً من أطوارها . وأنها ما زالت تؤمن بأن رئيس الجمهورية « موظف عادىّ – يُعينُ . . ويُعزَل !! وأنها صاحبة الأمر والنهى ! لا راد لكلمتها ولا اعتراض على مشيئتها !

وعين الشيخ تاج الدين حسن الحكيم رئيساً لمجلس الوزراء ، وأشرك معه وزيرين من العلويين والدروز . وشكل الحكيم وزارته الأولى فى ١٦ أيلول سنة ١٩٤١[1] :

ولم يسكت القوتلى على هذا الوضع الشاذ ، وإنما استقبله بالنقمة والسخط . وشرع يقاومه ويحاول القضاء عليه .

القوتلى رسول سلام بين السعودية والعراق

سافر القوتلى إلى السعودية والعراق يستحث حكومتيهما للاحتجاج على سياسة فرنسا وتصرفها الأخرق ، وتقديم المذكرات للحلفاء ، ومعاضدة سورية لنيل حريتها واستقلالها .

---

(١) اختلف حسن الحكيم مع الشيخ تاج بعد بضعة أشهر فاستقال . وتألفت وزارة جديدة برئاسة حسنى البرازى فى ٨ نيسان سنة ١٩٤٢ الذى اختلف أيضاً مع الشيخ تاج وهاجمه فى خطبة ألقاها فى إحدى الحفلات العامة . ولم يستطع رئيس الجمهورية إرغامه على الاستقالة وهو لا يملك إقالته ، فاستدعى الوزراء وأخذ يغريهم ويعدهم بتعيينهم فى الوزارة المقبلة فاستقالوا – الأمر الذى أجبر فى النهاية رئيس الوزراء حسنى البرازى على الاستقالة . وعين جميل الألشى رئيساً للوزراء فى ٨ كانون الثانى سنة ١٩٤٣ وبعد أيام توفى الشيخ تاج . فأصدر مجلس الوزراء مرسوماً اشتراعياً تولى بموجبه مهام السلطة التنفيذية بالوكالة حتى ٢٥ آذار سنة ١٩٤٣ .

وصادف أن خلافاً كان قد نشب بين الدولتين الشقيقتين حول حدودهما المشتركة ، وأن النزاع قد استفحل بينهما ، حتى أوشك أن يزيد فى حدة التوتر والفرقة ، ويهدد بشر مستطير . فأعرب عن رغبته بالتوسط لحل هذا النزاع بالطرق السلمية الأخوية . ووفق بعد جهد متواصل لإحلال الوئام محل الخصام ، وفض النزاع ، وإنهاء تلك المشكلة .

وحينما عاد إلى دمشق – خلال شهر أيلول سنة ١٩٤٢ – استقبل فيها استقبالا حافلا منقطع النظير . وكان ذلك الاستقبال الرائع الضخم استفتاء صريحاً للسياسة المعادية لفرنسا ، وإجماع الشعب على مقاومة الدولة التى ما تزال تصر على أنها « منتدبة » ، وأنها صاحبة الأمر والنهى .

ولم يكن ثمة مجالٌ للشك أو الريب بقوة الجبهة الوطنية ، التى كان يرأسها القوتلى ، وبتماسكها ومناعتها .

وكان الشيخ تاج يحاول بدهائه ونعومته أنْ يكسب أنصاراً لفرنسا بواسطة « خبز الفقير » ، والصلاة فى المساجد ، والتردد على بيوت الأنصار والمتزلفين .

ولكنه لم يكسب لها شيئاً . وإنما زاد فى النقمة عليها . وعرضها وبسمعتها للهوان .

* * *

ومات الشيخ تاج فى منتصف كانون الثانى سنة ١٩٤٣ فانهارت بموته أقوى دعامة لفرنسا ، وأقوى ركيزة لها ؛ وأصيبت سياستها بالشلل ، وتفرق أكثر أنصارها ومؤيديها .

وأثمرت جهود القوتلى واتصالاته ؛ وجهود رفاقه واتصالاتهم ؛ وأذاعت اللجنة الوطنية الفرنسية فى لندن بياناً فى ٢٤ كانون الثانى سنة ١٩٤٣ أعلنت فيه أنها عهدت إلى مندوبها الجنرال كاترو بإعادة النظام الدستورىّ إلى سورية .

القوتلى يقود معركة الانتخابات

ولم يرض بيان اللجنة الوطنية شكرى القوتلى لأن الحكومة القائمة يومئذ كانت ما تزال حكومة الشيخ تاج ، وكانت معينة لغاية استعمارية ، وليس للتمهيد لعودة الاستقلال ! فكيف يتلاءم وضعها مع عودة النظام الدستورى ؟ ! ورفض ، وإخوانه ، أن يُجرى الانتخاب فى ظل حكومة الشيخ المتوفَّى .

ومرة أخرى عاد الإضراب السلاح الرّهيب الفتاك . .

واضطر الجنرال كاترو إلى إصدار بيان فى ٢٥ آذار من السنة نفسها يعلن موافقته على تأليف حكومة مؤقتة انتقالية ، برئاسة عطا الأيوبى ، للإشراف على الانتخابات النيابية تمهيداً لعودة الحياة الدستورية .

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن ننوه بجهود المرحوم عطا الأيوبى فى سبيل أمته ووطنه . وبالرغم من أنه قد استولى على الحكم فى عهود فرنسية قاسية ، فقد كان حكمه دائماً تمهيداً لحياة كريمة ، ومستقبل منشود .

وكان يستعين بوزراء يتفق مزاجهم مع مزاجه ، وتفكيرهم مع تفكيره ، معظمهم من القوميين ذوى الصلة الوثيقة بشكرى القوتلى ، كالأمير مصطفى الشهابى الذى كان — وما يزال — جديراً بالثقة حريًّا بالاعتبار ؛ فضلا عن مكانته العلمية المشهود له بها فى جميع المحافل والأندية العربية . وقد عهد إليه فى العهود الوطنية بمناصب رفيعة وهامة .

وانتهى الإضراب .

وانصرف القوتلى لتوحيد الصف الوطنى ، وتشكيل قائمة موحدة فى سائر البلاد . وكانت تعقد الاجتماعات الانتخابية فى أحياء دمشق ، ويحضرها ألوف المواطنين . فيخطب القوتلى فى كل منها ، داعياً إلى التفاهم ، ونبذ الأحقاد ؛ وشارحاً أهدافه ومبادئه ، والخطوط العريضة لسياسته ، ومهيباً بالشعب أن ينتخب من يراه أصلحَ وأكفأ وأجدر .

وفى أحد هذه المهرجانات الانتخابية قال :

« أيها السادة . . .

« . . أنتم على أبواب عهد عتيد عماده الدستور ؛ فثقوا أن دستورنا الوحيد هو الحق والعدل ، لأننا سلحنا هذا العمر الطويل ، ونحن نطالب لهذه الأمة بالحقّ والعدل . وتأكدوا أن أقوى الناس عندنا هو الضعيف حتّى نأخذ له حقه ، وأن أضعفهم هو القوى حتّى نأخذ منه الحق » .

« واعلموا أن رضانا سوف لا يخرجنا إلى الباطل ؛ وأن غضبنا سوف لا يخرجنا عن الحقّ . ومتى قدرنا فلن نتناول ما ليس لنا به حقّ » .

« عهد قطعناه على أنفسنا فنؤكده ، ونعود اليوم فنجدّده ، فلكم علينا البرّ به ، ولنا عليكم حسن المعونة . وإننى أتأسى بقول الصِّدِّيق رضى الله عنه :

« اللهم أنت أعلم منى بنفسى . وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيراً مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون » .

وحينما أعلن القوتلى قائمته الانتخابية فى دمشق انسحب أكثر المرشحين الذين لم ترد أسماؤهم فيها ، وأعلنوا تضامنهم مع قائمة القوتلى ، وتأييدهم الإجماعى لها .

وجرت الانتخابات النيابية فى ٣١ تموز سنة ١٩٤٣ .

وأحرزت قوائم الكتلة الوطنية أكثرية ساحقة فى سائر أنحاء البلاد .

والتأمَ مجلس النواب الجديد فى ١٧ آب سنة ١٩٤٣ وانتخب فخامة السيد شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية بالإجماع .

انتخاب القوتلى رئيساً للجمهورية

كان يوم ١٧ آب سنة ١٩٤٣ فاتحة عهد جديد ، وبدء تاريخ مجيد ، انتقلت فيه سورية من طور إلى طور ، ومن عهد إلى عهد .

وكان على سورية أن تبنى هى نفسها ، ما تهدم من كيانها واضطرب من أحوالها . عليها أن تتغلب على الصعوبات الجمة التى تعترض طريقها ، وتقف

فى سبيل نموها وازدهارها ؛ عليها أن تزيل الرّواسب الكثيفة التى خلفها الاستعمار ، والتى ما يزال يسهر عليها ، وينميها ويغذيها .

والبلاد تجابه خصماً عنيداً ، وتواجه قوة ضارية . إن الطريق عسيرة وشاقة ، محفوفة بالمخاطر والأشواك . ولكن لابد من ولوجها وعبورها ، ولابد من الوصول إلى الغاية المنشودة ، والهدف الأسمى .

والبلاد بحاجة إلى الرجل ، إلى الزعيم الذى قادها فى الليالى السود ، فى الظلمات الحالكة ؛ وكانت تتكئ على عزيمته وإيمانه ، ويعتمد على تأييدها وإخلاصها .

وجاء الرجل نفسه ، فحمله الشعب على كاهله ومشى به إلى أريكة الحكم ، وسدّة الرئاسة . وانتقل بذلك من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . وتطلع العالم إلى شكرى القوتلى ، إلى الرجل العنيف الصّلب ، المشبع بحب الخير والصدق ، والمغمورة نفسه بالإيمان والتقوى ، والعزيمة والإخلاص . ماذا يعمل ؟ وماذا يستطيع أن يعمل ، وأمامه شراذم من البشر أعداء ألدّاء ، مستعمرون غاصبون ، دونهم قطاع الطرق شراسة ولؤماً ، واستهانة بالقيم والأخلاق .

فلم يكن الأمر هيناً ولا سهلا . كان عليه أن يستخلص من أنياب « الضوارى » كل شىء . وهو يعرف حقد هذه « الضوارى » ، وموجدتها ولؤمها وأذاها ، والتفافها حول نفسها ، وتشبثها بمصالحها ونفوذها .

وحينما وقف يخطب على منصة مجلس النواب — بعد انتخابه رئيساً للجمهورية — لم ينس ، وهو يشكرهم على انتخابه والثقة به ، أن يطلب إليهم تجنيد أنفسهم ، وإمكانياتهم للدّفاع عن حقوق البلاد ، والمحافظة عليها .

وكان الشعب السورى بأجمعه يتطلع إلى العملاق الضخم ، وكأنه أسطورة ، تتجمع حوله الأحلام ، وتتجسد فيه الآمال ، وتحف به المنى والرغبات .

وعهد بتأليف الوزارة الأولى إلى المرحوم سعد الله الجابرى رجل الكياسة

واللباقة ، والذوق والأدب الجمّ ؛ رجل الطبع الكريم ، والخلق القويم ؛ الرجل العنيف اللطيف ، القوىّ المرن ، الممتلئ حماسةً وإيماناً ، وصدقاً وإخلاصاً ، وكفايةً وألمعية ؛ الرجل الذى عاش شريفاً عفيفاً ، نقى اليد والضمير ، ومات شريفاً عفيفاً ، نقى اليد والضمير ؛ الرجل الذى فقدته البلاد وقت كانت فيه أحوج ما تكون إليه ، وأشد ما تكون حرصاً عليه[1] :

فرّ مُذْ مُدّتِ الأكُفُّ إليه كَفِرارِ النّعيم من كَفّ حالم

وقد اختاره الرئيس لأن فيه من صفاته ومزاياه ، ولأنه نهل معه من نفس الينبوع ، وسار معه فى نفس الطريق والاتجاه .

وكان دائماً وأبداً — موضع ثقته وتقديره ، وحبه وإيثاره .

وتعاقب على رئاسة الوزارة خلال رئاسة القوتلى الأولى سعد الله الجابرى ، وفارس الخورى ، وجميل مردم .

انتزاع « المصالح المشتركة » من الفرنسيين

وتوالت الاعترافات باستقلال سورية من جميع الدول — شرقية وغربية — إلا دولة واحدة لم تعترف به إلا بعد ثلاث سنوات ونيف ، هى فرنسا !! التى ظلت تعتبر نفسها « وصية » و « منتدبة » . . وهى تطالب بمعاهدة تخرج بها من الباب ، وتعود من النافذة !

وتلفت القوتلى وحوله وزراؤه ومستشاروه ، فلم يجد تحت تصرف الحكومة إلا بعض « الدور » والموظفين — حتى الهاتف كان تحت تصرف الفرنسيين ، يحصون به الأنفاس ، ويطّلعون بواسطته على كل مخاطبة وحديث .

---

(١) فى إحدى الحفلات التذكارية التى أقيمت للمرحوم سعد الله الجابرى فى حلب بعث الرئيس القوتلى إلى السيد إحسان الجابرى برقية يقول فيها : « إننا نذكر فى سعد الله رائداً وقائداً ، فى عهد العزيمة الثائرة ، والمحنة الجائرة . ونذكر فيه مرشداً وبانياً ومنظماً فى عهد الحرية والاستقلال . ولقد افتقدنا فيه معلماً من معلمى الأجيال ، سيظل اسمه فى صفحة الذكرى كوكباً هادياً ، لا تجرؤ عليه كف الفناء ، لأنه فى ذرى عليين ، حيث لا يستقر سوى المؤمنين الصادقين » .

وكان لابد من استرداد « المصالح المشتركة » من أيدى الفرنسيين ، وانتزاعها منهم .

والاستعمار ليس كريماً ، إنه بخيل شحيح . لا يتنازل عن شىء إلا مضطراً ، ولا يسلم بأمر إلا مكرهاً . اقتلاع ضرس من الفم ، أسهل من الاستيلاء على مصلحة فى يده . إنها « أنيابه » التى يهاجم بها ، ويتغذى بوساطتها . كل « المصالح » الهامة معه .. كل « المصالح المشتركة » تحت تصرفه ! وكل استقلال بدون هذه « المصالح » عبث ولهو . فهى فضلا عن الناحية الاقتصادية ، وما توفره للخزانة من موارد أساسية ضخمة ، ذات أثر عميق فى الاستقلال وقوته ، وفى الحكومات الوطنية ونفوذها .

واشتدت المطالبة ، وقوبلت بممانعة . وأصر الرئيس القوتلى وحكومته على تسلم « المصالح المشتركة » لأنها من صميم السيادة الوطنية ، ولأنها من متممات الاستقلال .

وإزاء التهديد والوعيد ، والإلحاح والإصرار ، اضطرت السلطات الفرنسية للإذعان .

وفى الاجتماع الذى عقد فى القصر الجمهورى ، خلال شهر كانون الأول سنة ١٩٤٣ ، وحضره المرحوم رياض الصلح ، رئيس حكومة لبنان ، وافق الجنرال كاترو على تسليم الحكومتين السورية واللبنانية « الصلاحيات » التى كانت تمارسها فرنسا باسمهما ! ! وانتقال « المصالح » المشتركة » وموظفيها إلى الدولتين الشقيقتين ، مع حق التشريع والإدارة . وبذلك انطوت صفحة أخرى من تاريخ العبودية والاستعمار . وبقى الجيش وكان أمل فرنسا ، وعدتها ، والقوة الرهيبة التى تحتفظ بها للوقت العصيب ؛ للوقت الذى تستطيع فيه أن تنكل بوعودها ، وتخل بعهودها ، وترجع عن سياسة القبول والتسليم ، إلى مبدأ السيطرة والغزو .

تلك خلائقها خلائق الاستعمار . وليس للاستعمار عاطفة ، ولا ضمير . ولا مجال عنده إلا لمن يكون مطية له ، وعبداً لمشيئته ومنفذاً لأغراضه وغاياته .

فرنسا تطالب بمعاهدة وتتمسك بالجيش

واعتقدت فرنسا أنها استطاعت بعد « المصالح المشتركة »[١] أن تحتفظ بالجيش تحت نفوذها وسيطرتها . وهذا يكفى لإبقاء نفوذها فى القطر كله ، والقضاء على كل أمل ، لشعب أعزل بالسيادة والاستقلال .

وبدأت فرنسا تطالب بعقد معاهدة جديدة على غرار معاهدة « ١٩٣٦ » غير مبالية بتطور الزمن ، وتغير الأحداث .

إن العالم الذى قدم على مذابح الحرية ملايين الضحايا ، وتحمل فى سبيل الحصول عليها ، ما يعجز عن وصفه اللسان والبيان ، لا يرضى له إباؤه وطموحه ، أن يعود القهقرى إلى الوراء . وإن الشعب الذى ذاق حلاوة الحرية ، ونعم بالمذائذ الاستقلال ، لا يرضى بالعبودية ، ولا يقبل الهوان .

تلك حال مضت . واليوم غير الأمس . ولكن فرنسا لا تعترف بتطور الزمن ، ولا بتغير الأحوال . إنها تريد « معاهدة » تبقى لها نفوذها فى الشرق الأوسط ، وتبقى لها مركزها ومصالحها ، « والأمل » بتقويض دعائم الاستقلال فى أى وقت ترغب وتريد !

وبدأ الضغط على الرئيس القوتلى من كل جانب ، والاستعمار متجانس متساند ، يؤازر بعضه بعضاً .

---

(١) « المصالح المشتركة » هى : إدارة الجمارك . مراقبة حصر الدخان . مصلحة المنارات . مراقبة الشركات ذوات الامتياز . ترامواى وكهرباء دمشق . كهرباء حمص وحماه . كهرباء حلب . مصلحة المعادن والمطاط . مراقبة السيارات . الأرصاد الجوية . دائرة الشؤون الاقتصادية للمصالح المشتركة . دائرة الشؤون المالية للمصالح المشتركة . شعبة الخزينة . مصلحة البارود والمفرقعات . مصلحة الدفاع السلبى . إدارة الصيدلة . مصلحة العشائر . أموال مكتب القطع . تنظيم رقابة القطع . دائرة القطع . دار الآثار . الرقابة الصحية والبيطرية . إدارة حماية الملكية التجارية والصناعية والفنية والأدبية والموسيقية . المراقبة العامة للبرق والبريد . دوائر الحجر الصحى ، رقابة السكك الحديدية والموانئ .

الجنرال سبيرس . . بين المدّ والجزر

لعب « الجنرال سبيرس » دوراً رئيسيّاً فى الضغط على سورية .

« والجنرال سبيرس » ، ممثل بريطانيا فى سورية ولبنان ، كان له أثرٌ بارز فى كل أحداث الشرق الأوسط ، خلال مدة وجوده فيه ، حتى إن بعض الصحف البريطانية كانت تضفى عليه لقب « لورانس الجديد » ، وتخلع عليه كل ألقاب الثناء والإطراء .

ومما لاشك فيه أن الرجل كان داهيةً محنكاً . وكان يجمع كل صفات رجل إنكلزيّ يشغل مركزاً مرموقاً ؛ فقد كان غامضاً مبهماً ، واسعَ الحيلة والتفكير . وكان « بريطانيّاً » قبل كل شيء ؛ لا يفكر إلا بالتوسع والاستعمار ، والسيطرة والمجد . وكان يختلف عن أبناء جلدته الإنكليز بتواضعه وتهذيبه ، وكان فى بعض مواقفه نبيلاً .

وكان صديقاً حميماً لفرنسا ، وعاملا على دعم مصالحها ونفوذها فى الشرق . وهو الذي اصطحب معه « الجنرال ديغول » إلى لندن ، بعد سقوط باريس ، وساعده على تشكيل « اللجنة الوطنية الحرة » . ووالدة الجنرال سبيرس فرنسية . وهو يجيد الخطابة باللغة الفرنسية مثل اللغة الإنكليزية نفسها . وفى الكتاب الذى نشر له إشارة إلى هذا .

ولكن السياسة الفرنسية حمقاء ، لم تقدر صداقة الرجل وإخلاصه لها ، لأن تصرفه كان متصفاً باللباقة والكياسة . والفرنسيون يريدون أن يكون مثلهم أهوج أرعن . . فالبريطانيون تهمهم النتيجة وحدها ، والفرنسيون تهمهم الوسيلة والأسلوب ، والخلاف بين النفسيتين والعقليتين أساسى ، وقديم .

كان الجنرال سبيرس يسعى فى الوقت نفسه للحصول على صداقة سورية ، والاحتفاظ لبريطانيا بمركز ممتاز فيها .

وحاول أن يوفّق بين صداقته لسورية وصداقته لفرنسا . ولكن الفكرة كانت عقيمةً وفاشلة . إذ أنه من الصعب التوفيق بين فكرتين متعارضتين ،

تقوم كل منهما على أساس محاربة الأخرى . ففرنسا حريصة على بقائها فى سورية ، وسورية جاهدة للتخلص من فرنسا . ومن العبث تقريب وجهات النظر بين فكرتين ، لا مجال للتقارب بينهما ، إلا باندحار إحداهما أمام الأخرى . ومع ذلك . . . فقد ظل الجنرال سبيرس مخلصاً لمحاولته ، دائباً على إنجاحها . . وعاملا على إقناع سورية بالتعاقد مع فرنسا ، على أساس الاعتراف لها ببعض الحقوق والمميزات !

ويأبى الجنرال كاترو — فى مذكراته — إلا أن يلصقَ بالجنرال سبيرس تهمة مقاومة فرنسا ، والتآمر على مصالحها ونفوذها . .

والجنرال سبيرس كان رجلا استعمارياً ، مثل كاترو تماماً . ولكن بينهما فارق الخلق والطبع ، وفارق العقلية والأسلوب .

الكرسى ذو الأرجل الأربع

ذات يوم من صيف سنة ١٩٤٤ طلب الجنرال سبيرس مقابلة الرئيس القوتلى[١] . واستقبله فخامته فى داره فى الزبدانى ، وأثناء المقابلة طلب باسم بريطانيا عقد معاهدة بين سورية وفرنسا — على غرار معاهدة الإنكليز مع العراق . ولمح فى حديثه إلى أن السياسة البريطانية ، فى الشرق الأوسط ، تقوم على أساس التعاون مع فرنسا ، ضمن المنطقة وفى الحقل الدولى العام .

وأشار من طرف خفى إلى أن للدول العربية كلها ارتباطات مع الغرب ، وأن بريطانيا لا تقر مبدأ انفراد إحداها عن السياسة العامة التى رُسِمَتْ ، وتُرْسَمُ لبقية الدول الأخرى ! وإن تمتعَ بلد عربيّ بنوع من الحكم ، يختلف عن البلدان العربية الأخرى ، سيكون عاملا ومشجعاً على وجود الاضطرابات فى هذه البلدان ! ولبريطانيا مصالح فيها — تتنافى مع سياسة الانفراد ، ولا تسمح بإحداث فتن واضطرابات !

(١) فى مذكرات الجنرال سبيرس — فصل خاص عن هذه المقابلة .

وكان ذلك بمثابة تهديد مبطّن ، على الطريقة الإنكليزية التى لا تعالج القضايا إلا من أحد جوانبها ، وتتحاشى أول الأمر مصادمتها ومجابهتها .

وأطلع الرئيس على برقية « تشرشل » بهذا الشأن . . وأن رئيس الوزارة البريطانية يحرص على صداقة بلاده مع فرنسا ، وعلى تعاونهما المشترك فى جميع المجالات الدولية ؛ ويرغب أن يتم التفاهم بين سورية وفرنسا على أساس « مراعاة حقوق فرنسا » والمحافظة عليها .

وهنا . . . قال الرئيس القوتلى ، للجنرال سبيرس : « إنك لم تدرس تاريخ سورية جيداً يا حضرة الجنرال » . ولما استغرب سبيرس هذا الجواب ، سرد له فخامة الرئيس شيئاً من أنباء الجهاد فى سورية وأخبار كفاحها وتضحياتها .

ثم روى له قصة الأمير فيصل – سنة ١٩١٩ – مع رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ؛ وكيف أن الرئيس البريطانى قد سلم الأمير فيصل مذكرة تفيد أن بريطانيا قررت جعل سورية تابعة لفرنسا ، تنفيذاً لاتفاقية « سايكس – بيكو » التى قسمت النفوذ الاستعمارى فى الشرق الأوسط ، وحددته بين الدولتين الكبيرتين ؛ وكيف أن اللورد « كيرزون » وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الحين ، قد اتصل برئيس الوزارة الفرنسية « كليمنصو » ليخبره بما جرى له مع الأمير فيصل ، وليطلب منه تحديد موعد لمقابلته .

ولما اجتمع الأمير فيصل برئيس وزراء فرنسا ، جابهه بالمطالب الجائرة التى تضمنتها معاهدة « فيصل – كليمنصو » والتى تسلب البلاد سيادتها ، وتجعلها تابعةً ومستعبدة .

ورفض الشعب السورى المعاهدة ، مفضلا الحكم السافر المباشر ، على الحكم الاستعمارى المبطن . وغادر فيصل دمشق بعد دخول الجنرال غورو ، واستشهاد بطل ميسلون .

واختتم القوتلى حديثه بقوله :

« يا حضرة السفير – إن فيصلا قد غادر الشام لأنه لم يكن له فيها إلا كرسىّ بأربع أرجل ، وأما أنا فإن لى فيها تراثَ ستمائة عام . فإذا كان

تشرشل يريد أن يعمل معى ما عمله لويد جورج مع فيصل ، فليثق بأن ذلك لن يتم . لأننى سأبقى فى بلادى ، وسأدافع أنا وشعبى عن استقلالها حتى الموت » .

« إن فرنسا لن يكون لها فى هذه البلاد مركز ممتاز ولا غير ممتاز ، ونحن أحياء . إن حياة النضال أشهى إلى أنفسنا من حياة الترف والنعيم ، ونحن مستعدون لتقبل أسوأ مصير – إلا مصيراً واحداً لا نستطيع تقبله : وهو وجود الاستعمار فى بلادنا » .

وبعد أيام من هذا الحديث القوىّ الصريح ، الذى جاجل فى أسماع لندن وأوقرها ، عاد الجنرال سبيرس ، لزيارة الرئيس القوتلى من جديد ، وسلمه رسالة من تشرشل تزخر بالعطف على أمانى سورية القومية ، وتتعهد بعدم المساس بها ، أو النيل منها .

وتساءل القوتلى عن سرّ هذا التبدل السريع ، وعما كتبه السفير لرئيس الوزارة البريطانية حتى تراجع عن موقفه السابق . فأجابه الجنرال سبيرس : لقد أخبرته عن قصة « الكرسى ذى الأرجل الأربع » وكان هذا هو الجواب .

وهكذا انتصر الإيمان ، وفازت العقيدة ، فازت بفضل جرأة صاحبها وبسالته ، وإخلاصه وإقدامه .

فازت بفضل استهانته بالمخاطر ، وهزئه من التهديد والوعيد ، واستعداده للتضحية بالنفس والنفيس ، فى سبيل وطنه ، ومثله العليا .

لقد كان جواب تشرشل صدًى لجرأة القوتلى وشجاعته . ولا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا يربح المعركة إلا مقدامٌ صبور .

وربحت سورية هذه الجولة . بفضل حنكة رئيسها ، وحزمه وإخلاصه .

ودخلت قصة « الكرسى ذى الأرجل الأربع » فى التاريخ .

القوتلى يجتمع بتشرشل

ولكن « ديغول » لم يرضَ بهذه النتيجة ولم يرتح لها . وكانت المعارك فى قلب فرنسا بين الحلفاء والألمان . ولا يخفى مدى تأثر الحلفاء برضى الشعب الفرنسىّ ، والرغبة بالتعاون معه حتى يتم النصر ، وتنتهى الحرب .

وهكذا عادت بريطانيا تذعن لمشيئة « ديغول » وتوالى ضغطها على سورية ، لعقد معاهدة مع فرنسا .

وذات يوم ذهب الرئيس « القوتلى » لزيارة المملكة العربية السعودية[1] بناء على دعوة تلقاها من جلالة العاهل السعودى — حيث لقى من ضروب الحفاوة والتكريم ما تستأهله زعامته وجهاده ومنصبه الرفيع .

وفى طريق عودته عرج على القاهرة لقضاء بضعة أيام فيها . وبينما هو يتأهب لمتابعة سفره إلى دمشق ، إذا بالسفير البريطانى يطلب مقابلته ليخبره أن المستر « تشرشل » قادم إلى القاهرة . وأنه يرغب فى الاجتماع به . فلم يكن ثمة مندوحة عن الانتظار .

ووصل فى هذه الأثناء الملك عبد العزيز آل سعود فى زيارة رسمية لمصر .

وفى مساء ١٨ شباط سنة ١٩٤٥ اجتمع الرئيس القوتلى بالمستر « تشرشل » ووزير خارجيته « أنطونى إيدن » ، وحضر هذه المقابلة من رجال الإنكليز اللورد كريغ ، والسير ألكسندر كادوغان ، والمستر شون الذى عين وزيراً

---

(١) يروى الأستاذ سعيد التلاوى فى كتابه « كيف استقلت سورية » هذه القصة التى تدل على حماقة الفرنسيين وطيشهم واستهتارهم بالقيم والمراكز الرفيعة : « عند ما توجه فخامة رئيس الجمهورية إلى مطار المزة ، كان لكاتب هذه السطور شرف السير فى موكب فخامته ، الذى كان يضم رئيس الوزراء ، والوزراء ، وقائد الدرك العام ، ومدير الشرطة العام ، وكبار رجال الدولة ، وبعض النواب ، ولدى وصوله إلى مدخل المطار كان مغلقاً بحاجز خشبى ، يقوم على حراسته جندى سنغالى جالس على كرسى وقد وضع رجلا فوق رجل . ولما رأى موكب رئيس الجمهورية قادماً لم يكلف نفسه عناء القيام لرفع الحاجز ، فنزل المرافق من السيارة وطلب إلى السنغالى رفع الحاجز ، فأبى قبل أن يستأذن الشاويش الفرنسى بذلك ، وأذن الشاويش ورفع الحاجز ودخل فخامة الرئيس ورجال الدولة السورية المطار السورى على هذه الحالة .

مفوضاً لبريطانيا فى سورية ، بعد أن نقل الجنرال سبيرس بناء على طلب وإلحاح ديغول ، ورجال آخرون ذوو مراكز رفيعة فى الحكومة البريطانية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرئيس القوتلى كان قد تلقى من الحكومة السورية برقية فى صباح ذلك اليوم ، تخبره فيها أن عصابة من الأشقياء قد اصطدمت برجال الدرك ، وتغلبت عليهم ، وأنه لم يعدْ لدى الدرك ذخيرة لمقاومة العصابة ..

وفى هذا الجوّ المضطرب قابل تشرشل وحيداً .. وليس وراءه جيش يشد أزره ، ويستطيع التهديد به ، حتى ولاعتاد يستطيع التغلب به على عصابة من الأشقياء ..

وسار للاجتماع مع تشرشل معتمداً على عزيمته ، وعلى إيمان الشعب العربى بحقه فى الحياة .

ودار البحث طويلا حول ضرورة التفاهم مع فرنسا .

وكان « تشرشل » عائداً من « مؤتمر يالطا » مزهوّاً كالطاووس ، فخوراً معتزّاً ، وهو يمثّل عنجهية بريطانيا ، وصلفها وكبرياءها[1] .

وكان الرئيس القوتلى — كعهد الناس به دائماً — صريحاً جريئاً . ورغم محاولات « تشرشل » ، ومن معه ، فقد بقى « الرئيس القوتلى » صامداً لا يلين . وأبى أن يعترف لفرنسا بأىّ حقّ فى سورية ، وأنْ يقبلَ التفاوض معها من أجل أىّ اتفاق . وأعلن عن استعداده لقيادة الثورة بنفسه ، إذا رفض الجيش الفرنسى الانسحاب من سورية ، وأن الشعب السورى مستعد لإراقة آخر نقطة من دمه ، فى سبيل استقلال بلاده وحريتها . وأن العالم العربى كله سيثور مع سورية ؛ ولا تستطيع قوة أن تقف فى وجه الأقطار العربية متى ثارت .

وهنا انتفض رئيس وزراء بريطانيا و « حامى » تاجها — على حد التعبير الإنكليزى ! — وقال منفعلا :

« لا تهددنى يا فخامة الرئيس . إننى قادمٌ من " يالطا " حيث كنا نقرر

---

(١) أشار تشرشل فى مذكراته إلى مقابلته مع الرئيس القوتلى . وإلى صلابة فخامته وعناده ، وتشبثه بموقفه ، وإصراره على عدم التعاقد مع فرنسا ومما ذكره فى مذكراته قوله : « لقد أشعرنى أضعف رجل فى ذلك الحين أنى أضعف منه » .

مصير العالم . وأعتقد أننى اتفقت مع ستالين على كل شيء . ولم يبق هناك ما يهددنى بعد أن اتفقت مع ستالين » .

وأجابه رئيس سورية العظيم ، الرجلُ الشجاعُ المؤمن ، الواثق بنفسه وشعبه قائلا :

« ونحن أيضاً من أبناء هذا العالم ، الذى كنتم تقررون مصيره ، إننا لا نريد إلا العيش بسلام وأمان ؛ ولنا حقوق وكيان وكرامة ؛ ويهمنا الاستقرار فى هذه البقعة التى نعيش فيها ، ولا يمكن أن يتحقق الاستقرار ما دامت فرنسا موجودة فى هذا الجزء من العالم . ونحن نعرف مكاننا على الأرض ، وأين نحن ، نعرف أننا لسنا دولةً قوية ، ولكننا أصحاب حقٍ ، وصاحب الحقِ دائماً قويٌ ، يستمد قوّته من ثقته بنفسه ، ومن ضمير الإنسانية وعدالتها . إننا لا نخاف أحداً يا مستر تشرشل ، ولا نهابُ أحداً ، إننا وإن كنا لا نملك سلاحاً ندافع به عن أنفسنا ، فإننا نملك دماء نريقها فى سبيل قضيتنا وعقيدتنا » .

وساد الجلسة بعد ذلك سكونٌ رهيب وخيمَ عليها صمتٌ كئيب . وعرف تشرشل أنه أمام رجل صلب عنيد ، وأن كل ما سمعه عن صلابته وعناده صحيح ، وغير مبالغ فيه[1] . وأن الرجل لايؤخذ بالشدة ؛ ولا تجدى معه سياسة العنف . وتذكر قصة « الكرسىّ ذى الأرجل الأربع » فخفف من حدته قليلا وقال للرئيس :

« إننى أخاطبك باسم الحلفاء . وأطلب منك التفاهم مع فرنسا . إن الحلفاء الآن فى حرب ، والحرب تدور فى أرض فرنسا نفسها . ومن مصلحة الحلفاء

---

(١) يروى الدكتور نجيب الأرمنازى فى كتابه « من الاحتلال حتى الجلاء » أن أحد أصدقاء تشرشل من النواب الذين قاموا بعمل مذكور فى المشرق قد ذكر له : « أن المستر تشرشل أبدى شعوره فى حديث خاص قائلا : إن المحادثات التى قام بها والاستعداد الذى وجده بنتيجتها ، جعلته يعتقد أن لا بقاء لفرنسا فى سورية بعد الآن » .

تأمين مصالح فرنسا فى سورية . وأنا أطلب باسم الحلفاء تأمين هذه المصالح »[1] .

وأجابه الرئيس القوتلى بمنتهى الهدوء وقوة الأعصاب :

« فى نوادرنا رجل يقال له " جحى " سئل مرة : متى تقوم القيامة ؟ فأجابهم : أىّ قيامة تعنون ؟ فقالوا له : وهل هناك إلا قيامة واحدة ؟ . فقال : نعم هناك قيامة صغرى ، وقيامة كبرى . أما القيامة الصغرى فهى أن يموت الناس جميعاً وأبقى أنا ، وأما القيامة الكبرى فهى أن أموت أنا . فأى قيامة تعنون منهما ؟ » .

وهكذا أنا ، يا مستر تشرشل . لا يهمنى أمر أحد قبل بلدى سورية ، إن شعبى تهمه قضيته أولا ، وقبل أىّ قضية أخرى . وإذا خسر قضيته فإنه لايهتم بقضايا أحد ، ولايأبه لها ؛ وسيان عنده أعمرت الدنيا بعد ذلك أم خربت » .

وأصغى تشرشل إلى قصة « جحى » بإمعان ؛ ولكنه عاد يلح على الرئيس القوتلى للاتفاق مع فرنسا ، وتأمين مصالحها فى سورية . وتدخل أنطونى إيدن بالحديث ، وسأل الرئيس القوتلى عن مصالح فرنسا وعددها ؛ ولما أخبرهم فخامته أن مصالح فرنسا لا تتعدى « بنكاً » ، و « سكة حديد عتيقة » وأسهماً

---

(١) يروى الدكتور نجيب الأرمنازى – وزير سورية المفوض سابقاً فى لندن – فى كتابه « من الاحتلال حتى الجلاء » ص ١٨٧ ما يلى :

« تلقينا رسائل ودية كثيرة فى لندن بمناسبة يوم ١٧ نيسان وجلاء الجيوش الأجنبية ، بعد أن أذعنا ما قررته الحكومة من اتخاذه عيداً وطنيا ، واعتزمنا الاحتفال به . وقد تلقينا من المستر أتلى ، والمستر بيفن ، والمستر إيدن ، كلمات رقيقة . ولكن المستر تشرشل الذى أرسلنا له كتاباً كزعيم للمعارضة ، ودعوناه لحضور الاحتفال ، بعث إلينا بجواب مؤرخ فى ١٩ نيسان سنة ١٩٤٦ يقول فيه :

« شكراً لرسالتكم المؤرخة فى ١١ نيسان . ويلوح لى أنه غير جدير أن يكون " انسحاب الجنود الأجنبية " من سورية عيداً وطنياً ، إذ هو بعيد أن يوفى " حق " الجنود البريطانية التى كان وجودها فى سورية ضامناً لاستقلالكم . . بل مؤدياً إلى إنجاز هذا الاستقلال » إلى أن يقول :

« ولا شك أنى فى هذه الحالة لا أرى مشاركة فى احتفال كالذى ترتأونه . إذ يخيل لى أنه يبنى على أساس هو أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان ، الذى ينبغى أن يرافق الاستقلال السورى على قرار مكين » ! ! !

وهكذا تتجلى العقلية الاستعمارية بأبلغ مظاهرها فى رسالة تشرشل الغريبة – هذه .

فى بعض الشركات ، وفندقاً فى بيروت ، ظهرت على تشرشل علائم الدهشة . وقال للرئيس : « إن ديغول يدعى بأن أكثر من نصف الميزان التجارى فى سورية هو لفرنسا . » فأجابه الرئيس القوتلى : « هذه هى الحقيقة التى أقولها لكم . وديغول يعرف هذا . ولكنه يريد أن يكون "بطلا تاريخياً" مثل نابليون أو جان دارك . لا يا مستر تشرشل نحن لن نتفق معه ، ولن نفرط بحريتنا ولو فنينا عن آخرنا . إننا نفضل أن نموت كراماً على أن نعيش مستعبدين لفرنسا » .

ونهض الرئيس مودعاً فنهض تشرشل دون أن ينبس ببنت شفة . وطلب أن يأخذ صورةً تذكارية مع الرئيس القوتلى ، وهكذا انتهت المقابلة ، وانفض الاجتماع .

وعاد القوتلى إلى دمشق ليجد الشعبَ باستقباله . وخطب فى الجموع الغفيرة من أعلى شرفة دار الحكومة . وطمأن الناس بأن قضيتهم محوطة بعناية الله ، ورعاية المخلصين .

وطلب منهم وحدة الصف ، وجمع الكلمة ، لتحقيق المثل القومية العليا . وبحت الحناجر من الهتاف ، ودميت الأكف من التصفيق .

مؤامرة لمنع سورية من الانتساب لهيئة الأمم

كان مؤتمر الأقطاب فى يالطا ــ روزفلت وستالين وتشرشل ــ قد أقر ميثاق الأمم المتحدة فى ١١ شباط سنة ١٩٤٥ ، وقرر دعوةَ الدول التى أعلنت الحرب على المحور قبل أول آذار سنة ١٩٤٥ إلى اجتماع يعقد فى مدينة سان فرنسيسكو ــ الولايات المتحدة الأمريكية ــ فى ٢٥ نيسان سنة ١٩٤٥ لإقرار ميثاق المنظمة التى تسعى : « لإنشاء تعاون دولىّ بين الدول المحبة للسلام » .

وكانت سورية قد أعلنت الحرب على المحور فى ٢٦ شباط فكان من حقها أن تأخذ مقعداً فى هيئة الأمم ، أسوةً ببقية الدول التى أعلنت الحرب قبل أول آذار . ومع ذلك فقد وجهت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الدعوات

لحضور الاجتماع ، وأغفلت دعوة سورية ولبنان . وكان للتدخلات الفرنسية أثرٌ بارزٌ فى هذا « الإهمال » المقصود !

واحتجت سورية ولبنان على هذا « الإهمال » ، واتصلتا بالدول الصديقة ، وبذلتا نشاطاً كبيراً فى المحافل الدولية . وبذل فخامة رئيس الجمهورية السورية جهوداً كبيرة مع ممثلى الدول العربية والأجنبية .

وكان يلاحق القضية بنفسه ، لأنها كانت فى نظره أساسية لاستكمال أسباب السيادة والاستقلال وأبرق إلى ستالين ، وروزفلت ، وتشرشل ورؤساء الدول فى الشرق والغرب ــ ما عدا فرنسا طبعاً ــ يحتج على هذا « الإهمال » الذى يتنافى مع المبدأ الذى شكلتْ على أساسه « هيئة الأمم » .

ونجحت المساعى . ووجهت فى ٣٠ آذار سنة ١٩٤٥ دعوة إلى الحكومتين السورية واللبنانية لحضور المؤتمر [١] .

وذهب الوفد السورى برئاسة : فارس الخورى . وعضوية : ناظم القدسى ، نعيم الأنطاكى ، نور الدين كحالة ، فريد زين الدين ، توفيق الهنيدى ، لتمثيل سورية فى مؤتمر سان فرنسيسكو .

وهكذا دخلت سورية إلى الميدان الدولى من بابه العريض .

خيبة أمل القوتلى بحكام العراق

فى العاشر من آذار سنة ١٩٤٥ زار الرئيس القوتلى بغداد ، حيث استقبل فيها استقبالا رسمياً وشعبياً ، منقطع النظير ؛ وجرت له مع المسؤولين محادثات هامة ، عن الوضع العربىّ بصورة عامة ، كانت تستهدف جمع شمل العرب ،

(١) ذكر الدكتور نجيب الأرمنازى فى كتابه القيم « من الاحتلال حتى الجلاء » أن بريطانيا لم توافق سنة ١٩٤٣ على إعلان سورية الحرب على المحور ــ وكانت قد أبدت رغبتها على أثر إعلان العراق الحرب محتجة ببعض الأسباب التى لها علاقة بفرنسا . ولما أعلنت سورية الحرب لتشترك فى الأمم المتحدة لم يجد الوزير البريطانى مسوغاً لأن الدول التى ستشترك فى أعمال الأمم المتحدة قد عينها « مؤتمر يالطه » ولم تكن سورية فى عدادها ! راجع الصحيفة ١٦١ من الكتاب المذكور.

وتوحيد جهودهم ، والتقارب بين وجهات نظرهم حول القضايا العربية ، والقضايا الدولية .

ولكن ساسة العراق لم يكونوا سادة أنفسهم ، ولا ولاة أمرهم ، وإنما كانوا أذلاء صاغرين لإنكلترا ، وعبيداً مأجورين لها . تأمرهم فيطيعون ، وتنهاهم فينتهون . . وربما كانوا أخلص لقضية بريطانيا من بريطانيا نفسها ؛ وأكثر حرصاً عليها ، وأشد تمسكاً بها من أبنائها أنفسهم ، وهذا شأن « التابع » الذى يغالى بحب « متبوعه » ، ويتشبث بمصلحته تقرباً منه وزلفى .

وعاد القوتلى من بغداد وفى قرارة نفسه إيمان عميق ، بأنه لا أمل يرجى من العراق ما دام يزعمه ، أو يتزعمه ، هؤلاء ، وأن العراق إذا لم يتحرر من هذه الفئة المأجورة ، التى نصبها الإنكليز سادة عليه وقادة ، فسيظل مكانه فى الصف العربى فارغاً ، ومقعده شاغراً ، وحركته معطلة ، وكل أمل به خائباً ضائعاً .

وثبت للقوتلى بصورة لا تقبل الشك ولا الجدل ، أن رأيه بساسة العراق كان فى مكانه ؛ وأن أعمال أكثرهم ، لا تنبع من مصلحة الشعب العربى ، ولا تهدف إلى خيره ومستقبله ؛ وإنما هى سياسة مستمدة من مصلحة إنكلترا ، ومن توجيهاتها ورغباتها !

وازداد إيماناً بالنهج الذى انتهجه ، والطريق الذى رسمه ، والقاعدة التى تمشى عليها — وهى محاربة السياسة التى تتمشى عليها الأسرة المالكة فى العراق والأردن ، لأنها أخطر على القضية العربية من المستعمرين أنفسهم . ورسخ فى نفسه شعور عميق أن هدف سياسة البلدين ، هو « التوسع » ، والمحافظة على العرش ، وليس إقصاء المستعمر ، ولا النهوض بالشعب المثقل بالأعباء .

واستمر فى سياسته السابقة التى تنبع من إيمانه ومن قناعته بأن فيها خيراً للعرب ، ولمصلحتهم القومية — وهى تقوية علاقة سورية بمصر والسعودية ، للوقوف فى وجه ساسة العراق والأردن .

ولكن هذا ، لا يحول دون السعى لإيجاد منظمة تجمع شمل الدول العربية ، وتكون وسيلة لتقوية الصلات بينها ، وزيادة الارتباط بين شعوبها ، توثيقاً

وتمكيناً لا سيما أن العمل المنفرد لا يؤدى إلى النتيجة المطلوبة ، وأن العمل الجماعى داخل مؤسسة عربية يكون أصلح وأنسب وأوفق .

وهكذا كان القوتلى يرمى فى سياسته العامة ، إلى تكتل العرب فى منظمة واحدة ، وفى سياسته الخاصة ، إلى إبقاء « الخط » الأساسى بين سورية ومصر والسعودية قائماً متماسكاً .

وقد أثمرت اتصالات فخامته برؤساء الدول العربية ، عن تقريب لوجهات نظرهم ، حول إيجاد مسالك صالحة لتحقيق الوحدة العربية .

فكرة التكتل العربى

كان وعى الشعوب العربية قد اكتمل . وبدأ كل عربى يفكر بقوميته ، ومستقبل بلاده ، واستولت الفكرة العربية على أذهان الناس وأفكارهم ، من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، وأصبحت شغل الناس الشاغل ، وحديثهم الدائم ، وأملهم المرتجى ، وهدفهم المبتغى .

وشعرت بريطانيا بهذه الموجة الغامرة ، تكتسح البلاد العربية ، وتسيطر على مشاعر شعوبها وعواطفهم ؛ وأيقنت أنها لا تستطيع تحدى الشعور الجارف ، والعاطفة الملتهبة ؛ ورأت من مصلحتها أن تجاريها ، لا أن تقف عقبة فى طريقها ، فيجرفها التيار ، ويغرقها السيل ؛ ووجدت أن فى توددها للعرب ضماناً أكثر لمصالحها ، وفائدة أكثر لسياستها .

وفى ٢٩ آذار سنة ١٩٤٢ وقف أنطونى إيدن وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم البريطانى ، وأدلى بالتصريح الآتى :

« إن العالم العربى قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التى تمت فى نهاية العام الماضى — ويعنى بذلك قيام جمهوريتى لبنان وسورية والاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على الاعتراف باستقلالهما — فرغب كثيرون من مفكرى العرب ، فى أن يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن . وهم فى سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأييدها .

فمثل هذا النداء من أصدقائنا لا يمكن إلا أن يلبى . وإنه ليلوح أنه من الطبيعى ، ومن الحقّ ، أن تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية ، بين البلدان العربية ، بل والروابط السياسية أيضاً .

فحكومة صاحب الجلالة ستؤيد من جانبها — كل التأييد — كل مشروع تم الموافقة الإجماعية عليه » .

ثم أدلى فى ٢٤ شباط سنة ١٩٤٣ بتصريح آخر فى مجلس العموم جاء فيه :

« إن الحكومة البريطانية ، كما أوضحت قبل ، تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم . وإن من الجلىّ أنّ الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع يجب أن تأتىَ من العرب أنفسهم » .

والواضح من التصريحين أن بريطانيا قد استجابت — مرغمة ، ولدوافع خاصة — لرغبات العرب ، وأن موقفها الإيجابى من سعيهم للتكتل ، كان صدًى لمطالبهم ونتيجة لمساعيهم .

ثم : إن بريطانيا — وكانت تبسط سلطانها على أكثر البقاع العربية — رأت بفكرة التكتل العربى سبيلا لضم بقية الأقطار العربية إليها ، واندماجهم فى سياستها ، وخضوعهم لإرادتها وتوجيهها . ولم يكن يدور فى خلد ساسة بريطانيا أن العرب سيتحررون من ربقة الاستعمار . بمثل هذه السرعة الفائقة ، وأن نفوذها فى الجامعة العربية سيتقلص ويضمحل ، ولو كانت بريطانيا تعرف أن زمام الجامعة العربية سيفلت من يدها ، لما بالت برغبات الشعوب العربية ولما أصغت إليها . بل لقاومت فكرة إنشاء جامعة عربية بكلّ ما تستطيع من حول وقوّة ، ولوضعت فى طريقها العراقيل ، وزرعت فى سبيلها الأشواك .

وبعد تصريح إيدن فى مجلس العموم ، تشجع مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر ، وباشر التشاور مع الحكومات العربية ، لعقد ميثاق بينها ، والعمل على تكتلها فى هيئة إقليمية أطلق عليها ، فيما بعد اسم « جامعة الدول العربية » .

وكتب صحفى أجنبى يومئذ يقول :

إن « الجامعة العربية » فكرة اختمرت فى نفوس العرب ، فاستغلها « تشرشل » ، ونطق بها « إيدن » ، وبشّر بها « عبد الله » ، وتبناها « النحاس » ، ورحب العرب بها ، لأنهم وجدوا فيها نواةً للوحدة التى ينشدونها ، ويسعون إليها .

تكوين جامعة الدول العربية

كانت فكرة الجامعة العربية تبشيراً بالوحدة الكبرى ، وإيذاناً بها ، ولم يكن فى مقدور الحكومات العربية إلا أن تعبر عن رأى الشعوب المتحمسة لفكرة الوحدة ، والمندفعة فى سبيل تحقيقها اندفاعاً مستميتاً .

وبدأت المشاورات الخاصة لتكوين جامعة دول عربية فى قصر « أنطنيادوس » فى الإسكندرية ، فى ١٦ من تشرين الأول سنة ١٩٤٣ .

وأسفرت الأبحاث التى جرت ، عن اتفاق كان له صدى ارتياح بعيد فى نفوس العرب أجمعين .

ولم يكن طريق المفاوضات سهلا ولا معبداً ، وإنما كانت تكتنفه ، فى بعض الأحيان ، متاعبُ ومصاعب ، ومخاوف وشكوك ، ولولا خشية بعض الحكام العرب ، من الشعوب العربية ، لاضطرب السبيل واختلف النهج ؛ ولكن الشعوب كانت بالمرصاد لكلّ من يضع حجراً فى الطريق السوىّ .

. . . وكان بعض حكام لبنان يخشون أن يذوب كيانهم فى بوتقة « الجامعة » وأن ينصهر استقلاله فيها . حتى بدد ما لحق لبروتوكول الإسكندرية مخاوفهم .

وكان موقف الوفد السورى ، مستمداً من صميم القومية العربية ، ومن إيمانه بالوحدة الكبرى ، حتى إن رئيس الوفد ، المرحوم سعد الله الجابرى ، قد أعلن يومئذ ، عن استعداد سورية للتخلى عن كيانها واستقلالها فى سبيل الوحدة العربية . ومما قاله : « إنى لا أجد تعبيراً يصف المهمة التى نتهيأ للقيام بها أفضل من الكلمة البليغة التى نطق بها رئيس جمهوريتنا وهى : " إن البلاد السورية تأبى أن يرتفع فى سمائها لواء يعلو على لوائها إلا لواء واحد ، وهو

لواء الوحدة العربية " . هذه الكلمة هى عنوان السياسة التى أوحى بها إلينا رئيسنا ، وحملتنا إياها أمتنا فيما استوحيناه واستلهمناه من رغائبها » .

وعُقد ميثاق الإسكندرية فى ٧ من تشرين الأول سنة ١٩٤٤ ثم وافقت الدول العربية عليه فى ٢٢ من آذار سنة ١٩٤٥ .

والجامعة العربية لم تستطع ، مع الأسف ، تحقيق الآمال المعلقة عليها والأعمال المرتقبة منها . وإنما كانت هيئة تثبت وجودها فى العاديّ من الأمور ، وتقصر عن تنفيذ الخطوات الجوهرية العملية .

ولعل مبعث ذلك يعود إلى أن ميثاقها ينص على وجوب اتخاذ قراراتها بالإجماع . وأن قرارات الأكثرية لا تلزم إلا من يقبلها – (المادة السابعة) ، وإلى أنه يسمح للدول الأعضاء أن تنفرد بعقد محادثات واتفاقيات مع أية دولة ، دون الرجوع إلى الجامعة ، على أن تودع الأمانة العامة نسخاً من جميع المعاهدات والاتفاقات التى عقدتها وتعقدها (المادة السابعة عشرة) .

وفضلا عن ذلك كله ، فإن ممثلى بعض الدول الشقيقة كانوا ممثلين لبريطانيا فى « جامعة الدول العربية » ، قبل أن يكونوا ممثلين لبلدانهم وشعوبهم ! وهى حقيقة موجعة ، ولكنها حقيقة على كل حال ، لا تفتقر إلى دليل ولا تحتاج إلى إثبات .

والجامعة مرآة لدولها . وكثيراً ما تأبى بعض تلك الدول تنفيذ قرارات اتخذت فى مجلس الجامعة بموافقة ممثليها ، فتكون هى الملومة بذلك ، وليس على الأمانة العامة للجامعة نصيب من اللوم .

والجامعة فى عهد أمينها الحالى عبد الخالق حسونة – تبدى نشاطاً ملحوظاً ، وتظهر فى المجالات الدولية والعربية موجودية وفعالية أكثر من ذى قبل .

ومع ذلك كله ، ورغم قصور الجامعة عن الوصول إلى الهدف الذى أنشئت لأجله ، فقد كانت خطوة أولى نحو الوحدة المنشودة ، والأمل المرجوّ ، واستطاعت أن تخلق للعرب كياناً فى هيئة الأمم ، وأن تلفت إليهم أنظار الدنيا . وهذا ما يشفع بها ، وبقصورها – بعض الشىء .

مؤتمر أنشاص . . والمستهترون

كان اجتماع الملوك والرؤساء فى « مؤتمر أنشاص » الذى عقد فى القاهرة فى أواخر شهر آيار سنة ١٩٤٦ مظهراً من مظاهر الألفة والاتحاد ، بين الدول العربية ، التى يجمعها تاريخ واحد ، ومصير واحد ، وقومية واحدة ، ولغة واحدة ، ومصالح مشتركة متشابكة ، وآمال وآلام . والتى تفرّق بينها نزعات الحكام ، ونزَغات الاستعمار ، والسبل الملتوية التى يسير عليها العملاء والأذناب والمأجورون .

وبالرغم من أن « مؤتمر أنشاص » قد أصدر بياناً بأن الاتفاق قد تم على جميع وجهات النظر ، فإن الأهواء الشخصية قد لعبت الدور الرئيسى فيه . وكانت ثمة نيات مكتومة ، ومقاصد خفية ، لا يجرؤ أحد من الرؤساء على إظهارها ، خوفاً من الشعوب . ولكنها ظهرت فى « مأساة فلسطين » على أسوأ صورة وأحط خطة ، وألأمها ، وأدناها .

ومع ذلك فقد كان « مؤتمر أنشاص » تعبيراً صريحاً عن إرادة الشعوب العربية ، التى تريد أن تكون شعباً واحداً ، وبلداً واحداً ، ودولة واحدة ، ولم يكن « فاروق » يؤمن بهذا ، ولا يعمل له . وإنما كان يسعى لإيجاد الوسائل التى تلهى الشعب العربى فى مصر عن مساوئه ومباذله ، وصفاقته وحماقته ، وعبثه بالأنظمة والقوانين ، واستخفافه بقواعد الذوق والآداب ، واستهتاره بالقيم والأخلاق ، واستهانته بالرجال المسؤولين !

ولم يكن « عبد الله » و « عبد الإله » أقلّ من « فاروق » عبثاً واستهانة واستهتاراً ! وكان « شكرى القوتلى » بين هؤلاء جميعاً ، الرجل الذى يعمل عن عقيدة وإيمان ، ويجهد نفسه وجسمه ، لجمع الكلمة المتفرقة ، وتوحيد الخطى المبعثرة ، وإحلال الوئام محل الخصام . ورفع شأن الأمة العربية ، وتعزيز مكانتها ، والمحافظة على كرامتها .

وكان له فضل كبير بعقد مؤتمر أنشاص ، مثلما كان له فضل كبير بتحقيق فكرة « الجامعة العربية » ، وإبرازها إلى حيز الوجود ، وكان أول من استجاب لدعوة الواجب ، وأول من لبى نداءه . وكانت مصر هى السباقة إلى الاستجابة ، ومصر دائماً هى المعامة والمرشدة ، وحاضنة الفكرة العربية وناصرتها .

القوتلى يستفز الهمم لنصرة فلسطين

وكان الدافع الأساسىّ ، والسبب المباشر لرغبة القوتلى بعقد « مؤتمر أنشاص » ، ظهور المؤامرات الأمريكية ــ البريطانية لإقامة إسرائيل ، وتحقيق حلم الصهيونية العالمية فى فلسطين .

وكان تقرير لجنة التحقيق البريطانية ــ الأمريكية المشتركة الذي أذيع فى شهر نيسان سنة ١٩٤٦ ، برهاناً على نيات الاستعمار ومقاصد الصهيونية ، ونذير سوء فى فلسطين ، ودليلا صارخاً على أن وعود الحلفاء للعرب بعد الحرب العالمية الثانية صارت هباء ــ مثل وعودهم بعد الحرب العالمية الأولى . وكان لابدّ من مسعى جماعىّ لتفادي هذا الخطر والحيلولة دون وقوعه ــ وهو خطر داهم لا يتطلب التأجيل ولا التطويل ، وقد أرسل فخامة الرئيس القوتلى رسالة سرية إلى وزراء سورية المفوضين فى البلدان العربية ، يطلب منهم الاتصال بملوك ورؤساء الدول العربية ، وإطلاعهم على خطورة الموقف الدولىّ ، فيما يختص بفلسطين ، وعلى تقرير « لجنة التحقيق » ، والخطر الذى يكمن وراءه .

وهذا نص الرسالة :

« قابلوا جلالة الملك ــ أو سمو الوصى ، أو سمو الأمير ، أو فخامة الرئيس ــ واعرضوا عليه أننا نرى فى تقرير "لجنة التحقيق" ما يسىء إساءة كبرى إلى العرب فى حقوقهم ومصالحهم وأنه بمثابة تحد للعرب ، ورؤسائهم ، وحكوماتهم ، وشعوبهم الذين ارتبطوا فى مختلف تصريحاتهم ومواقفهم بالدفاع

عن عروبة فلسطين ، ومقاومة كل ما يهددها » .

« أعتقد أن من الواجب والمصلحة أن تقف الدول العربية موقفاً حازماً ، يثبت للعالم أنها جادة بالدفاع عن فلسطين ، وأن لهذا اليوم ما بعده . وإذا شعر العالم بترددنا ، أو توانينا ضاعت هيبة الأمة العربية ، واستهين بجامعتها ، واستضعفت دُوَلها فى كل مكان . لذلك رأيت أن يبادر ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية إلى توجيه نداء إلى ملك بريطانيا ، ورئيس وزرائها ، ورئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية . ويوجه مثله وزراء خارجية العرب إلى وزيرى خارجية بريطانيا وأمريكا ، وذلك بالفحوى ، أو المعنى الآتى :

« إن تقرير لجنة التحقيق فى فلسطين أثار عاصفة استياء ، وخيبة أمل فى جميع بلاد العرب ؛ لأنه تحيز جلىٌّ مع اليهود الذين استهدف إرضاءهم ، وتحقيق مطالبهم ، وغمطٌ لحق العرب الصريح ، ونواةٌ للقضاء عليهم فى وطن عزيز من أوطانهم ، وتحدٍّ لشعور المسلمين . وإن تنفيذه سيؤدى إلى اضطرابات دامية تهدد سلامة الأمن العالمى ، ويفضى إلى تعكير الصداقة الجامعة بين الشعوب العربية والشعوب الأنكلوساكسونية » .

« نناشدكم باسم الحق والسلام ، وباسم الصداقة ، ومقتضى المصلحة ، أن تحولوا دون تنفيذ تقرير اللجنة ، الذى يكون بمثابة كارثة عظمى ، وأن تعملوا على إنصاف العرب فى فلسطين ، بطمأنينتهم فى بلادهم ، وتمتعهم بحريتهم ضد الطغيان الصهيونى . وبذلك تثبت الدولتان الديموقراطيتان التزامهما بمبادئ الحق والعدل ، ومكافحتهما البغىَ والعدوان ، وتحافظان على الأمن والسلام » .

وكانت هذه الرسالة الخطيرة موضع دراسة جدية ، واهتمام بالغ ، من المحافل العربية المسؤولة .

وكان من أبرز نتائجها عقد « مؤتمر أنشاص » الذي ألمعنا إليه ، والذى أفضى إلى اتفاق كان من الممكن أن يعود على البلاد العربية بفوائد جلّى لوْ صفتْ النوايا ، وسمت النزعات . . .

ولكن عملاء الغرب ، فى العراق والأردن ، كانوا مسوقين لإحباط كل مسعى قومىّ ، وإنجاح كل مؤامرة مدبرة لخذلان العرب ، وقيام إسرائيل .

معركة سورية الكبرى

مرت فترة . . . وإذا بصوت الملك « عبد الله » يرتفع مطالباً بتحقيق « سورية الكبرى » ، وكانت هذه هى أمنيته ، وأمنية أسياده الإنكليز ، منذ زمن بعيد . . وقد حشد لدعوته الأنصار والأذناب ، وشغلت المحافل العربية بها زمناً طويلا .

ولم تكن الدعوة بريئةً ، ولا نزيهة ، ولا مجرد دعوة لتحقيق هدف وطنى ، أو قومىّ ، وإنما كان الاستعمار البريطانى يكمن وراءها . وكانت ثمناً « مقدماً » لتحقيق إسرائيل .

وكان أنصار بريطانيا وعملاؤها يبشرون لها ، ويحشدون لها الأقلام والدعاة ، ويقومون من جانبهم بالضغط على الجهات العربية التى كانت تعارض تلك الفكرة وتقاومها ، لحملها على تأييدها ومناصرتها ! وكان إثارة مشروع سورية الكبرى[1] فى ذلك التاريخ بالذات مقصوداً . إذ كانت تهدف بريطانيا إلى إيجاد انقسام فى الصف العربى يساعد على قيام دولة إسرائيل . إذ أنها كانت تدرك أن سورية ولبنان لن تقبلا به ، وستؤيدهما دول أخرى ، ومن هنا يحصل الانشقاق .

وكان موقف الحكومة البريطانية — ككل مواقفها — يكتنفه الغموض

(١) فى ٢٣ تشرين الثانى سنة ١٩٤٦ اتخذ مجلس نواب سورية قراراً يستنكرون فيه مشروع سورية الكبرى . وفى ٤ آب سنة ١٩٤٧ أصدر الملك عبد الله بيانه المعروف مطالباً بتحقيق « المشروع » . وفى ٢٧ آب سنة ١٩٤٧ اجتمع رئيسا جمهوريتى سورية ولبنان مع أركان حكومتيهما فى قصر بيت الدين وأصدرا بياناً مشتركاً برفض المشروع الاستعمارى . وفى ٣١ آب سنة ١٩٤٧ أصدرت المملكة العربية السعودية بيانها المعروف باستنكار المشروع . وفى ٤ أيلول سنة ١٩٤٧ أصدرت الحكومة المصرية بياناً باستنكار المشروع أيضاً . وهكذا تكون أكثر دول الجامعة العربية قد شجبت المشروع واستنكرته .

والتناقض والإبهام . فهى من جانب تضغط على سورية لعقد معاهدة مع فرنسا . وهى من جانب آخر تطلب من سورية أن توافق على قيام سورية الكبرى ، وأن تنضم إليها . وهو موقف فيه كل التناقض! ولا تستطيع غير العقلية الإنكليزية التى ابتدعته أن تجد له تفسيراً أو تعليلا . ورغبة بريطانية بإيجاد انقسام فى الصف العربى كان يبرر لها ذلك التناقض !

وحللت صحيفة فرنسية هذا التناقض فى موقف بريطانيا وخلصت إلى القول :

« إن بريطانيا يهمها موضوع سورية الكبرى فحسب ، فهى تضغط على سورية حتى تضطر إلى الإذعان والقبول بفكرة " سورية الكبرى " كملجأ لها ومنجاة من فرنسا . فكأنها تخير سورية بين بريطانيا وفرنسا . ومن يدرى ؟ فقد ترفض سورية الاختيار وترفض الدولتين » .

وهذا التحليل الفرنسى منطقى ومعقول ، وقد أيده الواقع منذ أن رفض « شكرى القوتلى » العبودية ، وأبى أن يذعن للتهديد ، وأن يختار . ووقف فى وجه بريطانيا عنيداً صلباً ، مثلما وقف فى وجه فرنسا ، وقبلهما تركيا .

وأثبتت الوطنية الصادقة أنها لا تعرف الحلول الوسطى ، ولا تعرف التساهل والخنوع .

وأبت القومية الأصيلة الاستسلام .

وفى ٢٥ شباط سنة ١٩٤٥ عقد مجلس العموم البريطانى جلسة أدلى فيها تشرشل — رئيس الوزارة البريطانية — ببيان عن مقابلته لرئيس الجمهورية السورية فى مصر ، وسعيه معه لعقد معاهدة مع فرنسا فقال :

« وأخيراً سرنا فى حديث طويل مع الرئيس " شكرى القوتلى " حيث عملنا كل ما فى وسعنا للاحتفاظ بموقف ودى تجاه فرنسا . ولتشجيع التفاوض فى إيجاد تسوية مناسبة مع الفرنسيين لا فيما يختص بسورية فحسب ، بل فيما يختص بلبنان أيضاً . وعلىّ أن أوضح أن موقف حكومة جلالته بخصوص سورية ولبنان ، وعلاقتهما بحلفائنا الفرنسيين ، محدّد " بتسوية عام ١٩٤١ عندما أعلن استقلال هذين البلدين من قبل بريطانيا وفرنسا . وفى ذلك الوقت وفى كل وقت بعده ،

أوضحت الحكومة البريطانية أنها لا ترغب فى أن تحل محل النفوذ الفرنسى فى هذين البلدين ؛ ونحن عازمون أيضاً على احترام هاتين الدولتين وأن نبذل أحسن مساعينا للمحافظة على المركز الخاص للعلاقات الثقافية والتاريخية التى أقامتها فرنسا منذ عهد طويل فى سورية » .

وحينما أذاعت وكالات الأنباء نص خطاب تشرشل فى مجلس العموم طلب الرئيس « شكرى القوتلى » دعوة مجلس النوب فوراً لعقد جلسة خاصة .

وفى ٢٦ شباط — أى فى اليوم التالى لخطاب تشرشل — انعقد مجلس النواب ، وألقى فخامة الرئيس القوتلى خطاباً سياسيًّا جامعاً استهله بقوله :

« أيها النواب الكرام :

إن الشعب السورى فى جده ودأبه ، يسعى لإدراك غايتين هما فى الحقيقة غاية واحدة : الاستقلال التام ، الذى يسمو به شأنه ، ويعلو ذكره . والتعاون بينه وبين سائر الأقطار العربية الذى يجعل منها وحدة متماسكة متآزرة ، وركناً من أركان السلم والتقدم فى الشرق كله . وقد أخذنا على عاتقنا أن نعمل فى نية صادقة ، وعقيدة راسخة على إبلاغ هذه البلاد أفضل ما ترجوه وتؤمله ، من الغاية التى تنشدها . وبذلنا أقصى ما نستطيع بذله لنبعثها بعثاً جديداً . وفى سبيل بلوغ هذه الغاية قمت برحلة قصيرة ، رافقتها تطورات دولية ، دعتنى لأن أتحدث إليكم ، وإلى الأمة التى اختارتكم فأجمل شؤوننا ، وأسمع صوتى للذين يهمهم أن تسود مبادئ الحق والعدل التى تضمن السلام فى هذه الربوع . وأنا متحمل — راضيا مختاراً — تبعاتى كلها ، الدستورية والوطنية والقومية » .

ثم قال :

« غير أن هذه البلاد التى تحرص على حريتها واستقلالها ، وتأبى كل محاولة يُراد من ورائها الانتقاص من سيادتها وسلطانها — تحرص فى الوقت نفسه على أن تقوم بينها وبين جميع الأمم المتحدة أحسن العلاقات ، وأوثق الصلات . وهذا ما نريده أن يكون بيننا وبين فرنسا أيضاً — حتى تزداد روابط الصداقة بيننا وبين الجميع . ولا شىء يعين على إدراك ذلك مثل التسليم بحقنا المطلق

فى شئوننا ، وعدم التعرض لسيادتنا أو المساس بمصالحنا » .

ثم قال : « أما موضوع ” سورية الكبرى “ — فقد جاهرنا ونجاهر برأينا :

إننا نرحب ترحيباً لا محاباة فيه — وهو أن تكون سورية الكبرى جمهورية ، عاصمتها مدينة دمشق . وأن لا يتسرب إليها الطغيان الصهيونى . على أن يتم ذلك باختيار الجمهورية السورية الكبري . وأما لبنان فإننا نحترم استقلاله وكيانه وفاقاً لما جاء فى ” بروتكول الإسكندرية “ .

« وأريد أن أصرح بهذه المناسبة أيضاً أننا فى نهضتنا القومية وتمسكنا بسيادتنا وحريتنا ، لا نتأثر فى حال من الأحوال بأى تدخل أجنبى ، لأن هذه الأمة التى بذلت ما بذلت فى سبيل الحصول على حريتها واستقلالها — من تضحيات عظيمة ، أثناء نضالها الطويل ، لا تعرف تدخلا خارجيًّا فى عملها الطويل . وهى لا تبرح سائرة نحو غايتها القومية العليا — غير متأثرة إلا بما تستوحيه من أمانيها ورغباتها » .

ثم قال :

« إن الاستقلال الذى لم نحرزه بالهوينا ، والذى أيدتنا بالاعتراف به جميع الأمم المتحدة الحرة ، سنبذل كل ما لدينا من قوة حتى يظل بعيداً عن مراقى الأطماع . والمحافظة على الاستقلال تتطلب عناءً لا يقلّ عن العناء الذى بذل فى سبيل إدراكه . وتستلزم منا جهداً لا ينقطع سواء أكان فى بنياننا الداخلى ، وتثبيت أوضاعه ، واستكمال سلطانه ، أم فى سياستنا العربية التى تنمو وتثمر يوماً بعد يوم ، أم فى علاقاتنا الدولية التى تزداد توثقاً وارتباطاً مع جميع الدول القريبة والبعيدة » .

وهكذا كان جوابه لخطاب تشرشل قويًّا ، مفحماً ، بليغاً .

الاستعمار الفرنسى . . يقاوم

وأيقنت فرنسا أن الرياح تجرى ضدها ، وأن الأحداث تسير فى غير صالحها واتجاهها ، وأن سورية فى ظل زعامة القوتلى ، وتحت سيطرته ، سائرة

حتماً للتحرر النهائى منها ، والتخلص من كل علاقة لها معها .

وتحرر سورية سوف يفضى إلى تحرر لبنان . ومعنى ذلك القضاء على نفوذ فرنسا فى الشرق الأوسط كله .

وطار الجنرال « ديغول » إلى واشنطن ، يستعدى الرئيس روزفلت على سورية . وكان بين الرئيس روزفلت والرئيس القوتلى مراسلات عدة حول أمانى العرب ومصالحهم . وكان روزفلت قد قطع على نفسه عهداً بهذه الرسائل ، أن يعمل على مساعدة الشعوب العربية لتقرير مصيرها ، وتحقيق استقلالها .

ورفض « روزفلت » معاضدة « ديغول » ضد شعب مسالم ينزع إلى نيل حريته واستقلاله[1] .

وأخفقت محاولات ديغول فى أمريكا .

وبعد الفشل الذى مُنيتْ به فرنسا فى لندن وواشنطن ، لم تُجْدها المحاولات الكثيرة لإشراك بريطانيـــا وأمريكا معها فى النزاع ضد سورية ، ذلك بأن بريطانيا قد بذلت جهوداً جبارةً بلا جدوى لحمل سورية على التعاقد مع فرنسا . كما أن الرئيس الأمريكى قد رفض من جانبه التدخل لإقناع سورية (أو « إرغامها » على حد تعبير ديغول !) للاتفاق مع فرنسا على أساس إبقاء نفوذها ، وضمان مركز ممتاز لها .

على أثر ذلك كله ــ وبعد أنْ استقر ديغول فى باريس عقب تشريده عنها بضع سنين ــ قررت فرنسا متابعة أسلوبها القديم ، والسير فى سياستها التقليدية ، سياسة النكول عن كل اتفاق ، والاستئثار بالسيادة المطلقة فى كل بلد تحتله ، أو يكون لها « مرقد عنزة » فيه !

وبدلا من أن تسحب جيشها من سورية ولبنان ــ شرعت بإنزال جيوش جديدة فى البلدين . ولم تمنعها الاحتجاجات المتواصلة عن إتمام خطتها المرسومة بدقة وكتمان ، وترتيب .

---

(١) أرسل « غاندى » إلى أرملة الرئيس روزفلت بعد وفاة زوجها هذه البرقية : « أهنئك بموت رجل السلام ، قبل أن يشهد مصرع السلام » .

وفى ١٧ آيار سنة ١٩٤٥ زار الجنرال « بينيه » المندوب الفرنسى قصر رئاسة الجمهورية ، وقابل فخامة الرئيس القوتلى ، وعرض عليه مطالب فرنسا النهائية من سورية ، وهى تتلخص بعقد معاهدة عسكرية وسياسية واقتصادية[1] .

وكانت مطالبته شفهية لا يحاسب عليها ، ولا يؤخذُ بها .

فطلب منه الرئيس القوتلى تقديم مذكرة تتضمن هذه المطالب حتى يصارَ إلى دراستها وإعطاء الجواب عليها .

وكان فى طلب القوتلى ذكاء وبراعة ، وفيه منتهى الحنكة السياسية ، وبعد النظر فقد شعر أن حماقة الفرنسيين تبيتُ أمراً ، وتخفى شيئاً ، وأراد أن يطلع العالم على ما يبيتونه ويخفونه ، وعلى مطامعهم ، وسوء نواياهم .

وفى اليوم الثانى تقدم الجنرال بينيه بمذكرة ضافية تتضمن : رغبة الحكومة الفرنسية فى أن تؤمن فيما يتصل بها من صيانة المصالح الجوهرية التى تحتفظ بها فرنسا فى سورية ولبنان ، وأن هذه المصالح هى على ثلاثة أنواع : ثقافية واقتصادية واستراتيجية » .

ويحدد الأوضاع الإستراتيجية بأنها : « تتضمن قواعد تمكن من ضمان طرق مواصلات فرنسا ، وممتلكاتها فيما وراء البحار » .

ويختتم هذه المذكرة الخطيرة بقوله : « وعندما يتم التفاهم على هذه النقاط توافق الحكومة الفرنسية على نقل القطعات الخاصة إلى الدولتين ، مع الاحتفاظ بإبقاء هذه الجيوش تحت القيادة العليا الفرنسية ، ما دامت الظروف لا تسمح بممارسة القيادة الوطنية لسلطتها ممارسةً تامة » ! !

سورية ولبنان تواجهان الخطر متضامنتين

بعد هذه « المذكرة » الصريحة لم يعدْ هناك مجال لتأويل وتفسير ، أو استنتاج واستقراء . فهى واضحة كل الوضوح . إنها تعنى عودةَ الاحتلال

---

(١) جرت مناقشة حول سورية فى إحدى جلسات المجلس النيابى الفرنسى ، وقد أجاب جورج لويغ رئيس الوزارة يومئذ أحد النواب قائلا : « نحن فى سورية . وسنبقى فيها إلى الأبد » ! !

بشكل سافر ومباشر . وجعل سورية مستعمرة لفرنسا تتحكم بها وبمصالحها كما تشاء وتريد !

واتصل فخامة « القوتلى » بزميله فخامة « الشيخ بشارة الخوري » رئيس الجمهورية اللبنانية ، واجتمع أركان الحكومتين فى شتورا . واتفقا على مقاومة هذه الفكرة الاستعمارية بكل قواهما وإمكانياتهما . ثم أصدرا بياناً صريحاً استنكرا فيه مطالب فرنسا ، ومراميها الاستعمارية المنافية لروح « هيئة الأمم » وشرعتها ومبادئها ؛ وشجبا هذه المطالب بقوة وحزم ؛ وأعلنا عن رفضهما إياها رفضاً باتّاً ، واستعدادهما لمقاومة فرنسا ومطامعها حتى النهاية[1] .

وبذلت الدبلوماسية السورية قصارى جهدها ، وقامت بنشاط واسع لإطلاع دُوَل العالم كله على موقف فرنسا الذى يخلق جوّاً من التوتر والنزاع فى الشرق الأوسط .

وألمت بالرئيس القوتلى بعد عودته من لبنان عوارضُ صحية قاسية ، جعلت حياته محفوفةً بالخطر ، من كثرة الإجهاد النفسى والجسمى الذى قام به خلال هذه المدة الطويلة .

ومرت ليال حالكة السواد عاش فيها السوريون على فراش القلق والأرق ، خوفاً على حياة رئيسهم وزعيمهم .

ورغم الخطر الذى كان يتهدده فى كل لحظة . ورغم إصرار الأطباء على امتناعه عن مقابلة أحد ، والبحث فى أى موضوع سياسى ، فقد كان يعالج القضية على فراش المرض ؛ ويشرف على الحالة بنفسه إشرافاً مستمراً .

وكانت عناية الله تحوطه وترعاه .

---

(١) حينما كان الشيخ بشارة الخورى رئيساً لجمهورية لبنان كان الصفاء والوئام بين سورية ولبنان على أتمه. وكانت حكومتا البلدين تتشاوران معاً فى كل قضية ومعضلة دولية تعرض لهما، أو لإحداهما وقد حاول كميل شمعون أن يطيح بروح التآخى والولاء بين البلدين الشقيقين، وأن يقود لبنان إلى عزلة ليست فى صالحه ، ولا فى صالح القضية العربية ، وإنما هى فى صالح الاستعمار وحده . ولكن وعى الشعب اللبنانى قد أحبط محاولاته ، وقضى عليها . وسيعود لبنان فى عهد رئيسه الجديد « اللواء شهاب» إلى علاقاته التقليدية والروحية مع سورية .

وعناية الله ترعى كل من يعمل فى سبيل بلاده ، ويسعى لخير شعبه .
عناية الله لا تتخلى عن مؤمن صابر ، وحاكم عادل .
وشملته هذه العناية .

وكان مطلوباً منه ، ومقدّراً عليه ، أن ينهض بأعباء جسام فى تلك الفترة الرهيبة العصيبة فى تاريخ بلاده ، ومستقبلها .

ونهض بتلك الأعباء الجسام وأدى الرّسالة ، ووفّى الأمانة .

اللهم . . لقد وفى بما عاهد الشعب عليه . فكان نعم القائد المخلص الأمين .

بوادر الغدر

وظهر من تحركات الفرنسيين ، واستشاراتهم ، ما يدل على قرب إقدامهم على عمل طائش . وبدأ جنودهم يتحرشون بالأهالين فى كلّ مكان ؛ وتوالت تعدّياتهم وحوادثهم الاستفزازية ؛ ولم تجد الاحتجاجات المتوالية ؛ ولا المذكرات الشديدة اللهجة ؛ فقد كانت فرنسا تهيئ خطة جهنمية محكمة، وتستعد لها فى الوقت المناسب .

وضبط السوريون أعصابهم ، حتى لا يكون ثمة مجال لفرنسا الناقمة الحاقدة .

وكان ضبط النفس إزاء تلك « الاستفزازات » التى تمس الكرامة والسيادة ، أمراً صعبَ الاحتمال عسيراً . ولكن القادة السوريين أرادوا أن يظل الاعتداء من جانب فرنسا وحدها ، حتى يظل الرأيُ العام العالمى إلى جانب سورية ، وحتى يفوتوا عليها فرصة الادعاء أنها كانت مدافعة لا مهاجمة . وأيقنوا أن الاصطدام واقعٌ لا محالة ، ولكن يجب أن يبدأ من فرنسا ، حتى تبرزَ على حقيقتها : معتديةً ، مستعمرةً ، ظالمة .

وفى العالم « هيئة أمم » ستكون الكلمة الأخيرة لها . وهكذا كان .

وأذاع السفاح « أوليفا روجيه » بلاغاً سريّاً على الجيش الفرنسىّ — فى ٢٢ آيار سنة ١٩٤٥ — ضمنه التعليمات الآتية :

« ١ — يقضى واجب فرنسا العسكرى بإبادة جميع عناصر الشعب التى تريد إخراج فرنسا المنتصرة من هذه البلاد . . . »

« ٢ — يجب احتلال دوائر الحكومة السورية ، ومؤسساتها الثقافية » .

« ٣ — يجب منع الاتصال مع الدول العربية المجاورة » .

« ٤ — يجب تجريد جميع أفراد الشعب من الآلات الجارحة فى مدة ٢٤ ساعة ، ويجب أن تدار البلاد من قبل حاكم عسكرى ، وتفتح المحاكم العسكرية فوراً » .

ويتضمن هذا البلاغ تعليمات ضافية عن كيفية التنفيذ والتطبيق . وكيفية احتلال المدن ، والمنشآت الثقافية ، ودور الحكومة ، ومجلس النواب ، وبيوت المسؤولين ، وإطلاق النار على كل من يشتبه به من المارّة . و و إلخ » ! ! !

وفى ٢٦ آيار وجه الجنرال « روجيه » مذكرة سرية إلى الفرنسيين ناشدهم فيها التريث والصبر حتى تحين ساعة الحساب . وختم تلك المذكرة الخطيرة بقوله :

« اطلبوا من الفرنسيين أن يصبروا بضعة أيام . وقد لا يتجاوز صبرهم بضع ساعات ! وعند ذلك نشرع بالمجزرة الكبرى . فليكن كل واحد مستعداً . وسنصفى الحساب كله بضربة واحدة » ! !

وقد حصلت الحكومة السورية على صورة من هذه « المذكرة » ووزعتها على ممثلى الدول الأجنبية .

وكان « الجنرال روجيه » قد نقل الرعايا الفرنسيين — الشيوخ والنساء والأطفال — إلى مستشفى المزة ، حيث ترابط قوات فرنسية ؛ وإلى الثكنات العسكرية فى سائر المدن السورية ، إبعاداً لها عن مناطق الخطر ، ومحافظة عليها من القنابل التى كانت تستهدف المدينة كلها ، والتى لم تكن تفرق بين بيت مأهول ، وبين غير مأهول .

ولم تسجل حادثة واحدة ضد أحد من الرعايا الفرنسيين المدنيين ، إذ ليس من شيم العربى الاعتداء على النسوة والأطفال . ولا من خلائقه التعرض لمن لا يريد التعرض لهم بأذى . ولم يكن عداؤنا موجهاً إلى الشعب الفرنسى — كشعب

وكأمة — وإنما كان عداؤنا ، وما يزال ، موجهاً إلى الفئة المستعمرة المجرمة من أبنائه المستبدين .

فليست كل الشعوب ظالمة ومعتدية ، وإنما الحكومات الاستعمارية خاصة هى التى تكون ظالمة ومعتدية — وكثيراً ما تساقُ الشعوب ضد رغبتها إلى معركة لا مصلحة لها فيها ، ولا قدرة لها على دفعها . وأخطر شىء فى حياة الشعوب أن يتولى أمرها من لا يقيم وزناً لإرادتها ، ولا يأبه لرأيها ومشيئتها ، وإنما يسوقها فى الطريق التى تزينها له أهواؤه ومطامعه ومراميه .

ومع هذا فنحن لا نبرئ الشعب الفرنسى من تبعة المجزرة التى حصلت ومسؤولياتها ، ولا من تصرفات حكامه ، واستهانتهم بالمبادئ المشروعة لحقوق الإنسان . فقد كان فى الشعب الفرنسى من يستسيغ الظلم ويدعمه !! ويوجد له الأسباب والمبررات ! ! وكان بين أبنائه قلة تنادى برفع الظلم ، ومنع التعديات ، وفسح المجال أمام الشعوب لكى تقرر مصيرها بنفسها ، وتحكم ذاتها بذاتها ، وأن يرتفع عن كاهلها كل نير ، وعن بلادها كل طغيان .

فنحن إذْ نُنحى باللائمة على فرنسا ، ونوجه إليها النقد اللاذع ، والاتهام الشديد ، إنما نعنى تلك الفئة المجرمة التى كانت تحكم ، والفئات التى كانت تمد الحاكم بتأييدها وهو يستبد ويظلم ، ويجور ويأثم ، ونقصر القول عليها وحدها ، ونستثنى من رفعوا أصواتهم إلى جانب العرب منددين بالأعمال الفرنسية الوحشية فى الجزائر العربية .

فى كل بلد قد يوجد شرفاء أحرار ، ونحن فى حديثنا عن الدول الأجنبية المعتدية لا نقصد الشرفاء الأحرار من أبنائها ، وإن كانوا قلة بين الكثرة المتعطشة للدم ، والمتأصلة فيها غريزة الاستعمار والإجرام ؛ وإنما نقصد من أبنائها كل طاغ وباغ ، وكل ظالم سفاك .

القوتلى يقود المعركة الحاسمة

أطل يوم ٢٩ آيار سنة ١٩٤٥ ذلك اليوم العصيب المشؤوم ، وفى أصيله رُوعت دمشق الآمنة ، وأفاقت من طمأنينتها على دوى المدافع ، وقذف القنابل ، وأزيز الطائرات .

أفاقت على الانفجارات المروعة ، والجدران المتهدمة ، والأحجار المتناثرة ، والحرائق المشتعلة ، وأصوات الاستغاثة ، من هنا وهناك . .

إنها الحرب . .

الحرب الوحشية المدمرة التى لا تُشفق ، ولا ترحم ، ولا تفرق بين أعزل وحامل سلاح ، ولا بين موقع عسكرى ، وبيت هادئ فيه امرأة وأطفال وشيخ مقعد عليل !!

وللحرب أنظمة وأعراف ، وقواعدُ وقوانين .

ولكنها فى نظر فرنسا « حرب » لا تراعى فيها أنظمة ، ولا تحترم قوانين .

إنها حرب بربرية همجية هدفها الأول الانتقام ، وغايتها السيطرة والغزو .

وهى لا تتمسك بقاعدة ، ولا تتقيد بأعراف . وشن الفرنسيون حملات طائشة على سائر المدن السورية ، يفتكون بالعزل ، ويروِّعون الآمنين .

وشهدت البلاد معارك عنيفة دامية بين شعب أعزلَ سلاحه الإيمان ، وجيش غادر ماكر شعارُه الهمجية والوحشية ، وسلاحه سلاح الحرب العالمية الثانية .

واستبسل الشعبُ الأعزل بالمقاومة فى كل مكان . واستهان بالمخاطر والموت ، فى سبيل عقيدته وقضيته ، واستقلاله وحريته .

واختلط الحابل بالنابل . وشعر الفرنسيون بأن الزمام قد أفلت من أيديهم ، أو أنه موشك على الإفلات .

وتزداد نفوسهم الضارية وحشية ، وحب انتقام .

ويهاجمون مجلس النواب ، ويفتكون بالعشرات من شرطه وحراسه .

ولم يسجل تاريخ المآسى أفظعَ ، ولا آلمَ ، من المأساة المنكرة التى حلت فى حراس مجلس النواب ! فقد ذبحهم السنغال ذبح النعاج ! ثم مثلوا بهم تمثيلا مروّعاً فظيعاً ! ودفنوا الجرحى أحياء مع الأموات ، حتى لا يشهد أحد على فظائع تلك المأساة !

ولكن . . . عين الله ترى .

وازداد الفرنسيون ضراوةً بالهجوم ، ووحشية بالفتك والتهديم .

والحرب سجال .

وخيل للمراقبين أن القوات الفرنسية بالغة مناها ، وأن شكرى القوتلى لابد أن يسلِّم أو أن يستسلم .

والموقف كله متوقف عليه ، عليه وحده . والرجل مريض ، والمرض يوحى دائماً بالتواكل والتخاذل ، والعجز والهوان .

ولكن شكرى القوتلى رجل لا كالرجال . .

إن له عزيمة قدت من حديد .

إنه فى حالة المرض مثله فى حالة الصحة : قوة ، ورجولة ، ونشاطاً ، وسلامة تفكير ، وحسنَ تدبير ، وإرادة لا تقهر ، وعزيمة لا تلين . وجاء من يطلب منه التسليم ، حرصاً على مدينته من « التهديم » ، وعلى شعبه من الهلاك . وأنذر بأن المدينة ستهدَّم بكاملها إذا لم يذعن لإرادة فرنسا ، ويرفع الأعلام البيض .

وكانت القنابل تتساقط هنا وهناك ، وتتهدم معها السقوف وتسقط الجدران .

وكان الرصاص يخترق نوافذَ حجرته نفسها ، فيتحطم الزجاج ، ويتناثر من حوله على الأرض ؛ وتحاول أسرته أن تنقل سريره إلى غرفة لا تصل إليها الشظايا ، ولا يبلغها الرصاص ، ولكنه يرفضُ وهو يصيح بهم : « كيف أفر منه ، والشعب كله معرَّض له ؟ » .

إنه الإيمان . إنها العزيمة . إنه الرجل الذى لا يضعف أمام الشدائد ، ولا يهن أمام الخطوب .

إن كلمة واحدةً من شكرى القوتلى تقضى بوقف النار ، وإنهاء المأساة .

وفتح التاريخ صحائفه متسائلا : أإحجامٌ هنالك أم إقدام ؟ وثباتٌ أم هزيمة ؟

وكانت الحرية بين شفتى رجل ، وكان الاستقلال وقفاً على كلمة واحدة منه .

لو كان غيره مكانه ، والأنقاض فوق الأنقاض ، والأشلاء على الأشلاء ، والسماء تمطر بارودًا ودخانًا ولهيبًا لقال : « سلَّمتُ » – كما قال « بيتان » للألمان – لكى يتفادى المزيد من الضرر ، ويتحاشى تفاقم الخطر . ولوَجَدَ بين الناس من يوجد له بعض العذر .

ولكن « شكرى القوتلى » يختلف عن الكثيرين من الناس إنه واحد من القلائل الذين يجود بهم الدهر ، فى فترات متقطعة نادرة .

وليس من السهل على من حمل عبء الأمانة أن يسلمها فى يُسْر طائعاً أو مختاراً .

وأيقن شكرى القوتلى أنه إذا قال : « سلَّمتُ » – فستسلم بيوتٌ من التهديم وتنجو نفوس من الموت .

ولكن جدار الاستقلال سيتهدم ، وعزة شعب عريق ستموت .

ولم يكن فى نظره موجب للتردد ، ولا مجال للتأمل الطويل .

فالقضية واضحة ، والطريق بيِّن مرسوم .

والاستقلال لا يضاهيه شىء ولا يعدله ، وكل خسارة فى سبيله تهون .

والحرية أثمن من الدم الذى يراق ، والنفوس التى تزهق ، والأموال التى تفقد ، والبناء الذى يتهدم .

والشعب لا تهمه الخسارة والتضحيات ، وإنما يهمه الفوز والنصر ، وينظر إلى المستقبل الحر . وصرخ القوتلى بملء صوته :

« لن نسلم أبداً . سوف ننتصر . أو نموت . . . »

وبينما كان اللهيب يشتعل ويمتد ، والمعارك تدور رحاها فى كل مكان :

معارك الحياة والموت ، والعزة والذلة ، والعبودية والاستقلال ، والاصطدام العنيف بين القوى المستعمرة الجائرة ، والقوى الشعبية الصابرة ، بينما كان ذلك مستمراً فى عنفه وقسوته ، وبأسه وشدته ، وفى تلك الساعات الرهيبة الحاسمة ، التى يتوقف عليها مصير شعب ، ومستقبل بلاد ، يرتفع صوت جهورىّ ، يجلجل فى سماء البلد ، ويدوى فى أرجائه ، وكأنه ناقوس خطر ينبه الغافلين ويوقظ النائمين .

إنه صوت « شكرى القوتلى » ، صوت الأجيال والتاريخ ، يزمجر كالعاصفة ، ويهدر كالرعد . يهيب بالشعب أن يصبر على الكفاح ، وأن ينتصر أو يموت .

إنه لا حياة بدون حرّية . ولا حياة مع الاستعمار .

ويطلب من الناس المحيطين به أن يحملوا سريره إلى « ساحة الشهداء » ، ليقاسمَ الشعبَ مصيرَه ، ويؤدى قسطه من الجهاد .

قسطه من الجهاد ؟ . . الله أكبر . .

وهل ثمة جهاد أسمى من جهاد الرجل الذى حكم عليه بالإعدام مرات ؟

فما ضعفت عزيمته ، ولا لانت شكيمته ، ولا اضطرب فؤاده ، ولا فترت حماسته .

هل ثمة جهاد أسمى من جهاد الرجل – الذى دفعته مروءته ووطنيته على الانتحار فى سبيل إخوان له مخلصين ، ورفاق له مهددين ؟ أفلم يقدمْ على التضحية بنفسه لينقذهم ، وعلى الموت ليوفر لهم الحياة ؟

ولكن الرجل بطل ، والبطولة قد تشبعُ من المجد – ولكنها لا تشبعُ من الجهاد . وقد ترتوى من العظمة والخلود ، ولكنها لا ترتوى من ميادين الكفاح والنضال .

إن البطولةَ أن تموتَ من الظَّما ... ليس البطولةُ أن تعبَّ الماءَ

وبطولة « شكرى القوتلى » حديث تتناقله الألسنة ، وترويه العجائز للصبية الصغار .

بطولة « شكرى القوتلى » إحدى الأساطير ، فيها روعة الأسطورة وغرابتها ،

وتزويقها وأناقتها ، وحوادثها العجيبة الرتيبة .

وقد أبت عليه بطولته أن يظل على فراشه بينما أبناء شعبه يمطرون بالقنابل ، ويردون بالرصاص . وأحب ّ أن يشاركهم فى مصيرهم . ولكن ّ الرجل مريض . ومرضه ذو خطورة بالغة ، وقد تضاعفت خطورته بعد إحجامه عن الأخذ برأى الأطباء ، والإخلاد إلى الراحة والهدوء .

وبعضهم أشار بوجوب نقله إلى مكان بعيد عن المعركة فلا يصل إليه صداها ، ولا يطلع على شىء من أحداثها وأنبائها .

ولكن المعركة كانت فى كل مكان .

ولكنه زعيم ُ الشعب وقائده قبل أن يكون رئيساً لدولته الفتية الناهضة .

والزعيم لا يتخلى عن شعبه وقت المحنة ، وحين الشدة ، وفى أصعب الأوقات ، وأحلك الظروف .

الزعيم الحق — هو الذى يعرف واجبات الزعامة ومستلزماتها .

وقليل من الناس من يعرف واجبات الزعامة كما عرفها « شكرى القوتلى » وقد ّرها وسبرها .

فهو زعيم بحق ّ ، وبقدرة ، ومؤهلات جمة ، وبنفس كريمة كبيرة ، خيرة نبيلة ، مشبعة بالجرأة والتضحية ، طافحة بأنبل المثل وأعلاها ، وأسماها وأغلاها ، وأجملها وأكملها ، وأحسنها وأفضلها .

وأصر الزعيم المريض على أن ْ ينقل على فراشه إلى « ساحة المرجة » ، وأن يجتمع الشعب كله هناك فإما نصر ٌ سريع ، أو موت سريع [1] .

ودو ّت إرادته فى أنحاء البلد دوى العاصفة ، فكان لها فعل السحر فى

---

(١) بينما كانت المعركة على أشدها ، جاء وزير بريطانيا المفوض فى مصفحة لمقابلة الرئيس ، ولما استقبله طلب منه باسم بريطانيا الموافقة على عقد معاهدة ثقافية مع فرنسا ، تحفظ لها كرامتها ، وحينئذ توقف إطلاق النار . ورفض الرئيس هذا الطلب رفضاً باتا. وقال لوزير بريطانيا : « إن فرنسا تحاول أن تتمسك ولو بخيط فى هذه البلاد . والله لو قطعت يمينى لما وقعت معها على أى اتفاقية ، ولما قبلت معها أى اتفاق » .

النفوس ، وكان لها صدى عميق . وكان من صداها أن استبسل المواطنون فى القتال أيما استبسال ، وأقدموا على الموت غير هيابين ولا وجلين .

وبدأ الظفر يتجه إلى جانب الوطنيين ، والمعركة الرهيبة تتكشف عن فوز ساحق للقوى الشعبية على قوى الاستعمار .

وكان للضباط السوريين الشرفاء ، وجنودهم المخلصين ، الذين فروا من الجيش الفرنسى بسلاحهم وعتادهم ، فضل كبير فى تطور المعركة لمصلحة بلادهم ، كما أن بعضهم كان له موقف مخجل مزر إلى جانب القوى الفرنسية الغاشمة .

واضطربت بريطانيا ، وقد هالها أن تنتصر القوات السورية على القوات الفرنسية ، وأن تنتزع استقلالها بإمكانياتها وحدها ، وبجهودها وقواها .

وأحبت أن تفو ّت النصر على سورية ، وأن تبعد عار الهزيمة والفشل عن حليفتها فرنسا . وأن تستغل تدخلها للدعاية لنفسها فيقول الناس إنها هى التى منعت العدوان وأوقفت النزاع .

وكانت الحرب العالمية ما تزال مشتعلة ً فى الشرق والغرب .

وللشرق الأوسط أهميته فى مواصلات الحلفاء ، ومراكز تموينهم ، وليس من مصلحة الحلفاء أن يقع عدوان على أى بلد من بلدان الشرق الأوسط ، لأنه قد يؤدى إلى اندلاع النار فى كل أجزائه المتحفزة المتوثبة ، والمتطلعة إلى حال أفضل ، ومستقبل أجمل .

لهذه الأسباب كلها قررت بريطانيا التدخل لإيقاف العدوان وفض النزاع .

وأوعز تشرشل إلى الجيش البريطانى بالتدخل ، فزحف الجنرال « باجيت » بمصفحاته الضخمة على سورية .

وهكذا صار فى البلاد جيشان أجنبيان عدوان : فرنسى وإنكليزى .

وفل ّ الحديد الحديد .

وعادت القوات الفرنسية إلى ثكناتها مخذولة مدحورة ، وأصبحت فى داخلها أشبه ما تكون بالأسيرة .

وانتصرت سورية . وانتصر زعيمها ورئيسها شكرى القوتلى على قوى البغى والعدوان . وصدق شاعر الشام شفيق جبرى :

سيدَ الشام قد ثنيت عن الشا م عناناً ما كان قبلك يُثْنَى
أثقل الغل جيدَها ففككت الغلَّ عنها وقد أمضَّ وعنَّى

معركة سورية فى مجلس الأمن

بعد أن دخلت القوات الإنكليزية أرض سورية — بقصد إيقاف النزاع بينها وبين فرنسا — بقيت فيها . . ولم يبدُ عليها أنها راغبةٌ بالانسحاب .

واتصل بالحكومة السورية أن بريطانيا وفرنسا قد عقدتا اتفاقاً فى ١٣ كانون الأول سنة ١٩٤٥ بشأن جيوشهما فى سورية . ورأت الحكومة السورية فى ذلك الاتفاق مساساً بالسيادة الوطنية ، وطعناً فى صميم الاستقلال . واتضحت نوايا الدولتين ، ومحاولتهما البقاء فى سورية . وكان لابد من رفع القضية إلى مجلس الأمن ، الذى كان من مهامه : « النظر فى وجود جيوش أجنبية فى بلاد ما ، بصفة تمس حرية الشعوب ، وتخل بالسلامة العامة » .

وتقدمت الحكومة السورية فى ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٥ بمذكرة احتجاج شديدة اللهجة على الاتفاق البريطانى — الفرنسى .

وتقدمت الحكومتان السورية واللبنانية فى ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٥ بشكوى إلى مجلس الأمن تطلبان انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية فوراً من أراضيهما .

وكان فارس الخورى مندوب سورية فى مجلس الأمن قد استطاع ببلاغته وفصاحته، وقوّة حجته ومنطقه ، أن يفحم مندوب فرنسا ، وأن يستثير بدفاعه الإعجاب والتقدير ، وبعد مرافعات طويلة ، ومحاولات كثيرة ، من مندوبى بريطانيا وفرنسا ، اتخذ مجلس الأمن قراراً فى مصلحة سورية ولبنان . وتم جلاء

الجيوش الأجنبية عن سورية فى ١٧ نيسان سنة ١٩٤٦ ، وعن لبنان فى نهاية سنة ١٩٤٦ .

وسجل الشاعر المغترب ، جورج صيدح ، هذه المناسبة التاريخية ، بقصيدة من عيون الشعر العربى ، جاء فيها :

رَحَلَ « الضَّيف » مثقلاً بالمعاصى يركبُ العارَ والشنارَ مَطِيه
ودَّعتْه السيوفُ — إلا بقايا منعتها من الرحيل المنيه
زَغردى يا حرائرَ الشامِ هذا مهرجانٌ لأختك الحرّيه

ومن النوادر الطريفة التى رُويت عن جلسة « مجلس الأمن » يومئذ ، بعد المرافعة البليغة التى أدلى بها فارس الخورى ، والمدعومة بالحجج والبراهين . ومرافعة منافسه مندوب فرنسا التى بدت تجاهها هزيلة ركيكة ، أن مندوب « الاتحاد السوفياتى » سأل بتهكم جاراً له : من الذى يحكم الثانى ؟ — أهذا الشيخ — أم ذلك الشاب ؟ والشيخ فارس الخورى مندوب سورية ، والشاب مندوب فرنسا . ولما أجابه بأن « الشاب » يحكم « الشيخ » ابتسم المندوب الروسىّ ، وقال : « لو كان الأمر يعود للمنطق والعلم ، لكان هذا الشيخ هو الذى يجب أن يحكم ، ولكنَّ منطق الاستعمار يختلف عن منطق الواقع والعلم » .

وبقى فارس الخورى يمثل سورية فى هيئة الأمم ، منذ تأسيسها إلى أن خسر العرب معركة فلسطين ؛ فعاد إلى دمشق ؛ وكان يُطلب إليه العودة لترؤس وفد بلاده فى أعظم مؤسسة دولية فيعتذر ، ولسان حاله يقول :

ولوْ أن قومى أنطقَتنى سيوفُهم نطقتُ ، ولكنَّ السيوفَ أجرَّتِ

بطل الجلاء فى عيد الجلاء

وعاشت سورية بعد الجلاء قوية فتية ، راغبة فى البناء والتشييد ، مادةً يدها لكل مسالم ، عابسة فى وجه كل طاغية وظالم .

وصار يوم الجلاء — ١٧ نيسان — عيداً قومياً لسورية الفتية ، ولزعيمها المجاهد « شكرى القوتلى » ، تحتفل به كلَّ عام ، وتتبارى للتغنى به وبأمجاده

أفصح الألسنة وأقوى الأقلام . ولولا بسالة « شكرى القوتلى وجرأته ، وثباته وتضحيته ، لمـــا كان هذا العيد ؛ ومن العقوق أن نُنكر فضل الأفراد على الأحداث ، وأن نغمطهم حقهم ، ونبخل عليهم ببعض ما يستأهلون من اعتراف بالفضل ، وتقدير للجميل .

إن كثيراً من المعارك ربحها قائد بحكمته ، ومحاربٌ بجرأته ، ولم يضنّ عليه التاريخ بالخلود . ولم يحجمْ أبناء أمته عن الاعتراف بالحقيقة وإقرارها ، حتى المباهاة بها ، لتكون درساً لغيره وعظة ، ونواةً صالحةً للمستقبل ، وأمثولةً خالدةً للأجيال .

وبهذا تُعرف النفوس الكبيرة ، والشعوب الحرة ، والمبادئُ والقيم والأخلاق

واحتفلت دمشق بعيد الجلاء الأول ، احتفالاً مهيباً رهيباً اشتركت فيه وفود الدول العربية ، ومفارز من جيوشها النظامية . وبلغت الاحتفالات حدّاً من الروعة لا تسمو إليه روعة . وطغت أمائر البشر والغبطة على كلّ شيء . ولبست البلاد أبهى حُللها وأجمل أزيائها . وخرج الناس — جميع الناس — إلى الشوارع والساحات ، ينعمون بالحرية التى فقدوها مئات السنين ، وبالاستقلال الذى ضحوا من أجله بآلاف الضحايا ، وقدّموا على مذبحه ألوف القرابين ، واستخفّ الطرب بالناس ، فكانوا يرقصون ويهزجون طوال الليل ، وغمرتهم نشوة الظفر ، فكان ليلهم نهاراً ، ونهارهم انتصاراً ، وكانت تلك الليالى الثلاث أجمل ليالى العمر ، وأحلى أيام الدهر .

ومن شرفة قصر الحكومة — فى دمشق — ألقى بطل الجلاء « شكرى القوتلى » خطاباً قوميًّا جامعاً ، يفيض بعاطفة صادقة ، ويطفح بشعور كريم ، فيه نبضات قلب ، وومضات فكر . فيه نقاء الضمير والوجدان ، وسلامة الحس والإيمان . فيه فيض الوطنية ، وعبق القومية . فيه شذى دماء الشهداء ، وأريج الأضاحى والفداء . فيه نفحةٌ من القداسة ، وألقٌ من الكياسة ، ونكهةٌ من الطهر ، وخميلة من الزهر والعطر .

فيه شيءٌ من خُلق شكرى القوتلى ، ومن نفسه الخيرة النيّرة .

فيه صورة خالدة للرجل الخالد الذى تحدث عن غيره ، ولم يتحدّث عن نفسه . لم يذكر بطولته وتضحيته ، ولاجهاده وجهوده ، وإنما ذكر بطولات الآخرين وتضحياتهم ، وجهودهم وجهادهم ، وترك للتاريخ أن يُنصفه ، وللمنصفين أن يذكروه .

وتلك شيمة من شيم الكرام ، وخلق من أخلاق الخالدين .

وسيظل الناس يذكرون فضل « شكرى القوتلى » وأياديه ما دام بين الناس من يقدّر الفضل ، ولا يُنكر الجميل . وهذا بعض ما جاء فى ذلك الخطاب التاريخىّ البليغ :

« بنى وطنى :

هذا يوم تشرق فيه شمس الحرية ساطعة على وطنكم ، فلا يخفق فيه إلا علمكم ولا تعلو إلا رايتكم . هذا يوم الحق تدوّى فيه كلمته ، ويوم الاستقلال تتجلى عزّته ، يوم يرى الباطل فيه كيف تدول دولته ، وكيف تضمحل جولته . هذا يوم النصر المبين ، والفتح المبينّ .

بنى وطنى :

أرى لزاما علىّ فى هذا اليوم التاريخىّ الأغرّ ، أن أتوجه ، والإكبار يتملكنى ، والخشوع يملأُ جوانب نفسى بالتحية والتمجيد إلى أرواح الشهداء الأبرار ، الخالدين الأطهار ، الذين غرسوا شجرة الاستقلال بيدهم ، وسقوها بكرم دمهم ، فغدت فى هذا الوقت المبارك ، وارفةَ الظلال أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء . أولئك الذين ماتوا ليحيا وطنهم ، وقضوا لتبقى أمتهم ، هم أصحاب الفضل الأوّل فى هذا النصر المحجّل ، وما يوم الاستقلال هذا إلا عيد الفداء ومهرجان الشهداء . فسلام عليهم فى عليين ، وتمجيداً لذكراهم فى الخالدين .

بنى وطنى :

أهنئ اليوم هذه الأمة ، شباناً وشيباً . هلالا وصليباً ، أهنئُ

ذلك الفلاح ، دعاه داعي الوطن فلباه ؛ هجر مزرعته ، وتنكّب بندقيته ، وراح يذود عن أمته ، ويثأر لكرامته .

أهنئُ العاملَ الكادحَ ، يجعل من نفسه لوطنه الفداء . وهو فيما يصيبه من السعداء . أهنئُ ذلك الطالبَ تتأجج روحه حماسة ، ويغلى مرجله إباءً .

أهنئُ الأستاذ يبعث العزة القومية ، والشاعر يهز الروح الوطنية ، والكاتب ينافح عن الحق ، ويشدّد العزائم .

أهنئُ ذلك التاجر طالما غادر متجره — احتجاجاً على ظلم صارخ ، ودفعاً لعدوان نازل .

أهنئُ رجل الأحياء تثيره النخوة ، ويستجيب للحمية ، وأبارك للسيدة تؤدى واجبها جهداً وثباتاً وصبراً .

وأحيي بقية السيوف الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ فذاقوا حياة النفي والتشريد ، وهبطوا السجون كراماً أعزة ، وبذلوا الأنفس والأموال والثمرات ، وصبروا وصابروا ؛ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين .

أحييهم جميعاً في شخص الشهيد المجهول يعمل لوطنه صامتاً أريحيًّا ، ويلقى وجه ربه راضياً مرضيًّا .

بني وطني :

أتى على الأمة حين طويل من الدهر . رانَ عليها فيه سبات عميق ، فقدت فيه سيادتها ، وأضاعت مكانتها ، وجار عليها وتنافس في التحكم بها ، أجانب عنها ، حتى أوشكت أن تفقد وجودها ، وكادت تنسى عربيتها ، وتذوب في غيرها ، وتغدو حديثاً يُروى ، وتاريخاً غابراً يُحكى .

ولكن أصالة هذه الأمة ، وما أودعه الله فيها من أسرار البقاء . وما في نبتها من مناعة ضد الفناء ، جعل من هذه الحقبة الطويلة إغفاءة لا موتاً ، وسباتاً لا فناءً ، فما نفخ في صور القوميات ، حتى رأينا القومية العربية ، قبل الحرب العالمية الأولى ، تهب من رقادها ، وتشق طريقها ، ولقد ولدت حركتها على

صورة مطالبة بالإصلاح ، وغضبة للغة العربية — ثم نمت ، وترعرعت ، حتى استوت ، نشدانا لاستقلال العرب ، وجهاداً في سبيله ، واستشهاداً من أجله » .

ثم قال :

« تتابعت مواكب الشهداء ، وخضب كل شبر من أديم هذا الوطن ، بالزكيّ الطاهر من الدماء . وكانت ثورات لا يكاد يخمد أوار الواحدة ، حتى تتلظى نار الأخرى . ولم يكن تراجع — إلا أعقبه إقدام ؛ ولا فر إلا تلاه كرّ . . . »

« سلوا هذه الغوطة الفيحاء عن معاركها الشعواء . سلوا جبل العرب الأشمّ تنطلق منه الثورة الكبرى ، يقودها سلطان الأطرش . سلوا ربوع الشام ، وجبل الزاوية ، عن ثورة هنانو . وجبال العلويين عن ثورة الشيخ صالح العلي . سلوا سهول حمص ، ووادى حماه ، وتل كلخ ، والمزرعة ، وحوران . سلوا راشيا والقلمون . سلوا هذه البيوت التي دُمرت والمزارع التي أحرقت ، والمتاجر التي نهبت ، سلوا المنافي والسجون ، سلوا دماء الشهداء أيّ ثمن دفعناه لاستقلالنا ، وأيّ جهد بذلناه لبلوغ أهدافنا . أجل سلوها — هل ونينا عن دفع الثمن ؟ وهل قصرنا في أداء المهر ؟ وهل خططنا في سفر الجهاد والتضحيات . إلا صفحات باهرات نيرات ، يشع منها نور الحق المبين ، ويتعالى منها تكبير المجاهدين المؤمنين ؟ » .

« كان الغاصب كلما آنس من هذه الأمة اندفاعاً في الذياد عن حقها ، وكلما أخفق في إدخال الفزع إلى قلوبها ، والوهن إلى عزائمها ، تظاهر باللين تارة ، وبالجنوح إلى الحقّ أخرى. ثم لا يلبث أن يعود إلى أصل فطرته ، ويخيس بكلمته . رأيناه يدعو إلى جمعية تأسيسية ، حتى إذا رآها تجهر بإرادة الأمة — أغلقها وقضى عليها . . رأيناه يعترف للأمة بحقّ وضع دستورها ، حتى إذا ما أشرعته — جاء ينقص بنوده ، ويعطل أحكامه . رأيناه يدعو إلى الانتخاب الحرّ ، ثم يُملى إرادته ، ويفرض سلطانه ، ثم رأيناه سنة ١٩٣٦ بعد ذلك الإضراب المستطيل ، يتظاهر بالصداقة ، ويعاهد على الاعتراف بالحقّ ،

ثم لا يلبث حتى يُثير الفتن ، ويؤرّث العداوات ، ويروّج المفاسد ، غير خافر بذمته ، ولا واف بعهده . ومن فضل الله على هذه الأمة أنها لم تكن فى أثناء ذلك كله ترضى بالدون ، ولم تكن تؤخذ بالخداع ؛ ولم تسجل على نفسها أنها ارتضت عن كامل حقها بديلا . وقد عجز الاستعمار عن حملها على قبول وضع يثلم كرامتها ، والارتباط بعقد يمس عزتها » .

« ولقد صبرنا حتى انقلبت النقمة نعمة ، وحفر الاستعمار بيده لحده . ومن حالكات تلك الليالى السوداء بزغ فجر الحرية الزهراء (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

« لقد انجلت الغمة ، عن هذه الأمة ، وصدق الله وعده ، ونصر جنده ، وهزم الطغيان وحده » .

ثم قال :

« إن هذا الاستقلال الذى ظفرنا به — بفضل جهود الأمة ، وقوة عزمها ، واتحادها هو أمانة الشهداء فى أعناقنا ، لنورثه أبناءنا سليماً قويا منيعاً . فعلينا ألا نفرّط فيه ، وأن نتفانى دونه ، وأن نحيطه بسياج من دمائنا وأرواحنا ، فالاستقلال ملاكه التضحية ، وقوامه الفداء .

إننا نطوى اليوم صفحة الجهاد فى سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانته ، وجعله واسطة لإسعاد الأمة ورقيها . وقد تكون صيانة الاستقلال أشقّ من الظفر به ، وليس السبيل إذاً بهين ، ولا بيسير . وما هو أمام إرادة الأمة بالأمر العسير . فلندرعْ إذن بالعزم الماضى ، والإرادة المتينة » .

ثم قال :

« وأما فلسطين العزيزة — الجزء الجنوبى من ديار الشام — فقضيتها قضيتنا وخلاصها من خطر الصهيونية ركن أساسى من أركان سياستنا ؛ وفى إنقاذها ضمان لسياسة بلادنا ، ومستقبل أبنائنا » .

وختم خطابه بقوله :

« . . . إننا نشكر لله توفيقه ، وللشعب ثباته ، وصدق بلائه ، ونقطعه على

أنفسنا عهداً أكيداً أن نحافظ على استقلالنا ، وأن نحمى حمى حريتنا . وأن نبذل أقصى الجهد لإعلاء كلمة أمتنا ، ولرفع شأن وطننا ، والذود عن رايتنا بدمائنا ومهجنا . والله على ما نقول شهيد . وهو بالنصر المبين كفيل » .

من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

ما كاد الجلاءُ يتمّ ، وما كادت أعياده تنتهى ، حتى عكف الرئيس ووزراؤه على الإصلاح .

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بعد افتتاحه مكة : « لقد انتقلنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وكان أصعب ما يقف فى طريق الحكم ، ويعترض سبيله ، رواسب من مُخلفات الاستعمار ، وبقايا من عهود الانتداب والاحتلال . وحقد دفين يغمر نفوس هؤلاء ، ويصوّر لهم الاستقلال جحيما لا يطاق ، والحرية تعاسةً وبلاءً ، وذلا وشقاءً .

وما يزال للأجنبىّ — وإن جلا — أوكار وأعشاش ، ودعائم وركائز ، تقوم عليها طائفية وإقليميّة ، وعنصريّة وعشائرية ، وأنانيات صفيقة ، فردية ، لاحد لها ، ولا شبيه لطغيانها واستئثارها .

ولقد حاول الرئيس « القوتلى » فى زياراته المتعاقبة ، وجولاته المتعدّدة ، وخطبه الكثيرة ، وأحاديثه الجمة ، أن يزيل ما علق فى النفوس المريضة من صدأ ، وما ران عليها من ذلة وهوان ، وخوف وخنوع .

وكان يخاطب الناس بقلبه قبل لسانه ، ويقنعهم بإيمانه قبل بيانه . وكم تجشم مشقة فى أسفاره ، وعانى صعوبة فى رحلاته . وكم أشرف عليه الخطر ، أو أشرف على الخطر ، لا يبالى بما يتهدده ، ولا يخشى المرض الذى يتوعده .

وكان الإصلاح رائده ، وجمع الشمل مقصده .

ولا نجد قولا يقال فى صدد رحلاته وجولاته — أبلغ من التعليق القيم فى

كتاب « ١٧ آب » الذى أصدرته « هيئة من الكتاب والمؤرخين » ، وفيه فصل عن رحلات الرئيس جاء فيه :

« للرحلة فى حياة فخامة الرئيس القوتلى منزلة ممتازة ، ومقام مفضل . ولابدّ أن تكون قد اتصلت به اتصال الدم والطبع ، أو أنها بعض ما أنشئت عليه تربيته كشاب مجاهد ما عرف الاستقرار ، أبداً شوقه إلى الأسفار ، وأبداً تطوّح به الأقدار ، فى عهود الظلم والبغى ، فهو مرتحل مغترب . وهو رائد مبشر . وهو مشرد ومنفىّ . وهو محكوم تطارده السلطات » .

« وعندما شاءت الأقدار أن تنعقد على يده الكريمة ألوية النصر ، ويكون أول منشئ لجمهورية الاستقلال والسيادة ، وأول بان لنهضة وطنية جبارة ، كان لا بدّ للرئيس الأول من التنقل والترحال . تجميعاً لأواصر الوطن الواحد ، الذى طالما ملكت أجزاءه يد المستعمر ، وتأليفاً لقلوب الناس ، التى طالما حاولت التفريق بينهـــا دسائس المحتل ومكائده ، وكان كلما سافر ، أو زار مدينة أو قرية ، شعر بأنه أحكم عروة ، وأوثق صلة ، وآلف جمعاً ، وكان هذا أول خطوات الرجل المنقذ نحو تمكين إيمان الاستقلال فى كل قلب ، وتركيز شعور الوحدة الوطنية فى كل نفس » .

« كانت النفوس مضطربة ، والقلوب واجفة ، والثقة بالحاكم منهارة ، لأن رُسل الأجنبىّ وموظفيه ، عندما يحلون فى محلّ كان التهديد والوعيد يمشيان فى ركابهم ، ليفرضوا على الناس السطوة ، ويزرعوا فى صدورهم الاستكانة والذل . فجاء الرئيس يحمل إلى القوم الثقة والطمأنينة . ويضع أسسها بين الحاكم والمحكوم ، ولا ننسى أن روح السلبية العنيفة ، التى تميّز بها الشعب السورى ، لطول ما قاوم المستعمر ، ولقى من حكمه كل جور وعنت ، إنما كانت بحاجة إلى الأيدى الرفيقة العاطفة تخفف من غلواء العنف ، وتوجّه القلوب نحو الثقة بعدالة الحكم ، إذا كان وطنيّاً . وبعطف الحاكم إذا كان من صميم الأهل ، وكان لابد له من صبر وسعة صدر ، وعطف وحلم ، ورحابة حكم ، بل لا بد لذلك من الحاكم الذى زخر قلبه بحب بلاده ، حبّاً يدنيه

من العبادة والتقديس ، ويرفعه فوق مستوى الصغائر ، والأشياء الدنيا ليقوى على تحمل الأعباء الأولى من إقامة حكم ، وتشييد ثقة ، ونشر طمأنينة — وهى أعباء أشق من تبعات الجهاد والنضال » .

« ولقد أتيح للبلاد فى عهد رئاستها الاستقلالية الأولى ذلك الرجل الذى أعد أحسن إعداد لانتشال الوطن من مهاوى التشاؤم ، والسلبية ، وما يرافق ذلك من قلق وقطيعة ، وكره للحاكم ، ويأس وخمول . وانصرف للمهمة السامية بكل جوارحه وقواه . بل فوق ما تتحمله طاقته ، وتقوى عليه إمكانيات إنسان . ولطالما قيل — والرئيس فى أوج صحته ونشاطه : إنّ الرئيس يكرس نفسه ويجهد قواه ، ويسرف فى بذل الجهد ، ومصاحبة العناء ، حرسه الله للجمهورية والوطن » .

« ويذكر مرافقو فخامته إثر عودته من رحلته الأولى للشمال التى أتينا على بعض وصفها ، أنه عاد محملا موظفيه أحمالا من العرائض والرسائل ، انصرف إلى دراستها ، والتحقيق فيها . وكان يقول : « أنصفوا الناس ما استطعتم ، وحققوا من الإصلاح ، وأزيلوا من الشكاوى ما أمكن الدولة أن تفعل . لا أريد أن أخيب رجاءَ الشعب فى عهد الاستقلال والحرية ، ولطالما ترقب هذا العهد ، وسهرت عيونه ليرقب مطلع الفجر » .

كان الرئيس يريد أن يزيل بعام ما حملته البلاد من أوزار أعوام .

كان يريد أن ينتقم للحاضر من كل آثام الماضى . وإنه ليشعر أن قُوى الأمة يجب أن تتجه إلى المستقبل الكبير ، ولا بدّ لذلك من التخلص من ربقات الماضى » .

وكتب نجيب الريس — نائب دمشق يومئذ — مقالا افتتاحيّاً فى جريدة « القبس » تحت عنوان : « أول رئيس دولة يزور مناطق البلاد الدانية والقاصية » جاء فيه :

« لقد سمع شكرى القوتلى الوطنى المضطهد والزعيم المناضل الشىء الكثير من مدح الأمة وإخلاصها ، بين سمع الحكومات والسلطات التى كان يناضلها ويهاجمها فى سبيل حق البلاد وحريتها . فإذا سمع اليوم مثل هذا الثناء ،

وشهد مثل ذلك الإخلاص ، من هذه الأمة الأمينة لعهده المؤيدة لحكمه ، وهو رئيس بلادها الشرعى ، وزعيمها الشعبى ، والحاكم الأول فيها ، وصاحب السلطان الأعلى فى شؤونها . إذا سمع هذا وشهده ، فليس ذلك أمراً عجيباً لأنه دفع ثمنه غالياً من ماله وصحته وحريته : دفعه بسخاء وإخلاص ورجولة ، فلم يمن على الوطن ولا على أحد من أبنائه بما قدمه فى سبيل حقوقه وكرامته وتحريره » .

« ولعل الذين يتصلون بالزعيم الرئيس أكثر من غيرهم ، ويرون أى جهد قوى يبذل وأى عمل مرهق يعمل ، وأى مال خاص حلال يبذل فى هذه الرئاسة ، لعل هؤلاء لا يعدون الحقيقة إذا أحنوا رؤوسهم إعجاباً بهذه النفس الكبيرة بل بهذه الشخصية الفذة . التى لا يقضى صاحبها ساعة من وقته فى غير سبيل بلاده وفى غير التفكير بمصلحة سكانها » .

« وهذه الرحلة الشاقة لم تكن إلا جزءاً من هذا الجهد الذى يبذله فى هذا المنصب الخطير الذى عرف كيف يملؤه بكفاية ومزايا منقطعة النظير » .

« فى سبيلِ اللهِ نفسٌ أوتيت   أنعمَ الدنيا ـ فلم تَنْسَ تُقاها »
« لا الحِجى لما تناهى غرَّها   بالمقاديرِ ولا الحكمُ زهاها »

المعارضة النيابية وانقسام الصفوف

وحفلت هذه الفترة بإصلاحات اجتماعية واقتصادية وعمرانية واسعة . كما أنها حفلت بالمعارضة النيابية تزداد حدة وشدة ، وتستثمر أخطاء الحكومة للتنديد بها والنيل منها .

وكانت المعارضة محقة ما فى ذلك شك ولا ريب . ولكن الهدم سهل وميسور ، والبناء صعب وشاق .

وانتهت مدة مجلس النواب . وكان أول مجلس أكمل مدته الدستورية ، وذلك برهان على تشبع الرئيس « القوتلى » بالحياة الديمقراطية السليمة ، وإيمانه العميق بها .

واستعدت البلاد لانتخابات جديدة .

ولم يكن فى البلاد أحزاب سياسية ، ولا فى المجلس كتل نيابية ، وإنما كانت فى المدن والريف تكتلات فردية ، توجهها مصالح خاصة وتفرضها اعتبارات محلية .

وهيأ الرئيس « القوتلى » الجو الهادئ النزيه للانتخابات ؛ واعتمد على حكومته لتأمينها حرة حيادية مثالية .

ولم يكن له ما أراد .

فقد لعبت الأطماع فى رؤوس بعض السياسيين ـ وحتى بعض الموظفين ـ فعبثوا بتوجيهات فخامته ، وخرجوا على إرادته ومشيئته .

فهم وحدهم المسؤولون . وهم وحدهم الملومون .

وزرعت فى البلاد بزرة من الشك ، وسرت فى أرجائها موجة من الظنون .

والرئيس القوتلى بعيد عن كل ما حصل ، وبرىء من كل ما حدث . وكنا نلجأ إليه شاكين ، كلما رأينا انحرافاً عن الحق ، وطعناً فى صميم القانون ، فنجد فيه الرجل العظيم ، ذا القلب الرحيم ، والخلق الكريم .

ولكنه رئيس غير مسؤول ، والمسؤولون أشخاص آخرون يجب أن يتحملوا وزر أعمالهم ونتائج انحرافهم . وهذا ما يقتضيه واجب العدالة ، وتحديد المسؤوليات .

ونجح من المعارضة عدد من النواب اللامعين ، كانوا بالنسبة إلى الأكثرية التى تؤيد الحكومة أقلية ضئيلة . ولكنها كانت أقلية مثقفة ذكية ، مسلحة بالعلم والجرأة والحماسة . وكان لها فى مجلس النواب مكان بارز ووجود مرموق .

ولم تكن المعارضة معارضة لشخص القوتلى نفسه ، فقد كان موضع احترام الجميع ، وثقتهم وتقديرهم . وما يزال بنظرهم المنقذ والزعيم ، والرجل الذى يعود إليه فصل الخطاب فى كل مشكلة ومعضلة . وليس أدل على ذلك من إجماع الكلمة عليه ، وإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية بالإجماع . وهذا أنصع برهان على أن زعامته كانت شاملة ، يقربها الجميع ويحترمونها ، ويدينون لها بالطاعة والولاء .

وقويت المعارضة فى وجه الحكومة ، واشتدت . ووصلت إلى أقصى درجات العنف .

وشهدت البلاد انقساماً مروعاً استغله دعاة السوء أيما استغلال . ونفذت منه الغايات والمآرب لتحقيق ما تريد .

وكانت البلدان العربية تتمخض عن أحداث جسام ، ويعصف فى داخلها بركان الثورة ، وتضطرب حياتها السياسية والاجتماعية اضطراباً عنيفاً يُنذر بأقسى احتمال وأسوأ مصير .

تجديد الرئاسة للقوتلى

لعبت الدعاية الأجنبية دوراً هاما فى نشر الأنباء الملفقة ، والأخبار المضللة ،وزرع الشكوك فى نفوس الناس . وحاولت تلك الدعايات المغرضة أن تنفذ إلى مكانة زعيم الشعب فى قلوب أبناء الشعب ، فتنال من قدسيتها وتسىء إلى حرمتها .

واشتد حنق الدول المستعمرة على شكرى القوتلى ، وحقدها عليه حتى بلغ الذروة ، وزاد فى حنق فرنسا أن الرئيس لم يقبل اتفاقية « النقد » التى قبلها لبنان . وزاد فى حنق بريطانيا وأمريكا أن الرئيس رفض اتفاقيتى «التابلاين» و « الآى بى سى » لتمديد أنابيب البترول عبر سورية . ثم حنقت عليه الدول الثلاث لأنه رفض توقيع الهدنة مع إسرائيل . فحشدت كل إمكانيات دعايتها لمحاربته ومقاومته . ووجدت فى « تعديل الدستور » ، والسعى لإعادة انتخابه مرة ثانية لرئاسة الجمهورية ، وسيلة لخلق جو محموم من الدعاية المنكرة ضده.

ومن المؤسف أن يكون بعض المواطنين قد ذهبوا ضحية التغرير والتضليل ، والتهويش والافتراء ، فاندفع بعضهم ، عن حسن نية ، وراء تلك الدسائس التى حاولت دول « الغرب » أن توجدها حول شكرى القوتلى ، لأنه وقف سداً منيعاً فى وجه مطامعها وتوسعها ، ولأنه حال بينها وبين التسلل إلى الوطن الذى لم يبق فيه نفوذاً لأجنبى .

وسرعان ما عرف الناس مقصد الدعايات السامة التى كان ينفثها أذناب الاستعمار ، وأقلامه وأبواقه ، فضربوا بها عرض الحائط ، وأعرضوا عنها ، وعن الذين يروجونها ويلفقونها .

وآمن الشعب بأن من حق « بطل الجلاء» أن يستمر فى الحكم فترة أطول ، بعد الجلاء . وأنه لا يوجد أصلح منه ، ولا أكفأ ، لقيادة السفينة فى وجه العواصف والأنواء . فاتجهت إليه الأنظار من جديد . وسار على ألسنة الناس : لا رئيس إلا شكرى القوتلى .

واتفقت الكلمة على تجديد رئاسته ، حتى تستفيد البلاد من حكمته وحنكته ، وتجاربه وخبرته ، وتوجيهاته السديدة ، وآرائه المفيدة . وأعيد انتخاب فخامته رئيساً للجمهورية فى منتصف سنة ١٩٤٨ .

معركة فلسطين . . وحقائقها

وبرزت إلى الميدان الدولى قضية تقسيم فلسطين . وحشدت الصهيونية العالمية كل ما تملكه من مال وسلطة ونفوذ : ووسعت نطاق دعايتها ودسائسها حتى شملت العالم كله . وجندت كل قواها ، قوى البغى والظلم والعدوان ، لتحقيق حلم إسرائيل . . وإقامة دولة للصوص إلى جانب « المسجد الأقصى » وقبر « السيد المسيح » !

وكانت الدنيا كلها ميداناً للنزاع — وحتى فى الأمكنة التى لا يُوجد فيها عرب ، ولا دعاة للعرب ، كانت الصهيونية العالمية تبذل قصارى جهدها لكسب الأنصار والمؤيدين ، والتأثير فى ضمائر الشرفاء الأحرار فى الدنيا .

وكانت المعركة وحيدة الطرف . . فقد كان الميدان كله لليهود ! ! ولم يكن للعرب فيه نصيب ! واليهود منتشرون فى سائر أنحاء المعمورة ، وعندهم من وسائل السيطرة على الدعاية ما يعجز عن مجاراتهم فيه أقوى الدول وأحذقها وأغناها .

ومع ذلك فقد كان بإمكان العرب أن يعملوا شيئاً أكثر من الشىء التافه

المتواضع الذى عملوه ، بالنسبة إلى مركزهم ومكانتهم وإمكانياتهم . .

ولكنهم كانوا يقومون بالدعاية فى بلادهم ، لأبناء بلادهم . ويحجمون عن الواجبات الكثيرة فى بلاد الناس.

ولو جند العرب كل إمكانياتهم من أجل فلسطين ، لما كانت مأساة فلسطين .

إن للغرب مصالحَ كثيرةً فى البلاد العربية ، لا يستطيع التخلىَ عنها ، ولا الاستغناء عن آبار النفط ، والأسواق العربية ، بيعاً وشراءً . ولو شعر الغرب أن مصالحه مهددة ، وأن العرب ــ كلهم ــ جادون لا هازلون ، وأنهم سيدخلون المعركة بكل إمكانياتهم وقواهم ، وبكل ما تعوزه من جهد وسلاح ، لفكروا بالنتائج الوخيمة التى تنجم عن تأييدهم لإسرائيل . . .

أجل . . لو أن بريطانيا وفرنسا وأمريكا كانت تخشى على شركاتها البترولية فى البلاد العربية من التأميم ، وعلى بضائعها من المقاطعة ، وعلى سياستها من المقاومة ، لما أقدمت على مساعدة الصهيونية المجرمة ، ولما كانت مأساة فلسطين .

حدّثنا سياسى عربىّ أنه كان ، فى هيئة الأمم ، يطلب من مندوب كولومبيا التصويت إلى جانب العرب . فقال له المندوب : «لماذا تسألوننا الوقوف إلى جانبكم وقضيتكم فى يدكم »؟ وسأله العربى : « كيف ذلك ؟ » فأجابه المندوب الكولومبى : « لو أن الدول العربية المنتجة للبترول ، أوقفت "الضخ" يوماً واحداً ، وهددت بقطعه نهائياً عن الغرب ، لتراجعت دول الغرب ولوقفت كلها إلى جانبكم . بل إن ذلك الرجل وحده ــ وأشار إلى أحد المندوبين العرب ــ لو ذهب إلى "البيت الأبيض" ، وهدد بقطع البترول عن أمريكا ، وكان جاداً بتهديده ، لانقلبت سياسة أمريكا رأساً على عقب ، ولوقفت منكم محايدة إذا لم تقف مؤيدة . إن القضية فى أيديكم وحدكم ؛ وأنتم تدركون هذه الحقيقة فلماذا تتجاهلونها ؟ » .

وأفحِمَ السياسى العربى . وأحنى رأسه خجلاً وذلاًّ(١) .

ومع ذلك فإن اليهود لم يربحوا معركة التقسيم إلا بخمسة أصوات فقط ، ولو بذل العرب جهوداً مبكّرة ، ووسعوا نطاق دعايتهم مع الدول الأعضاء فى « هيئة الأمم » ، وأرسلوا رسلهم يكسبون ودها ، ويشرحون قضيتهم العادلة فى عواصمها ــ كما فعل اليهود بالدعوة لقضيتهم الباطلة ــ لما أعيي العرب

---

(١) وقصة المندوبين العرب فى هيئة الأمم قصة محزنة مبكية . لم يكونوا يجتمعون مع بعضهم ، بل كانوا مبعثرين فى أنحاء متفرقة من مدينة نيويورك . كانت أوقاتهم لهم ، « لخصوصياتهم » وليست لقضية فلسطين !

وترك الميدان وحده لليهود !

حدثنى صديق عربى كان يحضر اجتماعاً للجنة السياسية فى هيئة الأمم سنة ١٩٥١ . وقال لى : وقف ممثلو بعض الدول الآسيوية يطلبون من مندوبى العرب تأجيل قضية اللاجئين – التى كان مقرراً عرضها فى تلك الجلسة – إلى جلسة الغد . والموافقة على عرض قضية « الملوّنين » – وهى قضية مزمنة تتعلق بالأشخاص الذين ينحدرون من أصل هندى ويسكنون جنوبى أفريقيا – ورفض المندوبون العرب بالإجماع . وصاحوا بصوت واحد : أبداً . إن ألوفاً من اللاجئين يموتون من اليوم إلى الغد .

وعرض الرئيس قضية اللاجئين . وطلب من مندوبى الدول العربية أن يتكلموا فى موضوعهم . وخيل إلى صديقى المستمع العربى أن المندوبين العرب سيملأون الجمعية العمومية حججاً وأرقاماً ، وبلاغة وفصاحة ، بعد ما رآه من تشبثهم بعرض القضية فى تلك الجلسة . ولكن أحداً منهم لم يطلب الكلام ! وعاود الرئيس الطلب إلى المندوبين العرب أن يسجلوا أسماءهم للكلام ولكن أحداً منهم لم يفعل ! وأطرق الجميع رؤوسهم ! ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة – لأن أحداً منهم لم يكن مستعدا للكلام !

وطلب مندوبو آسيا عرض قضية « الملونين » ، وقالوا إنهم مستعدون لبحثها الآن . وعرضت هذه القضية فتدفق مندوبو آسيا بلاغة وفصاحة ومنطقاً .

قال لى صديق هذا . وأتيت فى الجلسة الثانية ، وكانت تعرض قضية اللاجئين ، واستمعت إلى خطبة « آبا إيبان » مندوب إسرائيل واستمعت إلى خطب بعض المندوبين العرب ؛ وكان الفارق كبيراً بين مندوب درس موضوعه – وهو موضوع الباطل – دراسة كافية ، وبين مندوبين أهملوا موضوعهم – وهو موضوع الحق – فجاءت دراستهم هزيلة ركيكة . حتى قام ظفر الله خان وبخارى ، يفحمان حجج مندوب إسرائيل ، ويهدمانها . ولولا ظفر الله خان لضاعت قضية اللاجئين فى تلك الجلسة .

ولولا البنديت نهرو صاحبة الفضل الأول بتشكيل الجبهة الآسيوية الإفريقية ، لما كان للعرب شمل مجتمع فى هيئة الأمم . وللرئيس عبد الناصر يد طولى ، وفضل كبير ، فى جمع شمل الدول الأسيوية الإفريقية ، وإنجاح مؤتمر « باندونج » كما سيجىء .

الحصول على أصوات خمس دول مؤيدة ، أو مستنكفة ، ولفشلت مناورة الغرب ومؤامرتهم ، ولما كانت مأساة فلسطين . . .

ولكن بالوقت الذى كان فيه « شاريت » وزير خارجية إسرائيل ، ورئيس وزرائها فيما بعد ، يطوف بنفسه كل عواصم الدول الأعضاء فى هيئة الأمم ، من شرقية وغربية ، ما عدا الدول العربية طبعاً ، كان رؤساء بعض الحكومات العربية ووزراء خارجيتها يكتفون بالتصريحات والخطب ، والتهديد « الكلامى » الذى لا ينطوى على أىّ أثر للتهديد « الجدى » .

وبالوقت الذى كان فيه « ترومن » رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، يتصل هاتفياً برؤساء الدول يستعديهم على العرب ، ويستحثهم على التصويت إلى جانب اليهود ، ويلاحق رئيس جمهورية الفيليبين بالهاتف من مكان إلى مكان ، وهو يقوم بجولة فى جزر بلاده ، فراراً من ملاحقة ترومن ، وضغطه ، وإلحاحه — كما يقول فى مذكراته — كان « فاروق » الطاغية يقضى لياليه الحمراءَ فى أندية المقامرة ، فلا ينام إلا حين يُفيق الناس ، ولا يُفيق إلا حين ينام الناس ! ! وكان عبد الإله يقضى لياليه بين زجاجات الخمر والمومسات ! ! وعمه « عبد الله » فى لعبة الشطرنج ، والتحدث عن أيام صباه ، وصداقته لبعض رجال الإنكليز !

وكان شكرى القوتلى يتحرق غيظاً وألماً ، وهو يتمثل أمامه المأساة الرهيبة ، فى أبشع صورها ، وأقسى نتائجها . ويصرخ بأولئك الغافلين السادرين ، فلا يعقلون ، ولا يرعوون . وإذا اضطروا إلى تلبية النداء خوفاً من غضبة الشعوب ونقمتها ، فاجتمعوا وتباحثوا واتخذوا مقررات سرية أقسموا على كتمانها اليمين والحرب أسرار . وسرية الخطط العسكرية أقوى أسلحة الجيش وأفتكها . فلا ينام الخونة إلا بعد أن يطلعوا بريطانيا على كلّ ما اتخذ من مقررات ! ! وهكذا تكون أذن بريطانيا فى كلّ مجلس ، وعينها على كل قرار !

ومن مآسى إهمال العرب لقضية فلسطين ، إهمالهم أمريكا الجنوبية والاستفادة من مركز المغتربين فيها . ولو أنهم اهتموا بدول أمريكا اللاتينية منذ

صدور قرار اللجنة بالتقسيم ، وعرفوا كيف يستثمرون نفوذَ الجالية العربية فيها ، وكيف يستفيدون من إمكانيات المغتربين ونشاطهم وحماستهم وإخلاصهم ، وكيف يوجّهون الضغط عن طريقهم إلى الحكومات بواسطة شعوبها ، لاختلفت الحال فى هيئة الأمم ، ولما كانت مأساة فلسطين .

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نذكر للرئيس القوتلى سهره ويقظته ، واهتمامه المخلصَ بقضيّة المغتربين ؛ إذ أنه الوحيد الذى فكر بالاستفادة منهم [1] وحمل « الجامعة العربية » على إرسال وفد إلى أمريكا الجنوبية — مؤلف من المرحوم توفيق اليازجى وأكرم زعيتر ، ونصرى معلوف ، ولكن رحلة هذا الوفد جاءت متأخرة ، فقد صدر قرار التقسيم وهو ما يزال فى بَدء الرحلة .

ومن الإنصاف أيضاً أن نُشيد بجهود « الوفد » وقيامه بالمهمة التى انتدب لها خير قيام [2] . ولكن تأخر الرحلة عن موعدها ، لم يقدّر لها النجاح المأمول .

وكذلك فإنّ فخامة القوتلى ، قد كلف كاتب هذه السطور ، أن يقوم بدعاية شاملة للقضية الفلسطينية بين المغتربين .

ويرجو كاتب هذه السطور أن يكون بجهده المتواضع فى الرحلة الخاصة

(١) حينما زار يوسف اليازجى وطنه سورية سنة ١٩٤٧ بعد غياب ثلاثين عاماً عنه — ليشيد جناحاً فى الجامعة السورية ، وليني قريته — مرمريتا — قضاء تلكلخ — وليسهم فى كثير من المشاريع الإنسانية والاجتماعية ، كانت كل أحاديث الرئيس القوتلى معه عن المغتربين وتمتين الروابط بينهم وبين الوطن الأم . والاستفادة من إمكانياتهم المعنوية ، لنصرة القضية العربية . وما تزال صلته بالرئيس القوتلى متينة مستمرة . وكل رسائله معه تدور حول هذا الموضوع . كما أن أحاديث فخامته مع كل مغترب يزوره تدور ضمن هذا الإطار . ولقد سمعته يقول للمغترب الكريم توفيق أبو جمرة — قنصل الجمهورية العربية المتحدة الفخرى فى ولاية بورتو أليكرى — البرازيل : حينما زار فخامته عقب انتخابه رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٥ « الوطن العربى يزهو بكم ويعتز . ويزدهر بغيرتكم وعاطفتكم . إنكم بالنسبة له كالابن البعيد بالنسبة لوالدته ، إنه أعز عليها وأغلى عندها ، من سائر أولادها . وهكذا أنتم بالنسبة للأمة العربية أمكم وأمتكم » وكان جواب هذه العاطفة عند أبو جمرة النبيل دموع تترقرق فى عينيه ، وتنحدر على وجنتيه .

(٢) كتب أكرم زعيتر عن هذه الرحلة كتاباً جامعاً مستفيضاً .

التى قام بها إلى أمريكا الجنوبية قد أدى الرسالة ، وقام بالواجب المطلوب منه .

ولكنّ جهد « الوفد » ، وكل جهد فردىّ آخر ، كان يعوزه جهد رسمىّ ، تقوم به الحكومات العربية نفسها مع الحكومات الأمريكية ، قبل ذلك التاريخ بوقت غير قصير [1] .

ولو أن العرب سلحوا شعب فلسطين تسليحاً كاملا ، وآزروه ودربوا أبناءه على حمل السلاح ، لكان لهم منه قوة تتحمل وحدها العبء ، وتنهض بالمسؤوليات .

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ ، أن نضع قسماً من التبعة على عرب فلسطين . وليس من الخير ، ولا من العدالة والحقّ ، أنْ نجرّدهم من المسؤولية وأنْ نلقيها كلها على عاتق الآخرين .

نحن لا ننكر لعرب فلسطين بسالتهم فى الثورات التى قاموا بها ، ولا تضحياتهم الجسيمة التى قدموها على مذابح القومية والشرف ، ولكن يجب ألا نغفل أن بعضهم قد باع أراضىَ لليهود وأن ذلك البيع كان دعاية سيئة ضد العرب ، وتسهيلا لهجرة عدد من اليهود إلى فلسطين ! وأن مليوناً وثلاثة أرباع مليون عربى ، كان يجب أن يمحقوا نزوة ربع مليون من شذاذ الآفاق المتسللين المتسوّلين ، قبل أن يتفاقم خطرهم ، ويكثر عددهم . ولا ريب أن العرب كانوا يقاتلون الصهيونيين والإنكليز معاً ، ولكن الشعوب الحية التى تدافع عن قضيتها ووجودها تهون عندها التضحيات الجسام . فضلا عن الفوضى التى كانت مستشرية بين صفوفهم . وفقدان القيادة العامة وحتى القيادات المحلية من بينهم . وفضلا عن الخلافات العائلية والحزبية والفردية — التى عجزت الدول العربية عن حلها ! وعن الاستغلالات والاغتيالات — التى كانت

(١) راجع كتاب « بين عالمين » للمؤلف ففيه أبحاث عن المغتربين .

تستوحى الأحقاد والضغائن أكثر مما كانت تستوحى المنفعة العامة ، والمصلحة القومية ! !

نحن لا نحمل عرب فلسطين المسؤولية كلها ؛ ولكننا لا نجردهم منها فقد كانوا « مقصرين » وكانت الدول العربية أكثرَ إهمالا وتقصيراً ، والتبعة التاريخية تقع على عاتق الجميع . ومسؤولية بعض الحكومات العربية عن هذه النتيجة المزرية أكثر من مسؤولية عرب فلسطين .

إننا لا نتجنى على أحد ، فالحقائق واضحة ، والتاريخ لا يُشفق ولا يرحم ، يجب أنْ نكون صريحين ، وأن نكون واقعيين ، وليس من الخير لنا ، ولا لأبنائنا من بعدنا ، وليس من العدالة والحقّ ، أن نحوّر التاريخ حتى نُرضىَ زيداً ، ولا نغضب عمراً ، وأن نخجلَ من ذكر معايبنا فيه ! ومعايبنا هذه ، كفضائلنا تماماً ، يجب أن تكون درساً لنا ، ولأبنائنا من بعدنا . هذه نقتدى بها ، وتلك نتحاشاها ، وإلا فإننا لا نستطيع أن نخلق جيلا كاملا فاضلا ، تنقصه معرفة الحقيقة ، وينقصه إدراك الواقع [1] .

وثمة ناحية أخرى لا تقل عما ذكرناه أثراً وخطراً ، بل تزيد عليه وتربو : ذلك العميل الإنكليزىّ « عبد الله » الذى نصّبوه قائداً عاما فى حرب فلسطين ، كان تنصيبه أكبر غلطة ارتكبت فى معركة فلسطين . إذ كأنهم قد نصبوا القائد الإنكليزى — كاوب — نفسه ، الذى كان يحيك المؤامرات لتهويد فلسطين .

وإذا كان الرؤساء العرب غافلين عن هذه الحقيقة فهم مقصرون . . .

وإذا كانوا يعرفونها وتغافلوا عنها — فهم مخطئون !

والتاريخ لا يحلهم من إحدى المسؤوليتين : الخطأ ، أو التقصير . ولا نقول أكثر من هذا . .

(١) هناك أشياء كثيرة عن معركة فلسطين نمسك عن ذكرها الآن . وقد يكون لها مجال آخر أرحب من هذا المجال . . .

أو ليس « كلوب » ، قائد الجيش العربى فى الأردن ، كان يسيّر عبد الله ، أى أنه كان قائداً للجيوش العربية ، من وراء ستار ؟

أو ليس « كاوب » هو الذى أمر الكتائب الأردنية والعراقية ، وجيش الإنقاذ ، بالانسحاب من « اللد » و « الرملة » ، و « رأس العين » ، و « الجليل » و « مرج بن عامر » حتى أصبحت هذه المناطق كلها مكشوفة ومفتوحةً لليهود ، ولم يعد فيها من يناضل عنها إلا أبناؤها الأحرار المجاهدون وليس فى أيديهم إلا النزر القليل من السلاح والعتاد ؟ ! وقد عادت القوى الصهيونية المندحرة لاحتلال هذه المناطق بدون قتال . وكان من جراء ذلك أن وقعت الكتائب المصرية بمأزق حرج ، وأصبحت مهددةً بالتطويق أو بالإبادة ، ولولا بسالتها وشجاعتها واستماتتها بالقتال ، لحاقت بها وبالكرامة العربية كارثة كبرى .

لقد عرف الإنكليز كيف يلعبون لعبتهم بوساطة عبد الله ، وكيف ينفذون مؤامراتهم عن طريقه .

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نسجل معارضة شكرى القوتلى لتعيين عبد الله قائداً عامّاً للجيوش العربية الزاحفة على فلسطين . ووقوف فخامته موقفاً صلباً ، فى وجه ذلك التعيين ، لأنه يعرف من هو عبد الله ، وما هى مطامعه وغاياته ، وتأثره بأسياده الإنكليز ، وأنه طوع إرادتهم ، ومنفذ سياستهم .

واستغل عبد الله وابن أخيه الوصى على عرش العراق — يومئذ — هذه المعارضة ، لإعلان نقمتهما ، والتهديد بانسحابهما ، حتى تنتهى قضية فلسطين بدون معركة ، ويسدل عليها الستار بدون حرب !

وكانت الأردن الباب الطبيعى لفلسطين . إذ أن حدودهما التى تنوف على السبّمائة وخمسين كيلو متراً ، والتى تعادل ثلثى الحدود العربية مجتمعة ، هى التى تساعد بالهجوم على فلسطين واحتلالها . وقد أعلن عبد الله ، وعبد الإله بصراحة تامة ، أنه لا جيش « موحد » ولا « معركة » فى فلسطين إذا لم يكن

عبد الله هو القائد العام ! ! ومعنى ذلك أن الجبهة العربية ستتصدع ، وأن الحدود الأردنية — الفلسطينية ستكون نقطة ضعف للعرب ، وقوّة لليهود .

وكانت الدول العربية بين أمرين : إما قيادة عبد الله ، وإما ترك فلسطين لقمةً سائغةً لليهود .

وخشى القوتلى أن تكونَ معارضته سبباً فى تمزيق الصفّ العربى ، ونيات الخونة واضحة لا تفتقر إلى دليل ، ولا تحتاج إلى استنتاج ، فاضطر إلى إعلان موافقته ، حرصاً منه على جمع الكلمة ، ووحدة الصف . ولم يكن يدور فى خلده ، ولا فى خلد أحد من العرب ، أن الحماقة والخيانة ستصلان بالملك عبد الله إلى حد التآمر مع الإنكليز والصهيونية على القومية العربية ، وأن رجلا يجرى فى عروقه دم عربى يقبل أنْ يكون مطية لأعداء قومه ، ووسيلة لهزيمتهم ، ونصر أعدائهم عليهم ! ! !

لقد أصبح من المبتذل اتهام عبد الله وعبد الإله بالخيانة ، والتآمر مع الإنكليز ، لأن تجميد الجيش العراقى ، ومنعه من الهجوم ، وهو على أبواب « تل أبيب » ، وكلمة « ماكو أوامر » — التى ذهبت مثلا — يطلقها القائد العراقى مع دموعه ، حينما يُطلب منه الهجوم ، وتسليم عبد الله « المثلث العربى » بعد أن احتله الجيش الأردنى ؛ كلها أمور واضحة لا تحتاج إلى تفسير أو تعليل . فهى تفضح اشتراك « العبدين » — عبد الله وعبد الإله — بالمؤامرة الكبرى ، وتُبرهن على أن دخولهما المعركة كان بقصد إنجاح المؤامرة على فلسطين ، وإحباط كلّ هجوم عربى عليها .

إن الجندى العراقى شجاع باسل . ممتلئ نخوةً ووطنيةً وحماسةً — ولكن عبد الإله :

رماه فى اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

واسمع الشاعر المغترب إلياس فرحات — ماذا يقول :

لو كان لى نفطُ العراق جعلته يمشى على جثث اليهود جنودا

وأسلحة فاروق الفاسدة ، التى كان يتجر بها ، والتى أصبحت سبّةً عليه

فى الأجيال ، قد أريدَ منها أن تهد « معنويات الجيش الباسل » ، وتنصر اليهود عليه . ولولا أن الجندى المصرى بطل بسليقته ، شجاع بفطرته ، مؤمن بقضيته ، متحمس لفكرته ، متمسك بواجبه ، محافظ على شرفه العسكرى ، لنكب فاروق الفاسد ، بسلاحه الفاسد ، هذا الجيش المظفر ، أفدح نكبة وأقساها .

ويقول المفترون :

إن سبعة جيوش عربية قد اندحرت أمام جيش واحد فى فلسطين .

إنها تهمة . وتهمة باطلة حقًا . وحلقة من سلسلة افتراءات اليهود وأكاذيبهم على العرب .

أما « الجيش الواحد » ، فالعالم يعرف أن شباب اليهود كانوا يُدربون على السلاح فى ثكنات الجيش البريطانى نفسه . . وأن القوات الإنكليزية حينما جلت عن فلسطين ، تركت سلاحها وعتادها كله للجيش اليهودى . . فكان سلاحه أمضى سلاح ، وأكثف سلاح . وكان ضباطه ممن خاضوا معارك الحرب العالمية الثانية ، من أمريكيين وبريطانيين وفرنسيين وسواهم .

وأما أسطورة الجيوش العربية السبعة فهذه قصتها :

إن القارئ قد عرف من أمر قادة الجيشين العراقى والأردنى ما عرف ، أو بعض ما يجب أن يعرف ، وأن موقفهما ، قد فوت كثيراً من الفرص العسكرية على جيش مصر ، وكان عبئاً على الجيوش العربية ، أكثر مما كان سنداً لها .

ومن ؟ الجيش اللبنانى — نحن نحترم إخواننا اللبنانيين ، ونعتز بهم ولكن . . لم يكن عندهم حينذاك جيش يُذكر ، وإن كان يُشكر . ومع ذلك فقد أبلى فى المعركة بلاءً حسناً بالنسبة لإمكانياته ، وسيطر على منطقة الجليل .

ومن أيضاً ؟ الجيش السعودى — لقد ساهمت السعودية بمعركة فلسطين ضمن حدود إمكانياتها . ولم يكن عندها يومئذ جيش قوىّ يمكنها من الإسهام أكثر من القدر الذى ساهمت به .

ومن أيضاً وأيضاً ؟ اليمن — رحم الله الإمام يحيى حميد الدين . . وأيد ابنه وحفيده ، اللذين لبيا نداء الوحدة العربية ، وكانا عند الأمل بهما ، والثقة بإخلاصهما .

وإنْ بُعد القطر اليمنى عن فلسطين قد حال دون اشتراكه بمعركتها اشتراكاً فعالا .

ولم يبق إلا مصر وسورية .

أما مصر ، فقد سبق القول عن فاروق الفاسد ، وسلاحه الفاسد ، وتشهد الأحداث التى مرت عامئذ ، وبعدئذ ، أن الجندى المصرى محارب من طراز رفيع ، لا يبذه أحد ولا يتفوق عليه أحد . إذ أنه بسلاح مهترئ عتيق ، استطاع ضباطه البواسل ، وجنوده الأشاوس أن يجلوا فى جميع المعارك التى خاضوها ، وأن يبرهنوا عن كفاية عسكرية ممتازة ، وعن إخلاص وتضحية واندفاع .

وأما الجيش السورىّ فالأحداث تشهد أنه أظهر من ضروب الرجولة والبطولة ، ما يعجز عن وصفه اللسان والبيان ، وأنه سطر بدم شهدائه أروع صفحة فى تاريخ الجهاد والنضال ، على الرغم مما كان يعانيه من نقص فى السلاح والعتاد ، ولم تكن سورية حينما بدأت معركة فلسطين قد نفضت عنها غبار الاحتلال إلا منذ سنتين . فهى ما تزال فى دور النقاهة والاستجمام ، وليس عندها من السلاح إلا ما استخلصته من أنياب الضوارى فى تلك الليالى السود . وبريطانيا وأمريكا ، وهما تمهدان لقيام إسرائيل ، كانتا تحولان دون تزويد الجيش السورى بالسلاح ، وشراء ذخيرة له من الخارج .

ولا نستطيع أن نبرّئ ساحة المسؤولين السوريين ، الذين أهملوا أمر الجيش ، وأمر إعداده للمعركة الحاسمة ! وكان أشيع أن وزارة الدفاع قد أعدت العدة لحلّ الجيش السورى — قبيل معركة فلسطين بأسابيع ! ! لولا أن الرئيس القوتلى قد حال دون هذه الفكرة وأحبطها ، ووأدها فى مهدها . . .

ومع ذلك فإن الجيش السورى لم يُكسر فى معركة فلسطين . ولم يُغلب فى أىّ موقعة خاضها . وكان ضباطه أسرع إلى الهجوم من الجنود أنفسهم . وسطروا لأنفسهم ، ولأمتهم ، صفحة نقيةً بيضاء . ولو كانت مواقع الجيش السورى قريبةً من مواقع الجيش المصرى لتبدلت الحال . وتطور الموقف ، ولكانت نتيجة معركة فلسطين غير ما كانت عليه .

فرض الهدنة على العرب

وذُعرت بريطانيا وأمريكا ، حينما رأتا أن الحماسة قد طغت على الجنود العرب ، فتخطوا جميع العقبات التى وضعت فى طريقهم ، وتابعوا الزحف حتى دقوا بأقدامهم أبواب « تل أبيب » . وأقرّ مجلس الأمن طلب بريطانيا عقد هدنة لمدة أربعة أسابيع ، وتكليف الكونت برنادوت القيام بمهمة التوفيق بين العرب واليهود .

وأوعزت بريطانيا إلى الملك عبد الله بقبول الهدنة وتبنيها .

وأصر شكرى القوتلى على رفضها ، وهو يُدرك مدى الخطورة التى تنجم عن هذه الهدنة ، وأنها مؤامرة مدبرة حيكت خيوطها بإتقان ، وأن الغاية منها إعادة تنظيم الجيش الصهيونى وتنسيقه ، وتزويده بمعدات وأسلحة جديدة ، وأنها فرصة تتاح لليهود وحدهم ، وليس للعرب منها إلا الفشل والخذلان !

وأيد مزاحم الباججى ، رئيس وزراء العراق يومئذ ، موقف الرئيس القوتلى . وكان موقف الباججى من قضية فلسطين مشرفاً نبيلا . ولكن طاغية العراق عبد الإله وافق على رأى عمه . ورفض رأىَ رئيس حكومته . واضطرّت الدول العربية كلها إلى الموافقة خشية من تصدع الجبهة العربية وزوال الائتلاف .

وهكذا عُقدت الهدنة فى ٢٩ آذار سنة ١٩٤٨ .

وحينما استؤنف القتال — فى ٩ حزيران (لأن الوسيط الدولى لم يتوصل إلى حلّ للمشكلة وكان ذلك مقدّراً سلفاً) ظهر اليهود بجيش ضخم ، وسلاح جديد ، تعزّزه طائرات ومصفحات حُشدت كلها خلال ذلك الشهر ، ونقلت من أوروبا وأمريكا مع جنود وضباط مدربين .

ورغم ذلك استمر تفوق العرب وزحفهم ، وتقهقر اليهود واندحارهم ،

ولاحت بشائر الأمل والظفر ، وأوشك النصر أن يتحقق .

واجتمع مجلس الأمن ليوجه إنذاراً بإيقاف القتال ، مهدداً بفرض عقوبات عسكرية واقتصادية على المخالفين .

وسارعت إسرائيل لإعلان موافقتها . ووافق معها « العبدان » — عبد الله وعبد الإله — وبرزت المؤامرة جليةً واضحةً ، وتصدعت الجبهة العربية كلها . وتوقف القتال فى ١٩ حزيران سنة ١٩٤٨ .

وشُرد مليون من عرب فلسطين ، وحل فى بيوتهم وأراضيهم مليون من الصهاينة المجرمين .

وصوّر الشاعر المغترب جورج صيدح هذه المأساة القومية الرهيبة — فى قصيدة عامرة — منها :

بنو فلسطينَ قطعانٌ مشردة ... عن الحياة مَلاكُ الموت راعيها !
خطيئةُ العرْب لا الأردنُّ يغسلها ... ولا صَبًا « بردى » بالنَّشر يطويها !
يَحمرُّ فى «النيل» وجهُ الماء إن ذكرتْ ... وينحنى رأس « صنين » لراويها !
أقدارُنا صنعُ « أيدينا » فما جرحتْ ... إلا بسهم وضعناه بـأيديها !
منا الفداةُ ومن فى الظهر يطعنهم ... منا الضحايا ، ومنا من يُضحيها !
منا الخفيرُ ، ومنا من يُغافله ... يَبيعُ أثوابَ موتانا ويشريها !

من المسؤولون عن ضياع فلسطين

لقد كُتبَ عن معركة فلسطين شيءٌ كثير . وما تزال معركة فلسطين بحاجة إلى كلام أكثر .

ولقد تبارت الأقلام فى تصوير النكبة القاسية ، والمأساة الدامية ، وما تزال تتبارى ، وستظل إلى أن يُكشف الستار عن جميع المساوئ والمخازى ، وإلى

أنْ تُروى القصةُ كاملةً وتظهر الحقيقة سافرة .

ولعل أبلغ ما كتب ، وأفضله وأشمله ، ما كتبه عزة دروزه ، وأكرم زعيتر ، وسعدى بسيسو[1] ومع ذلك ، وفى رأيى ، فإنّ قضية فلسطين ما زالت تحتاج إلى أقلام أكثر تحرراً وجرأةً ، والتماساً للواقع والحقيقة ، دون مراعاة لأحد ، أو تأثر بأحد .

لقد صور المؤرخون قضية فلسطين ووقائعها السياسية والعسكرية ، وما اتصل بها ، وأسفر عنها . ولكنهم لم يصوّروا الحقائق التى تكمن وراءَ الأخبار ، وتختفى وراءَ الستار . لم يُصوّروا أسرارها ، ويتحروا أخبارها ، وينقبوا عن حقائقها . وإنما سردوا الوقائع كما يسرد النظارة ما يُشاهدون على المسرح من تمثيل ، وهم لا يعرفون ما جرى ويجرى وراءه من تغيير وتبديل . أو أنهم لا يريدون أن يعرفوا ، ولا أن يعرف الناس .

ومن الخير لنا : لتاريخنا ، ومستقبلنا ، والأجيال الآتية بعدنا ، أن تُعرفَ حقيقةُ المأساة وبواعثها ، والعوامل الخفيّة التى دفعتها ومكنتها .

وليس من الإنصاف لنا ، ولا لتاريخنا ، أن نقصر الاتهام على بريطانيا ، وأمريكا ، وحدهما وننسى أنفسنا .

إن أمريكا وبريطانيا عدوتان لدودتان . تحاربانِنا فى جميع المحافل الدولية ، وفى عقر دورنا ، تستعمران أرضنا ، وتستثمران خيرات بلادنا ، وكلّ ما صدر منهما وعنهما ناتج عن عدائهما وكرههما ، وحبهما إضعاف العرب وإذلالهم ، وتفريق كلمتهم ، وتمزيق صفوفهم . فنحن لا نستغربه منهما ، ولا نستبعده عنهما . وقارئ التاريخ لا يستغربه ، ولا يستبعده ، ولكن الذى نستغربه ، وكان يجب أن نستبعده ، مؤامرة بعض أبناء العرب — على العرب .

إنّ العرب لم يخسروا معركة فلسطين بتواطؤ الصهيونية والإنكليز والأمريكان

(١) راجع كتاب « حول الحركة العربية » لعزة دروزه ، و « القضية الفلسطينية » لأكرم زعيتر ، و « إسرائيل جناية وخيانة » لسعدى بسيسو .

وحدهم ؛ وإنما خسروها بتواطؤ الخونة المجرمين من العرب معهم ، وبتقاعس فئة أخرى من العرب المخلصين . ولو لم يكن للاستعمار « ركائز » و « مطايا » فى البلاد العربية ، من أبناء البلاد العربية ، لما كان له موطئُ قدم فيها .

ولو جدّ العرب فى مقاومة الاستعمار والصهيونية ، واندفعوا بعزم لا يخور ، وقلب لا يلين ، ونفس أبيّة نقية ، تترفّع عن الدنايا ، وتسمو عن الأنانيات ، وتذوب فى كيان أمتها ومصلحتها ذوبان السكر فى الماء لما كانت مأساة فلسطين ، ولما ركزت — بعض الحين — أقدام إسرائيل .

هذه حقائق يجب أن تُكشف ، وأن تُروى ؛ ووقائع يجب أن تظهر ، وأن تُسرد حتى ينال كل خائن نصيبه ، ويجازى على الإثم الذى ارتكبته يداه .

إن مأساةَ فلسطين درس للعرب لن ينسوه. وعلى الرغم من أنها مأساة رهيبة فى تاريخهم ، وأنها أرهبُ مأساة وآلمها على الإطلاق ، فقد كان لها تأثيرٌ كبير فى إيقاظ النيام ، وتنبيه الغافلين ، وإطلاق القومية العربية من عقالها ، واختصار مسافة الزمن لتحقيقها ، والخروج بها من زاوية الإهمال إلى ميدان الحياة الفسيح ؛ على يد قائدها وملهمها ، وباعث نهضتها : جمال عبد الناصر .

وستعود « معركة حطين » مرة أخرى ؛ وسيستعيد العرب بها مجدهم ، وكرامتهم وبلادهم . وسيرى الظالمون أى منقلب ينقلبون .

إذا لم تعقد الهدنة فسيعقدها سواك

لقد خلّفت معركة فلسطين رواسبَ عميقةً فى نفوس العرب أجمعين ، وتركت وراءها آثاراً وذيولا ومشاكلَ سياسيةً واجتماعيةً كثيرة . وكثرت الاتهامات والافتراءات ، ولعبت الأحقاد الفردية ، والضغائن الحزبية ، والخلافات السياسية ، دوراً رئيسياً هاما ، وأوشكت الحقائق أن تضيع فى هذا

السيل الجارف من الاتهام ، وأوشك « المجرم » أن « يُبرّأ » ، و« البرىء » أن « يُدان » ! ! ونجم عن معركة فلسطين قلقٌ وفوضى ، لم ترَ البلاد مثيلا لهما منذ مئات السنين .

وكانت الدول العربية قد عقدت « هدنة » موقتة مع إسرائيل ، تنفيذاً لقرار مجلس الأمن . وأصرت سوريا على عدم التقيد بالقرار ، وعدم عقد الهدنة . ولم تُجد شيئاً جميع المحاولات التى بذلتها بريطانيا وأمريكا لحمل القوتلى على الموافقة والقبول . وتحطمت كل تلك المحاولات على صخرة عزيمته ، وصلابة إرادته . ورفض الجيش السورى أن يُخلىَ الأراضى التى احتلها فى فلسطين ، وأن يتراجع عن شبر واحد منها .

وكانت معنويات الجيش المرتفعة ، وحماسته واندفاعه ، سنداً قوياً للرئيس القوتلى ، ولتشدده بإبقاء حالة الحرب قائمةً بين سورية وإسرائيل .

وكانت هيئة الأمم قد قررت — فى ٩ كانون الأول سنة ١٩٤٨ — إيفاد لجنة للتوفيق بين العرب وإسرائيل من مندوبين عن : تركيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . ومما يجدر ذكره أن الدول الثلاث كانت مؤيدة لقرار التقسيم . وسافر أعضاء اللجنة إلى الشرق الأوسط ، واتصلوا بالمسؤولين العرب يستحثونهم على التفاهم مع إسرائيل . ووجدوا من الرئيس القوتلى صلابةً وتشبثاً وعناداً . ورفض عروضهم لعقد الهدنة مع إسرائيل . وأبى أن يقبل بالتفاوض مع الدولة المعتدية اللصة . وقبل أن يُغادر أعضاءُ اللجنة القصر الجمهورىَ اقترب منه المندوب الفرنسى وقال له بالحرف الواحد :

« إذا لم توافق على عقد الهدنة ، فسوف يأتى "غيرك" للموافقة عليها . . »!

وابتسم القوتلى ساخراً من هذا القول . وذكّره بسياسته التى تقوم على أساس : « إن الوطنية لا تعرف الحلول الوسطى » .

وفسرت الأحداث التى مرت بعدئذ كلمة المندوب الفرنسى ، ودلت على أن وراءَ القول ما وراءه . . .

وفى هذه الأثناء تقدمت شركة « الأرامكو » ، بطلب إمرار أنابيب البترول

عبر الأراضي السورية إلى لبنان . وتقدمت شركة « الآى بى سى » ، بطلب إقامة مصب لبترول العراق على الساحل السورى .

وفضلا عن أن شركات البترول تخفى فى حقيقتها استعماراً مبطناً يكفى وحده لرفض الطلب ، والإعراض عنه ، فإن الاتفاقية التى اقترحتها تجعل منها « دولة » فى قلب « الدولة » ، و « سلطة » إلى جانب « السلطة » ، وفى ذلك إخلال بالكرامة ، وطعن فى صميم السيادة والاستقلال .

وليس من السهل على رجل كشكرى القوتلى ، قضى حياته مكافحاً منافحاً ، حتى أبعد عن بلاده آخر أثر للاستعمار ، وحتى كسر آخر حلقة من القيد الذى كبلت به مئات السنين ، أجل — ليس سهلا على مثل هذا الرجل أن يعود فيرضى لبلاده القيد من جديد ، ويسمح لشركات استعمارية تتآمر على حرية الشعوب واستقلالها ، بالتمركز فى بلاده ، وإقامة قواعد فيها .

ووضع القوتلى عراقيل كثيرة فى طريق الشركتين — الأمريكية والإنكليزية — وجعل قبول اتفاقيتهما أمراً مستحيلا فى مجلس النواب .

وهكذا زاد فى حنق الدولتين الاستعماريتين ، وحقدهما ونقمتهما عليه .

وكانت الأحداث تتوالى بسرعة .

وكانت الاضطرابات تتفاقم وتعم ، ويعم معها القلق والفوضى ، ويلوح فى الأفق البعيد نذر شر مستطير .

ونشبت أزمة وزارة استعصى حلها على الرئيس الأول ، وعلى الكتل والأحزاب ، فى مجلس النواب . وأربت مدة الأزمة على الثلاثين يوماً رافقتها اضطرابات وإضرابات ومظاهرات وحوادث مؤسفة مؤلمة . ولم تكن تلك « الأزمة » عادية ولا بريئة ، وإنما كانت مصطنعة لغايات ظهرت نتائجها بعد الانقلاب !!

ولم يكن ثمة مجال لتشكيل الوزارة من داخل مجلس النواب ، وكان لا بد من إسناد رئاستها إلى شخصية سياسية قوية ، بعيدة عن الأحزاب وعن جوّها المحموم .

وكلف خالد العظم (وكان وزير سورية المفوض فى باريس) بتشكيل الوزارة ، وكانت وزارة حيادية أكثر أعضائها من غير النواب .

وفى هذه الفترة استقال نبيه العظمة من رئاسة الحزب الوطنى ، وأعلن عن انتهاء حياته السياسية فى بيان مقتضب لا يتجاوز الأربع كلمات : « اليوم أنهيت حياتى السياسية » .

محسن البرازى

كان عند الرئيس القوتلى رجل يثق به ، ويعتمد عليه . كان مستشاره وأمين سرّه ، ووزيره فى أكثر الوزارات . كان ذلك الرجل : « محسن البرازى » .

وكان محسن البرازى داهية محنكاً ذكيا . وكان أخصامه يتهمونه بالعمل لفكرة « خاصة » و « مبدأ » معين .

وقد يوجد فى نفوس بعض الناس نزعات ونزغات يدفع إليها حب السيطرة والسلطان ، وتحقيق هدف بعيد المدى ، بعيد الخيال .

وكان محسن البرازى متهماً بحب السيطرة ، وكثرة الطموح .

و . . متهماً بأنه « داعية » خطير .

وعرفت هذه الحقيقة عن محسن البرازى ، أو سرت هذه التهمة عليه ، منذ أن كتب فى مجلة « المقتطف » ، مقالا سرد فيه « فكرته » ومبدأه ، وحللهما تحليلا دقيقاً ، ودافع عنهما دفاعاً حاراً .

وأنا — شخصياً — لم أجد فى ذلك المقال ما ينقد عليه . فهو بحث علمى تاريخى ؛ ولكن حماسة «البرازى» قد تجلت فى كتابته — فلفتت إليها الأنظار .

ومرت الأيام . . ونسى الناس .

والناس عندنا ينسون بسرعة ، ويذكرون بسرعة . ينسون القضية بعد أن يسدل عليها الستار ؛ ويذكرونها بعد أن يزاح عنها .

وسدل الستار على مقال البرازى — محسن — زمناً طويلا .

وأزيح عنه بعد الانقلاب ، وذكر الناس ما قيل ويقال . . .

ووصلوا بين الحاضر والماضى ، وربطوا بين « نزعة » محسن البرازى ، وانقلاب حسنى الزعيم .

ثم بدأت الشواهد تتوالى ، والأدلة تتكاثف ، وكلها تشير إلى أنّ « محسن البرازى » سعى لتعيين « حسنى الزعيم » تمهيداً للقيام بانقلاب عسكرى ، فكان سفيره ، ووزيرَه ، ورئيسَ وزرائه ، ويدَه اليمنى فى كل شيء ! !

وجاء من يهمس فى أذن رجل الشارع : إن محسن البرازى هو الذى « طلب » توقيف نفسه غداة يوم الانقلاب ، حتى يوهم الناس أن لا علاقة له به ، ولا اطلاع ، ولا رأى .

والرجل الذى يخرج من السجن ليتولى منصباً رفيعاً ، ويصبح فى حياة « السجّان » كل شيء يكون عرضة للظنون والشبهات .

وعلى كلٍّ :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً   فما اعتذارك عن قول إذا قيلا

إتق شر من أحسنت إليه

بعد انتخاب القوتلى رئيساً للجمهورية سنة ١٩٤٣ جاءته رسالة من ضابط سورى فى الجيش الفرنسى يستنجد بالرئيس لإطلاق سراحه من السجن العسكرى فى بيروت .

وجاء الجنرال كاترو مرة لزيارة الرئيس فى القصر الجمهورى ، ففاتحه الرئيس بأمر هذا الضابط ، وطالب بإطلاق سراحه . فأطلق سراحه ، وسرح من الجيش الفرنسى .

وجاء يوماً من يقول لرئيس القوتلى : إن ضابطاً سوريا مسرحاً من الجيش الفرنسى « يستعير » علبة الدخان من بعض جلسائه فى مقهى « الهافانا » وهو يطلب معونةً وعطفاً — واضطرمت عاطفة الشفقة والإحسان ، فى قلب

الرجل الذى جُبل على الرحمة والإحسان ، فأرسل له مبلغاً من المال ، وكان ينفحه بمثله بين حين وآخر .

وبعد أن جلت الجيوش الفرنسية عن سورية ، وتسلمت الحكومة الوطنية جيشها ، أعيد هذا الضابط إلى الخدمة ، وعين فى دير الزور . ثم لم تلبث رئاسة الأركان أنْ طردته لسوء سمعته ونبوّ تصرفه ، فسكن مدينة حلب .

وكان هذا الضابط هو : حسنى الزعيم .

ولا يُعرَف كيف اكتشفه محسن البرازى ، ولا أين عرفه . ولكن الذى عُرِفَ أن محسن البرازى قد رشحه مديراً عاماً للشرطة والأمن . واستغل كل نفوذه ومركزه لإقرار هذا التعيين ، وأقنع الرئيس الأول ومجلس الوزراء بالموافقة عليه .

وهكذا . . . أصبح الرجل الذى كان يتسكع فى الأسواق ، ويستعير علبة الدخان من رفاقه فى المقهى ، مديراً عاماً للشرطة والأمن !

وهكذا . . . أخرجه شكرى القوتلى من السجن ، وأنقذه من الفقر ، وأراحه من « التسكع » . . فكان جزاؤه منه جزاء « سنمار » .

قيل مرة لـ « إبراهام لنكولن » رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق « إن فلاناً يشتمك » ، فقال : « هذا غير صحيح . لأننى لم أخدمه ، وليس لى فضل عليه ! ولو أننى خدمته . وكنت ذا فضل عليه ، لكان من المعقول أن يشتمنى » ! .

رحم الله محرّر العبيد ، فقد نفذ بقوله هذا إلى أعمق أسرار الحياة ، ولخص أخلاق البشر ، بهذه الحكمة الفريدة الخالدة .

وصدق صلى الله عليه وآله وسلم : « اتق شر من أحسنتَ إليه » . .

ولكنّ شكرى القوتلى — رغم إيمانه بالله والرسول — لم يتق شر الذين أحسن إليهم ، فأساؤوا إليه . . .

وهذه حال الدنيا .

انقلاب حسنى الزعيم

كان حسنى الزعيم رجلا فارغاً ، مدعياً ، مغروراً ، والغرور دلالة على العجز والنقص ، والتفاهة .

كان ذا عنجهية وغطرسة وصلف وكبرياء . . .

كان متهوّراً تنقصه الروية والرصانة والاتزان . .

وكان فى مديرية الشرطة أهوج أرعن . .

وكان محسن البرازى يستر معايبه ، ويخفى مثالبه ، ويدافع عنه كلما ارتفع ضده صوت ، أو قدمت بحقه شكوى .

وشغر منصب رئاسة الأركان .

وكانت أصوات الضباط الأحرار ترتفع وتتوالى ؛ وتشير إلى النقمة العارمة التى خلفتها مأساة فلسطين . والنقمة لم تكن تستهدف شخصاً معيناً ، وإنما كانت تستهدف الوضع العام الذى ساءَ فى البلاد العربية جمعاء ، وزرع فى نفوس الناس بزرةً من الشكّ عميقة الجذور .

وكانت معركة فلسطين قد تركت فى نفوس الضباط آثاراً عنيفةً وجراحاً داميةً ، وذكريات ممضة .

وكانوا تواقين إلى تعزيز جيشهم ، وتقويته ، وتسليحه .

وكان الرئيس القوتلى تواقاً إلى إصلاح حال الجيش وتزويده بالمعدات والسلاح .

وكان يبحث عن ضابط كفء يتولى أمر الجيش ، ويسهر عليه ، ويعيد تنظيمه وتسليحه من جديد .

والجيش عماد البلاد ، ودرعها الواقى ، وحصنها الحصين .

وأدخل محسن البرازى فى روع الرئيس القوتلى أن حسنى الزعيم خير من

يصلح لرئاسة الأركان ، وأن ضبّاط الجيش يحبونه ويحترمونه ، ويثقون به .

فوافق على تعيينه رئيساً للأركان .

وبدأت المتاعب من ذلك اليوم .

وجاء من يقول للرئيس القوتلى : إن حسنى الزعيم يقوم باتصالات مريبة مثيرة للشكّ والقلق ، وإن الدلائل كلها تشير إلى أن الرجل يحاول أن يلعب لعبة خطرة . وإنه مغامر متهور ، وهو يسعى لتكتل الضباط حوله للقيام بانقلاب عسكرى يطيح بالأوضاع الدستورية ويمكنه من تسلّم الحكم .

وأرسل الرئيس يستدعى حسنى الزعيم لمقابلته .

ولما أخبره الرئيس ، الطيب القلب ، بما سمع عنه بكى . . ويشهد الذين كانوا يرون ويسمعون أنه انحنى حتى أوشك أن يُقبّل الأرض بين يدى الرئيس . وهو يُقسم أغلظ الأيمان أنه برىء من التّهمة . وانتهره الرئيس قائلا : « لو رآك رفاقك فى السلاح ، وأنت فى مثل هذه الحال لاحتقروك وازدروك ، ورفضوا أن تكون رئيساً عليهم » .

وعاد حسنى الزعيم إلى الجبهة .

وأفاقت دمشق فى اليوم الثانى — ٢٩ آذار سنة ١٩٤٩ — على أنباء الانقلاب .

واعتقل الرئيس القوتلى ، ووزراؤه وأودعوا سجن المزة .

وحاول مستشارو حسنى الزعيم ، والمتزلفون له ، أن يجدوا لانقلابه مبرّراً دستورياً ، يُقرّه مجلس النواب ، وسعوا لتشكيل حكومة جديدة فى ظلّ النظام الجديد . ولكنّ النواب الأحرار رفضوا التعاون مع الرجل المغامر الذى هدّم الحياة الدستورية ، وعرض البلاد للأذى والخراب ، وأطاح بنظامها الديمقراطى ، ليحكمها حكماً فرديا ، خالياً من كل مقومات الفهم والكياسة ، والتنظيم .

وحلّ مجلس النواب . . .

وبدأ حسنى الزعيم بالضّغط على الرئيس القوتلى ليستقيل من رئاسة الجمهورية ،

وانهالت برقيات الاحتجاج على اعتقال القوتلي من كل أحرار العرب . وكثر الوسطاء والمستنكرون من رؤساء الدول ، والشخصيات السياسية المختلفة .

وتجمعت لدى القوتلي أسباب كثيرة للاستقالة : اعتقاله ، ومرضه فى السجن ، وتنكر بعض إخوانه له ، فاستقال .

وقصة هذا « التنكر » قاسية دامية ، لا تجرح كرامة القوتلي ، ولا تنال منها ، وإنما تجرح كرامة الذين لا وفاءَ عندهم ، ولا أخلاق لهم .

كانت عاطفة القوتلي تغمر الجميع . وكان قلبه يشع بالمحبة والحنان والرأفة على الجميع .

وكان ملْكاً لهم — للناس جميعاً : وقته ، وماله ، وجهده ، ومركزه الرفيع .

كان لهم أباً ، وأخاً ، وصديقاً ، قبل أن يكون زعيماً ، وقائداً ، ورئيساً .

وانهالت برقيات الاحتجاج على اعتقال القوتلي من كل أحرار العرب ، ومن بعض رؤساء الدول والشخصيات السياسية العربية . وأثمرت هذه الاتصالات .

وأطلق سراح القوتلي بعد شهر من سجنه ، وبعد أن استقال من رئاسة الجمهورية .

وفرضت عليه إقامة جبرية فى بيته الذى أحيط بالأسلاك الشائكة ، ووُضعت عليه حراسة عسكرية شديدة . . .

وكانت والدته قد تُوفيت وهو فى السجن بعد خمسة عشر يوماً من اعتقاله ؛ ولم يُسمح له بتشييع جنازتها ، بل لم يعلم بوفاتها إلا بعد إطلاق سراحه !

وكانت والدته من فُضليات النساء : تقىً ، وخيراً ، وبراً ، وصلاحاً .

القوتلي يغادر سورية

سافر القوتلي إلى مصر بعد ثلاثة أشهر من الانقلاب . ولما سُمحَ للناس بزيارته قبيل سفره ، غص بيته بالزائرين ، وغص المطار بالمودعين .

واستقر مع أسرته فى مصر ، واتخذ الإسكندرية سكناً له . وعاش فيها عيشةً خيِّرةً كريمة ، عيشةَ رجل يحترم نفسه ، ويحترمه الناس .

وظل فى منفاه عظيماً كالهرم ، شامخاً كالطود .

إنه زعيم تنكر له بعض الناس . . . ولكن الزعامة لا تتنكر لرجالها ، ولا تُعرض عمن يمثّلها .

إن للزعامة أخلاقاً ترافق صاحبها إلى كل مكان ، وتواكبه فى كل طريق .

إنها جزء منه وبضعة من روحه ونفسه وضميره ،

والمركز لا يخلق من الإنسان التافه شيئاً ، وفقدان المركز لا يُفقد روح العظيم شيئاً .

العظيم عظيم : أينما كان ، وكيفما سار .

وكان شكرى القوتلي — وما يزال — عظيماً .

وسافر بعد ذلك إلى أوربا للاستشفاء . وكان فى منفاه يبيع من أملاكه فى دمشق حتى تستمر حياته الخيرة الكريمة كما عرفها الناس .

وتبخرت أسطورة ثرائه وغناه . وتبخرت معها دعايات المغرضين والمفترين وظهرت نزاهته مشرقةً ناصعة الجبين .

لقد كان غنياً حقاً ، وكان ثرياً كبيراً — لكنه فقد ثروته كلها فى الجهاد .

ومر وقت كان يُقدَّر دخله السنوىّ بمبلغ ضخم ثم مر عليه وقت كان لا يملك فيه شيئاً . وقد اضطرّ حين خروجه من دمشق بعد الثورة سنة ١٩٢٥ أن يستدين من بعض رفاقه مبلغاً من المال لينفقه فى الطريق ؛ وكان قد أنفق ماله كله فى الثورة . وكان يعيش بعدئذ من مال والدته وأخيه .

وقد ورث عنهما ما حفظ للزعامة كرامتها وحرمتها ، ومكنه من متابعة الجهاد والنضال .

مع القوتلي و . . . عليه

ولا نُحب أن نترك الزعيم القوتلي مستجما هادئاً فى منفاه ، قبل أن نقفَ معه قليلا ، وقبل أن نحمله شيئاً من التبعة والمسؤوليات .

لقد كان رئيساً فى عهد دستورىّ ديمقراطى . والرئيس غير مسؤول ، والمسؤولية تقع على عاتق سواه .

وكان أخصامه يتهمونه بالتدخل فى شؤون الحكم ، ويُسرفون فى الاتهام واللوم . . ويروون قصصاً كثيرةً . . أكثرها مُختلق ، وبعضها له بواعث ، ودوافع ، وأسباب .

ومهما يكن .. فقد فتح الرئيس بابه لجميع الناس ، كما فتح قلبه لجميع الناس .

والناس فى بلادنا لا يقدّرون ظرف أحد ، ولا يأبهون إلا لمصالحهم تُؤمَّن ، وأغراضهم تُقضى . . .

ووُجد بين بطانة الرئيس من استغل طيبة قلبه ، ونبل نفسه ، فى غير الأوْجه التى يريدها الرئيس ، ويرضى عنها .

وأخطر شىء على رجل الحكم والوجاهة . . بطانة السوء ، ومستشارون مغرضون ، أو جاهلون ، أو طامعون .

ولم تحلّ مأساة برجل عظيم فى التاريخ — إلا وكان لبطانته يدٌ فيها . فهى لسانه بين الناس ، وهى يده معهم ، أو عليهم . هى واسطته للإغضاب والإرضاء ، والأخذ والعطاء . . هى التى تنقل إليه الأخبار ، وتأتيه بالمعلومات . وكل « خطيئة » يرتكبها واحد من « البطانة » ، يتحمل رئيسه مسؤوليتها ، وتعود نتائجها عليه .

وإذا وُفق رجل الحكم والوجاهة ببطانة مهذبة ، ذكية ، رضية الخلق ، مخلصة ، تعرف أقدار الناس ، وقيمهم ، وتخلص لرئيسها ، وللناس ، وتكون صادقةً فى عملها ، مستقيمةً فى مسالكها ، نزيهةً متواضعة ، فهناك المجد والسؤدد ، وحسن السمعة ، والجاه .

والرجل الحكيم أول ما يبحث عن هذا ، ويهتم به ، ويُعنى بمعالجته وتدبيره ،

ويكون بذلك قد وفر على نفسه كثيراً من المتاعب والمشاقّ . وأرضى نفسه وربه ، وأرضى الناس .

ومن العظماء — وهم بالوقت نفسه مدركون حكماء — من تعذّر عليهم تصفية بطانتهم وتنقيتها من الشوائب والأدران . لأن ثمة ظروفاً لا يُدركها الغير ولا يعرفون مداها تفرض على الرجل واحداً من أقربائه ، أو معارفه ، أو أقرباء صديق له عزيز ، أو لمناسبة طارئة يكون لها تأثير عميق وفعال . ومن الواجب أن يقدّر المرءُ هذه المناسبة وذلك الظرف . ولكن الإنسان مأخوذ بحبّ نفسه ، وإيثار مصلحته ، ولا يقبل دونهما سبباً أو عذراً .

والرئيس القوتلى واحد من العظماء الحكماء ، مرت عليه ظروف ومناسبات ، اضطرته لحشر فئة من الناس فى بطانته ومستشاريه . ولم يكونوا كلهم كأسنان « المشط » ، وإنما كانوا كـ « أصابع اليد » ، فيهم تفاوتٌ بالعقلية والفهم والخلق ؛ وهذا ما سبب للرئيس المتاعب والمشاكل .

ومن رجال البطانة من يُسخر مصالح الدولة لمصلحته ، ومصالح أقربائه ، ويدفع رئيسه الثمن ! !

ومنهم من يكون محدوداً ، ضَيِّقَ الأفق ، سيِّءَ الخلق ، لا يُحسن استقبالَ الناس ، ولا يحسن معاملتهم ، فيغضبهم ، ويؤذى كرامتهم ، ويدفعُ رئيسه الثمن ! !

ومنهم من يكون مهملاً يتقاعس عن أداء واجبه ، ويتأخر فى تنفيذ ما كُلفَ عمله ، ويتوانى عنه — ويدفع رئيسه الثمن !

ولم تكن كل بطانة الرئيس من هؤلاء ، بل كان فيها رجال تجمعت فيهم الصفات المرغوبة ، والشرائط المطلوبة ، وكان فيها رجال ناشزون مستثمرون ، أثاروا من حولهم ضجةً ، وأوجدوا للرئيس مشاكلَ ومتاعب . .

ومرة أخرى أقول : إنهم الناس ، فى أخلاقهم ، وطباعهم ، وإنهم أغرب

شيء في هذه الدنيا . . ينسوْن الحسنة ، ويذكرون السيئة . . بل ينسون ألف حسنة لشخص ، ويذكرون سيئة واحدة له !

والرئيس القوتلي حسنات لا يستطيع إحصاءها هذا القلم ، ولا أي قلم .

وابعض « بطانته » خطيئات .

وفي القرآن الكريم : « الحسنات يُذهبن السيئات » . وأما عند الناس فإن السيئات يُذهبن الحسنات . . وأستغفر الله . . .

ونسي المغرضون حسنات الرئيس ليذكروا خطيئات البطانة ! !

وهذه هي الدنيا !

وهذه أخلاق الناس !

« والناسُ في كلّ العصور كما َعلمتَ هُم هُم »

وقد مر معنا من حديث محسن البرازي ما مرّ ، وعلمنا من أمره بعض ما يجب أن نعلم . . وفي ذلك وحده خير دليل — إذا صحّ — وأكبر شاهد وبرهان .

وفي يقيني أيضاً أنه كان على الرئيس أن يُغلق بابه في وجه المراجعات العادية ، ويُحيل أصحابها إلى الدوائر المختصة ، كما فعل في رئاسته الأخيرة ، فقطع الطريق على الحاقدين والناقمين ، وعلى أكاذيبهم وأباطيلهم ، ومفترياتهم وأحابيلهم . .

وإذا أردنا أن نلتمس العذر للرئيس القوتلي ، فالعذر أنه كان زعيما ، قبل أن يكون رئيساً . والرئاسة قد تزول ، ولكن الزّعامة تبقى . .

والزعيم مضطر إلى إبقاء الصّلة وثيقةَ العُرَى بينه وبين أفراد الشعب .

وهكذا كان . .

ويبرّر المرحوم نجيب الريس في جريدته القبس هذا « التدخل » بقوله :

« . . . فهو رئيس دستوري ، بكلّ ما في هذه الكلمة من مدلول . ولكنه

في الوقت نفسه يفكر تفكير الوطنيّ القديم ، ويعمل عمل الحاكم المسؤول ، الذي يرى واجباً عليه أن يعرف كل شيء ، وأن يسمع كلّ شكوى ، وأن يزيل كل ظلامة . . » .

حسني الزعيم – مطية للطموح والاستغلال

هلل الملك عبد الله حينما بلغه نبأُ الانقلاب ، وقفز من فراشه وهو يصيح :

« الحمد لله . الحمد لله . لقد كان شكري القوتلي عدوّي ، وعدو عائلتي ، لقد وقف في وجهي ، ووجه أسرتي . كان يكرهنا ويمقتنا . وكنا نكرهه ونمقته . وهذا ما كنا نشتهيه . الحمد لله . . . » .

وسارع لتأييد الانقلاب و . . « مباركته » !

وطار نوري السعيد إلى دمشق ، يستثمر الانقلاب لمصلحة الاتحاد مع العراق .

وكانت فكرة الاتحاد تُخفي في طياتها دعوة إلى « الملكية » . .

وكان الاتحاد « ستاراً » لهذه الفكرة ، وخطوةً أولى نحوها .

ووافق حسني الزعيم ، ومد يده للعراق والأردن يستجدي الاعتراف به وتأييده .

وثار الضبّاط الأحرار .

وكان الضبّاط الأحرار ، دائماً ، حراسا أمناءَ على الاستقلال ، طيلة تلك الفترة والفترات التي أعقبتها وسبقتها ، وارتفعت أصوات الشعب ، هنا وهناك ، مهدّدة ومُنذرة .

واضطر حسني الزعيم إلى التراجع ، وأعرض عن وُلاة الأمر في الأردن والعراق ، بعد أن ظهرت له نواياهم ، ووضحت الحقيقة سافرةً ، وهي أنهم يسعون إلى تنصيب عبد الإله « ملكاً » على سورية ، تحت ستار الاتحاد المزيف ، وإلى إخضاعها لنير الاستعمار ، وزجها في أتونه الملتهب .

وكان تراجع حسنى الزعيم صدمةً قويةً لعبد الله ، وعبد الإله ، فثارا وعربدا ، وأكثرا من عبارات التهديد والوعيد ! وحُشدت كتائب من الجيش السورى على حدود البلدين استعداداً لكل محاولة ، وتحسباً لكل طارئ .

وأرضى تراجعه المخلصين من أبناء البلاد .

ولكن لم يكن لحسنى الزعيم رأى مستقر ، ولا سياسة ثابتة .

كان رجلا بسيطاً ساذجاً ، سريعَ التقلب ، سهل الانقياد ، رغمَ عنفوانه ، وصلفه ، وغروره . وكان يقول عن نفسه ، إنه « زعيم » ، مضروب فى ثلاثة : « زعيم » بكنيته ؛ « زعيم » برتبته ؛ « زعيم » لأمته !

وكان يستدعى سفراء بعض الدول ، ويقول للواحد منهم : « أحب أن أعقد معكم معاهدة . أبلغْ حكومتك ذلك » . ويسرع السفير إلى إبلاغ حكومته. ويعود حسنى الزعيم فيستدعى السفير فى اليوم الثانى ، ويطلب منه نسيان ماقاله له !

وحشد الجيش على حدود لبنان . وهدد باحتلاله . . وأوشك الاصطدام أن يقع من أجل اعتقال الضابط أكرم طبّاره ، حتى اضطرت الحكومة اللبنانية أن تُطلق سراحه ، تفادياً من وقوع حرب بين البلدين الشقيقين !

ودفع أنطون سعادة إلى إشعال نار الثورة فى لبنان . وكانت فتنةً خطيرةً أشعلتها عصابات من القوميين السوريين . ثم سلَّم أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية ، فأعدمته رمياً بالرصاص .

وامتدت يد حسنى الزعيم إلى « مذكرات » القوتلى فصادرتها . وكانت مذكرات حافلة ، وفيها وثائق ذات أهمية كبرى . ولم يظهر للمذكرات ، ولا للوثائق أى أثر . وأشيع يومئذ أن حسنى الزعيم قد سلم تلك الوثائق التاريخية الخطيرة إلى الحكومة الفرنسية !

ورفع الحصانة عن الموظفين ، وسرح آلافا منهم بدون سبب . وازداد بهم عدد العاطلين عن العمل ، وأصبحوا عالةً على المجتمع ، بعد أن كانوا سنداً له وعضداً .

وكان حسنى الزعيم طموحاً ؛ ولم يكن لطموحه « حد » !

وعرف محسن البرازى كيف « يستغل » طموحه ، ويغذيه . وكيف يسيطر عليه عن هذه الطريق .

وعرفت بريطانيا وأمريكا كيف تستغلان من جانبهما هذا الطموح ، وتستثمرانه ، وتساومان على الاعتراف بالعهد الجديد ، ففرضتا عليه أن يعقد « هدنةً » مع إسرائيل ، وهى الهدنة التى كان رفضها شكرى القوتلى ، ورفض البحثَ بها ، والمفاوضةَ بشأنها ، رغم كل وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب .

ووقف ضبّاط الجيش البواسل من قضية الهدنة موقفاً مشرفاً ، وأصروا على أن تكون الأرض التى يحتلها الجيش السورى « منطقة حرام » بين سورية وإسرائيل ، وأن تظل مجردة من السلاح . وهكذا كان ، إلى أن عبث اليهود باتفاقية الهدنة ، وأخلوا بشروطها وبنودها ، كما هى عادتهم وطبعهم اللئيم .

وفرضت بريطانيا وأمريكا على حسنى ازعيم اتفاقيتى « التابلاين » و « الآى بى سى » اللتين مر ذكرهما ، وسبق التحدث عنهما . وكان شكرى القوتلى قد وضع فى طريق تصديقهما العراقيل .

ولولا أن « حسن جبارة » كان وزيراً للمالية ، فى ذلك الحين ، لكانت الاتفاقيتان أكثر جوْراً ، وأكثرَ انتهاكاً للسيادة والكرامة . ولكن حسن جبارة قد استطاع ، بمهارته وحذقه ، أن يُعدلَ من شروطهما فى مصلحة سورية ، وأن يشذّب من نصوصهما المجحفة ما أمكن . ولحسن جبارة فضل كبير فى تحرير النقد السورى من تبعية الفرنك الفرنسى ، والخروج به من فلكه المضطرب المكفهر (١) .

وخلاصة القول : لقد كان حسنى الزعيم، رجلا لا هدف له ، إلا هدف المنصب ؛ ولا خطة عنده ، ولا برنامج يتقيد به ، وينفذه .

(١) توفى السيد حسن جباره فى ٣ أيار سنة ١٩٥٩ وهو فى مكتبه فى وزارة الخزانة المركزية بالقاهرة . وكان لوفاته رنة حزن وأسى عميقين فى نفوس عارفى فضله ، ومقدرى عبقريته — رحمه الله . وقد اشترك سيادة الرئيس جمال عبد الناصر فى تشييع جنازته — فكان بذلك مثال الرئيس النبيل الذى يقدر جهود العاملين المخلصين .

ودولة لا هدف لها ، ولا برنامج عندها ، ولا خطة تسير عليها سائرة فى طريق مظلمة ، ومصير لا تُعرف نتائجه ، ولا تُحمد عقباه .

وهكذا أوشك حسنى الزعيم أن يقودَ البلادَ إلى الهاوية ، وأن يُرديها فى الحضيض .

وتنادى الضباط الأحرار فى الجيش ، لوضع حد لهذه المهزلة المضحكة ، والمآسى المؤلمة . وشعروا أن الرجل يوشك أن يزج بالبلاد فى أتون اتفاقيات عسكرية وسياسية . بل لقد كانت تبدر منه كلمات تهديد بعقد صلح دائم مع اليهود . وكانت تصرفاته ، تدفع الناس إلى الخوف من تنفيذ هذا التهديد .

وقرر الضباط الأحرار أن يوقفوا هذه المهزلة ، وأن يحولوا دون تفاقمها واستمرارها .

وكانت الرغبة فى التخلص من حسنى الزعيم شاملة ، أقرها أكثر ضباط الجيش ، إن لم يكونوا كلهم .

وأشرق فجر ١٤ آب سنة ١٩٤٩ على جثتى حسنى الزعيم ، ومحسن البرازى ، وقد اخترقهما رصاص الجنود[1] .

وأسدل الستار على عهد لم يكن طويلا ، ولكنه كان ، بمشاكله ومهازله ، عميق الأثر عريضاً . . .

لقد كانت هذه الفترات من أقسى الفترات التى مرت فى حياة سورية . ولولا أنها كانت قصيرة الأمد ، لغرقت البلاد فى بحران من تهور حسنى الزعيم ، وجهله ، وتفاهته ، ومهزلة « زعامته » .

وهكذا انتهى عهد حسنى الزعيم . وابتدأ عهد سامى الحناوى .

انقلاب سامى الحناوى

كان حسنى الزعيم يشبه سامى الحناوى بـ « الخروف » — وكان يلقبه « باباسامى » .

وكان سامى الحناوى وديعاً لطيفاً ساذَجاً بسيطاً .

لم يكن عند الرجل طموح ، ولا دهاء ، ولا بعد نظر . ولم يكن عميقاً

(١) أشيع قبيل انقلاب حسنى الزعيم أنه ينوى تشكيل فرقة أجنبية لحمايته ، وأنه أعد لها العدة ، وهيأ لها الوسائل . ولكن الأحداث كانت قد سبقته .

ولا فهيماً . بل كان سطحياً ، رقيقَ القلب والفهم .

كان أشبه بـ « الببغاء » تنطق بلسان غيرها ، وتردّد كلمات سواها .

وكان داعية إلى الاتحاد مع العراق . وحوله فئة من الضباط تسيّره وتوجهه ، وترسم له الخطط ، وتشترك معه فى التنفيذ .

وألف سامى الحناوى حكومة كانت ممثّلة لجميع الأحزاب السياسية والاتجاهات بلا استثناء . وكان من أعضائها : رشدى الكيخيا ، وناظم القدسى ، وأكرم الحورانى ، وخالد العظم ، وعادل العظمة ، وميشال عفلق ، وسامى كبارة ، وسواهم .

وكان يَرْئس تلك الحكومة هاشم الأتاسى . ولا يستطيع أحد ، أن ينتقص من خُلق هاشم الأتاسى ، أو وطنيته ، أو كفاحه ضدّ الفرنسيين . ولكنه كان متهماً بممالأة العراق ، اتخذت حكومته قراراً بدعوة الشعب لانتخاب « جمعية تأسيسية » تضع دستوراً جديداً .

وأبرق شكرى القوتلى إلى هاشم الأتاسى مهنئاً بزوال الطغيان ، وعودة الحياة الحرة الكريمة .

وأجابه الأتاسى شاكراً ، وداعياً إياه للعودة إلى الوطن والمساهمة مع إخوانه ، ببنائه وتشييده .

وكان الناس ينتظرون عودة الحياة الدستورية كاملة ، ودعوة رئيس الجمهورية لتولّى سلطاته ، وتسلّم صلاحياته ، بعد أن زال المانع ، وزال عهد الطغيان — كما حصل بعدئذ سنة ١٩٥٤ — لا سيما أن استقالة شكرى القوتلى ، من رئاسة الجمهورية ، لم تكن شرعية ولا دستورية . فهى لم تُوجه إلى مجلس النواب . ولم تقرها السلطة التى يعود لها الحق بإقرارها أو رفضها . والاستقالة نفسها كتبت فى جوّ غامض يكتنفه الإرهاب .

ولم يُطلَب من شكرى القوتلى أن يعود بصفته رئيساً للجمهورية ، وإنما طُلبَ منه العودة بصفته مواطناً عادياً .. وربما لو كان فكر بالعودة لوُضعت فى طريقه عراقيل ، وزرعت فى دربه أشواك . إذ أن شكرى القوتلى كان يقاوم الاتحاد مع العراق . وكان خصماً عنيداً له . والعهد الجديد — عهد الحناوى — يعمل لهذا الاتحاد علناً ، لا من وراء ستار . وليس من المعقول أن يُفسحَ المجال لأخصام الاتحاد بهدم الجهود التى بُذلت وتبذل فى سبيل تحقيقه وتنفيذه .

ولم يَأبه شكرى القوتلى ، ولم يبال . وظل رابضاً فى عرينه ينتظر الأحداث . والأسد أينما اتجه ، وأنَّى استقر ، يكون له عرين .

ولم تستطع الوفود الكثيرة التى أمَّت مصر تطالب بعودته أن تحمله على العودة . وبقى فى مصر يراقب الأحداث .

وبُوشر بانتخاب « جمعية تأسيسية » . وقاطع الحزب الوطنىّ الانتخابات .

وكان الصراع عنيفاً بين الزعامتين : — على حدّ تعبير « سامى كبارة » — زعامة « رشدى كيخيا » فى الشمال ، وزعامة « سامى كبارة » فى الجنوب . وكان محمد معروف — رئيس الشرطة العسكرية آنذاك — يعضد سامى كبارة ، ويسانده ، وحينما قام بجولة ، فى أنحاء البلاد ، كان « محمد معروف » يُرافقه ، ويعمل لإنجاح قائمته سرًّا وعلناً .

وحرص رشدى كيخيا ، وكان وزيراً للداخلية ، على تأمين حرية الانتخابات . وتشهد الوقائع أنه كان نزيهاً مستقيماً . وكنا نفزع إليه من المداخلات ، ضدنا ، فنجد منه دائماً عوناً لحق ، ودفعاً لباطل . وأسفرت الانتخابات عن نجاح حزب الشعب بأكثرية ملحوظة ، وساعد على نيله الأغلبية مقاطعة الحزب الوطنى للانتخابات . وكان سامى الحناوى ، ومعاونوه ، يسعون للإسراع بوضع دستور اتحادى ، وإقرار فكرة الاتحاد مع العراق .

الانقلاب على سامى الحناوى

وشعر الضباط الأحرار بالخطر الداهم يحيق بهم من جديد ، فاجتمعوا وحزموا أمرهم على منع كل محاولة للعبث باستقلال البلاد ، والنيل من كيانها وسيادتها .

وكان عزيز عبد الكريم باعثَ الفكرة ، وصاحبها ، وواسطة العِقد بين العُقداء .

واشعر سامى الحناوى بحركة الضباط الأحرار ، وقرر اعتقالهم ، والخلاص منهم . وأرسل يستدعيهم لمقابلته حيث تكون قوةٌ من الشرطة العسكرية بانتظارهم ، وينتهى باعتقالهم كل شىء .

وشعر « العقداء » الخمسة — توفيق نظام الدين عزيز عبد الكريم ، أمين أبو عساف ، أديب الشيشكلى ؛ وكان شوكت شقير ومحمد ناصر يومئذ خارج سورية — بما يهيؤه سامى الحناوى ، فعقدوا العزم على العمل بسرعة . واكتشف سامى الحناوى فى آخر لحظة ، أن خطته قد انكشفت ، فأرجأ اعتقالهم إلى يوم آخر . ولكنهم كانوا أسرع منه .

وفى صباح ١٩ كانون الأول سنة ١٩٤٩ كان الضباط الأحرار قد تسلموا القيادة وكان سامى الحناوى ، ومعاونوه ، قد أودعوا السجن .

واقتُرح اسم أحد العقداء الخمسة لتولى القيادة ، فاعتذر ، واقترح أديب الشيشكلى . وهكذا كان . . !

ونجت البلاد من خطر الاتحاد . وبقى للشعب سلطانه وكيانه .

وانقسم أعضاء الجمعية التأسيسية إلى كتلتين ، وألَّفنا «الكتلة الجمهورية» ، لمناهضة الاتحاد مع العراق ومقاومته . وانتخب رشدى الكيخيا رئيساً للجمعية

التأسيسية ، وألف خالد العظم الوزارة وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً مؤقتاً للدولة ، ريثما يتم إقرار الدستور . وفي عهد حكومة العظم تم استقلال سورية الاقتصادي . وفُصمت عرى الوحدة الجمركية مع لبنان — وعبر عنها يومئذ بـ « القطيعة » .

وصدر الدستور بعد جهود متواصلة ، قاربت السنة . وكان دستوراً تقدمياً ، ومن أحدث الدساتير في العالم وأرقاها . ومنح رئيس لجنة الدستور ناظم القدسي ، ومقرّرها عبد الوهاب حومد ، وسامين رفيعين مكافأة لهما ، وتقديراً لجهودهما .

وانقلبت الجمعية التأسيسية — بعد إقرارها الدستور — إلى مجلس نيابيّ . وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية . وألف ناظم القدسي الوزارة . وتميز عهده بمشروع « اتحاد [1] » بين الدول العربية — طاف من أجله البلدان العربية ، واجتمع برؤساء دولها وحكوماتها . فلم يلق منها قبولا ولا تأييداً . وقال له فاروق يومئذ : « ده مشروعات خيالية صبيانية » ! !

واغتيل سامي الحناوي في بيروت — وقد اغتاله أحد « البرازيين » ثأراً لقريبه « محسن » .

الفوضى المصطنعة

لم يكد أديب الشيشكلي يثبت أقدامه حتى أخذ يستبد ويطغى . وكان إبراهيم الحسيني يده وخنجره وعصاه . ونقم الضباط الأحرار على الظلم والاستبداد ورفعوا عقيرتهم يجأرون بالشكوى . وكان أجرأهم العقيد محمد ناصر آمر سلاح الطيران ، فأرسل من اغتاله في مساء ٣١ تموز سنة ١٩٥٠ وهو في طريقه إلى المطار . واستهدف أكثر الضباط الأحرار ، بعدئذ ، للإبعاد والتنكيل .

(١) هذا المشروع منشور بكامله في كتاب « الوحدة العربية » للأستاذ محمد عزة دروزه .

وشهدت البلاد خلال هذه الفترة فوضى مصطنعة في الحكم . كان يصطنعها أديب الشيشكلي لغاية في نفسه الشريرة . وكانت البلاد تشهد حكومة جديدة كل ثلاثة أشهر . وكان في بعض الأحيان يصطنع بعض الحوادث الخارجية اصطناعاً ، حينما يرى أن النقمة عليه بدأت تتزايد وتشتد .

ومرت أزمة وزارية استعصى حلها . لأنّ أديب الشيشكلي كان وراءَها وأمامها ، بلا حياء ولا خجل . وكان يساوم بعض المرشحين لتأليف الوزارة على حلّ مجلس النواب . حتى يستطيع الإتيان بمجلس ينفذ إرادته ، ويحقّق رغبته . . وكان يُقابل بالرفض من الناس الشرفاء الذين يحترمون واجبهم ، وقسمهم الدستوري .

وألّف معروف الدواليبي الوزارة ، بعد مرور شهر كامل على الأزمة . وكان وزير الدفاع رجلا مدنياً . وأعلنت الأسماء في ليل ٣١ تشرين الثاني سنة ١٩٥١ وأفاقت دمشق صباح اليوم التالي على انقلاب جديد ، وعلى اعتقال رئيس مجلس النواب ، ورئيس مجلس الوزراء . وبعض النواب والوزراء .

وحاول رئيس الجمهورية — هاشم الأتاسي — أن يجد حلا للأزمة ، فلم يُوفق . فاستقال بعد ثلاثة أيام . وغادر دمشق إلى مدينة حمص . وقد أعاد التاريخ نفسه تماماً كما حصل سنة ١٩٣٩ .

انقلاب الشيشكلي

بعد أن استقال هاشم الأتاسي من رئاسة الجمهورية ، خلا الجو لأديب الشيشكلي ، فحكم البلاد حكماً مباشراً رهيباً . وعين فوزي سلو رئيساً للدولة . وكان فوزي سلو رجلا نظامياً ، دقيقاً في عمله ، راغباً في الإنتاج . ولو لم يكن إلى جانبه أديب الشيشكلي يعرقل أعماله ، ويعوقها بتدخلاته و « توجيهاته » لرأت البلاد من فوزي سلو عملا أكملَ وأفضل .

وكان أديب الشيشكلي طموحاً أيضاً . وطموحه « الهستيري » لا يقف عند

حدّ . وقفز إلى رئاسة الجمهورية غير عابئ بإحجام الناس عن تأييده ، والتصويت له . وفرض نفسه على الناس والبلاد فرضاً . . وكان ممثلو الأحزاب السياسية ، وكبار رجال الدولة ، قد اجتمعوا فى مدينة حمص ، وأعلنوا معارضتهم له ولدستوره ، فى مذكرة جريئة صريحة ، تحمل تواقيعهم جميعاً .

ولو أنّ أديب الشيشكلى قدم لبلاده عملا نافعاً ، أو أنتج لها شيئاً مفيداً ، أو حقق لها بعض الانتصارات فى بعض الميادين ، أو عمد إلى إصلاحها اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ، لوجد بين الناس من يؤيده ويعضده ، ويعذره وينصره . ولكن الرجل لم يقدّم لبلاده شيئاً ، إلا الفوضى والتفرقة وعدم الاستقرار !

وبالرغم من أنه اعتمد فى الإدارة والجيش على بعض الشباب الأكفاء المخلصين ، فإنه كان يحكم البلاد بأساليب رجعية ، لا أثر فيها للحياة الديموقراطية . ولم يستطع أولئك الشباب أن يحملوه على تغيير خطته ، وتعديل سياسته — رغم جهودهم المتواصلة فى هذا السبيل .

وكان الشيشكلى كثيرَ الشكوك والظنون ، لا يثق بأحد ، ولا يعتمد على أحد .

رجل سكير عربيد — يستوحى من خيال الخمرة الظنون والشبهات . . فلا يعين واحداً فى مركز حساس حتى يبادر إلى عزله ! ولا يأتى بموظف إلى مكان حتى يعود فينقله !

وكان يخشى الجيش ، ويحسب لضباطه ألف حساب . لأنه يعرف أن ضباط الجيش أحرار أبرار . لا يتحملون أذى ، ولا يصبرون على ضيم . فكان يسرّح الضباط من دون سبب ، ويبعثرهم ذات اليمين وذات الشمال من دون مبرّر ، فما يستقر ضابط فى قطعة ، حتى يصدر الأمر بنقله إلى قطعة أخرى . وهكذا دواليك !

وحتى إبراهيم الحسينى — يده ، وخنجره ، وعصاه — فقد أقصاه من

مديرية الشرطة ، وقذف به إلى روما ملحقاً عسكرياً .

لقد كان أديب الشيشكلى كاللص يكره الجميع ، ويخشى الجميع ، ويحترز من الجميع . . .

ثم اصطنع أسباباً واهيةً لإشعال نار الفتنة فى جبل الدروز حتى أوشكت الفتنة أن تعم ، لولا أن تداركها العقلاءُ بالحكمة والصبر .

واضطر سلطان الأطرش أن ينزح عن عرينه إلى الأردن ، وكان قد نزح عنه ، فى عهد الفرنسيين ، عقب انتهاء الثورة السورية .

واضطر أكرم الحورانى وميشال عفلق وصلاح الدين البيطار أن يلتجئوا إلى لبنان . وهدد الشيشكلى بإغلاق الحدود بين البلدين ، إذا لم تخرجهم الحكومة اللبنانية من أراضيها . وهكذا فرض عليهم أن يغادروا لبنان إلى روما . وهم يرددون قول شوقى :

أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كلّ جنس؟

وكانوا قد اتفقوا بعد انقلاب الشيشكلى على دمج حزبيهما فى حزب واحد أطلق عليه اسم : « حزب البعث العربى الاشتراكى » . وكان لاندماج الحزبين وتوحيدهما أثر فى تطور الأحداث التى مرت على البلاد ، وفى الإسراع بتقويض دعائم عهد الشيشكلى ، والقضاء عليه .

الانقلاب على الشيشكلى

وعمد الشيشكلى إلى اعتقال فريق كبير من زعماء البلاد ، وزجّهم فى السجون والمعتقلات ، وكان لهذا العمل الطائش يد طولى فى الإجهاز عليه .

وثارت حمية الجيش ، وتحركت نخوته ، واحتكم إلى عزيمته ووطنيته ، وأعلن الثورة فى حلب . وكان لثورته صدى بعيد استجابت له البلاد بسرعة ، ولبى أبناؤها النداء . وتحركت قطعات الجيش فى كلّ مكان ، تؤيّد الدعوة وتدعمها ، وتعلن الثورة على الطاغية السفاح .

واضطر أديب الشيشكلى للاستقالة من رئاسة الجمهورية ، والهرب من سورية فى أواخر شهر شباط سنة ١٩٥٤ ، ولم تجد المحاولات اليائسة التى بذلت لإبقاء « عهده » ، وذهب « العهد » مع « صاحبه » إلى غير رجعة ، وإلى الأبد .

عودة الأوضاع الدستورية

عادت الأوضاع الدستورية كما كانت عليه سنة ١٩٥١ بعد هرب أديب الشيشكلى من سورية . وعاد رئيس الجمهورية — هاشم الأتاسى — إلى سُدة الرئاسة . وعاد مجلس النواب إلى الانعقاد . وألف صبرى العسلى أول وزارة فى العهد الجديد .

وكانت الدلائل كلها تشير إلى أن الأوضاع قد عادت إلى الاستقرار ، وأن البلاد مقبلة على عهد دستورىّ ديمقراطىّ ، لا تشوبه شائبة ، ولا يعكّر صفوه معكر . وكانت السنوات الأربع التى تلت الانقلاب الأخير ، سنوات ازدهار واستقرار ، ورخاء وهناء . كانت سنوات خير ويُمْن ، مهدت لقيام الجمهورية العربية المتحدة وانطلاق الفكرة العربية — كالإعصار — تقتحم السدود والحدود ، وتصرع كل عميل ودخيل .

الثورة المصرية

فى ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ قامت الثورة على مصر ، ضد الفوضى والظلم ، وعلى الملكية والطغيان .

وكان قيام الثورة حدَثاً تاريخيا عظيماً . كان نقطةَ انطلاق نحو التحرر من الاستعمار ، ونحو تحقيق فكرة القومية العربية المنشودة .

ويوم تُؤرِّخ الأحداث الفاصلة فى التاريخ ، ستكون الثورة المصرية واحدةً منها.

ولم تكن الأسرة المالكة فى مصرَ أسرةً مصرية ، وإنما كانت أسرةً أجنبية ، لا تربطها بالعرب أية رابطة قومية ، ولا تصلها بهم أية صلة . بل إن الفكرة العربية قد تقلصت فى عهد هذه « الأسرة » ، ونشطت الدعوة إلى الفكرة « الفرعونية » ، وإلى إحلال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية .(١)

وإذا كانت الأسرة « المالكة » قد شجعت سابقاً الأدباءَ العربَ الذين هاجروا من سورية ولبنان إلى مصر ، فراراً من ظلم الأتراك وضغطهم على الحريات ، فما ذلك إلا لدوافعَ شخصية ، وطموح ذاتىّ ، بقصد التقرب من العرب وتقوية الجبهة المناوئة لتركيا .

واستبدت أسرة « محمد على » بالشعب استبداداً لا مثيل له . وكانت تنظر إلى الشعب المصرىّ نظرة السيدّ إلى العبد . وساعدها على الظلم والاستبداد ميوعة بعض السياسيينّ المصريّين ، واستكانتهم وخنوعهم . وإغراقهم فى ميدان التنافس والتناحر والخصومات .

وكانت تتحول خيرات « النيل » إلى جيوب « العائلة المالكة » ، وبعض « الباشوات » ينفقونها فى مصايف أوربة وأنديتها ، ويتركون وراءهم عشرين مليوناً من الشعب المصرى يعيش على الكفاف ! !

وكانت أوربة كلها تتحدث عن خلاعة الأغنياء المصريين وبذخهم وترَفهم وتصرفاتهم . . التى كان يستغلها أعداءُ العرب للدعاية ضد مصر والعرب . وكأن المتنبى حينما وصف « كافوراً » وحاشيته ، كان يقصد « فاروقا » وزمرته :

نامتْ نَواطيرُ مصر عن ثعالبها فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيد

والأسرة التى كانت « مالكة » فى مصرَ ، هى التى قادت الاحتلال إلى مصر . . .

---

(١) كانت أسرة محمد على لا تتكلم إلا باللغة التركية أو الفرنسية ! وكان أفراد هذه الأسرة ينعتون بالتأخر كل من يتكلم منهم باللغة العربية ! فتأمل !

والخلافات العميقة المتأصّلة بين الأفراد والأحزاب ، هي التي أدت إلى بقاء الاحتلال ، وأخرت جلاءَ الجيوش الأجنبية عن أرض الكنانة . .

وحينما تقدمت الحكومة المصرية بشكواها إلى مجلس الأمن أبرق الحزب المعارض إلى ذلك المجلس يقول له إن الحكومة المصرية الحالية لا تمثّل إرادة الشعب المصريّ ! ! وكان موقفاً نابياً ضحك منه كثيرون ، وسخر به كثيرون ، فالخلافات في بلاد الناس ، لا تتعدى القضايا الداخلية ، ولا يمكن أن تصلَ إلى القضايا القومية ، والأهداف الوطنية .

ولكنها كانت في عهد فاروق لا تفرّق بين القضايا القومية والداخلية . كان النفوذ والاستغلال طابعَ ذلك العهد ، إلا مَن عصم ربك ، وهؤلاء قليلون .

وإذا كانت الأحزاب لا تتفق حتى على القضايا القومية ، ولا تجتمع كلمتها حتى على مصلحة البلاد العليا ، فأي فائدة منها ، وأي خير يُرجى ويؤمل ؟

وأشعّ بارق الثورة يبدّد الظلمات ، ويُضيءُ مشعل الحرية .

وقامت الثورة .. تحرّر عشرين مليوناً من ربقة العبودية والظلم والاستبداد ، وتُعلن الحرب على الجهل والفقر والمرض ، وعلى مسببي الجهل والفقر والمرض .

وأطاحت بالملَكية . وحددت الملْكية الزراعية ومكنت ملايين الفلاحين من أن يصبح لهم أرض يستثمرونها ، وبيوتٌ يملكونها ، وكراماتٌ يصونونها ويرعوْنها . وأجلت الجيوشَ الأجنبية عن أرض مصرَ والسودان ، بعد أن دام احتلالها لهما سبعين عاماً . وجعلت شعبَ مصرَ سيداً لا عبداً ، وحرّاً لا مستعبداً ؛ وصارت مصر مثلا للكفاح ، ورمزاً للبطولة . وصار اسمها واسم جمال عبد الناصر محررها على لسان ألفي مليون من البشر ، يردّدونه بمنتهى الإكبار والإعجاب .

وصدر الدستور المصري وفي مستهله : « الشعب المصري جزءٌ من الأمة العربية » . وكان فتحاً جديداً ، ونصراً مجيداً . وامتداداً للتاريخ ، وصفعة قويةٌ للشعوبيين ، الذين يسعون إلى تهديم القومية العربية وتحطيمها .

وحاول بعض رجال الثورة أن يعترضوا طريق الثورة ، فجرفهم التيار ، وأقصاهم عن الطريق ، واستمرت الثورة في سبيلها ، حثيثة الخطى ، شديدة القوى ، عاملةً مخلصةً مؤمنة .

والثورة هي جمال عبد الناصر . وجمال عبد الناصر هو الثورة . فقد برز بها ، وانتصرت به . فهو عنفوانها وترجمانها ، وقلبها ولسانها ، وعقلها وبيانها .

وهزّت الثورة المصرية عواطف المغتربين العرب ، مثلما هزت عواطف المقيمين . ونشرت في آفاقهم بشائر الأمل بالمستقبل ، وطلائع الزحف العربيّ المقدس .

وما أروع وأبدعَ قولَ الشاعر المغترب إلياس فرحات :

ألا حدثونا عن القاهره — وعن وثبة « الناصر » الباهره
أمصر استفاقت « نواطيرها » — وفرّت « ثعالبها » الماكره ؟
أفاروقُ زالَ وكابوسه — وسائرُ آلاته العاصره ؟
هنيئاً لمصرَ بهذا النضال — ومَرْحَى لأسيافها الباتره

المطالبة بعودة القوتلي إلى البلاد

وارتفعت في البلاد أصوات كثيرة تطالب بعودة الزعيم القوتلي .

وطار إلى الإسكندرية وفد كبير من مختلف الشخصيات السياسية ، يتقدمهم المطران حريكة ، يرجون فخامته تلبية رغبة الشعب ، والعودة إلى مركز زعامته ، ومقرّ قيادته ، وأن اليوم غير الأمس ، وحالة البلاد تتطلب تضافر جهود المخلصين ، وأبنائها العاملين . .

ولبى فخامته الدعوة ، وقبل الرجاء . وعاد إلى دمشق ، فاستقبل فيها استقبالا يليق بمكانته الرفيعة ، وشخصيّته الكبيرة . وازدحم المطار ، والطرُق المؤدّية إليه ، بألوف المواطنين هرعوا إليه من كل حدب وصوب . وكان بيته قبلةَ الزوار ، لا يجد الإنسان فيه موطئاً لقدم ، من كثرة الازدحام .

وكانت البلاد مقبلةً على انتخابات جديدة . ورغب فخامته أن تجتمع كلمة الأحزاب والمستقلين على قوائم موحدة ، حتى تتفادى البلاد تصدعاً وانقساماً قد ينجم عنهما صراع لا تُحمد عقباه .

ورحب المواطنون جميعاً بهذه الرغبة السامية ، تصدر عن القلب الكبير الطافح بالرحمة والحنان . وأوشكت المساعي الكريمة أن تنجح ، لولا أنها اصطدمت آخر الأمر بعقبات عرقلتها ، وأحبطتها ! !

وسحب القوتلي وساطته . وأعلن حياده ، وقفل عائداً إلى مصر ، حيث كانت أسرته الكريمة ما تزال فيها .

وأسفرت الانتخابات عن تشكيلة عجيبة غريبة . وجاء إلى الندوة النيابية أشخاص ذوو ميول متناقضة ، وأهداف متباينة، واتجاهات مختلفة متغايرة .

وتحالف الحزب الوطنيّ ، وحزب الشعب ، وبعض المستقلين ، على تشكيل حكومة برئاسة فارس الخوري .

وانتخبَ ناظم القدسي رئيساً لمجلس النواب . وأثبت عن كفاية وجدارة وألمعية . وبرهن أنه من أقدر رؤساء المجالس النيابية على إدارة الجلسات .

وانتخب رفيق بشور نائباً أول لرئيس المجلس ، طيلة مدته التي استمرّت أربع سنوات — مما يدلّ على الثقة التي كان يتمتعّ بها بين أوساط النواب . والتي يُؤهله لها خلقه ، وكفايته ، وتهذيبه الرفيع . ورأس رفيق بشور الوفود البرلمانية التي زارت روسيا وتشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا وألبانيا ، وهنغاريا ، وبلغاريا ، وإيران وباكستان .

مؤامرات الأحلاف العسكرية

وحفلت هذه الفترات بأحداث جسام .

فقد كثرت المؤامرات الاستعمارية على سورية . وكانت تجد لها صدًى في نفوس الخونة المارقين . وظلاً في أوكارهم وأعشاشهم ، واستجابةً ، من كلّ تواق إلى الشهرة عن أيّ طريق ، وساع لمنفعة عن أي سبيل .

وفي كل بلد يوجد « يهوذا » — ضَعة ، ولؤماً ، وخيانةً ، ودَناءَة . .

وكان الجيش يقف دائماً بالمرصاد . يبلغ الرّسالة ، ويؤدي الأمانة ، ويحول بين الخونة وما يريدون ، والاستعمار وما يسعى إليه .

لقد كانت عينه ساهرة ، ونفسه صابرة ، وعزيمته الجبارة كالحديد — بل كان دونها الحديد قوةً وصلابةً وبأساً . وكان الجيش يستند في مقاومته إلى الشعب . وكان الشعب يستند في كفاحة إلى الجيش . وحينما يتعاونان معاً — الجيش والشعب — يكون الظفر لهما والغلبة لقضيتهما . وهما متعاونان دائماً وأبداً ، لأن الجيش من الشعب ، ولأن الشعب كله من الجيش .

وأحبط الجيش كثيراً من المؤامرات ، وقضى عليها . واكتشف أسرارها ، وهدم أوكارها ، وأعلن للملأ أخبارها . فكان أهلا للثقة به ، والاعتماد عليه ، وحريّاً بالفخر والإعجاب ، والتقدير والاعتزاز . كما قال بدويّ الجبل :

جيشكَ الجيشُ — لوَ تنكرَ للنو　　　م لضاقتْ به جفونُ الرقودِ
فإذا هجتهَ ترنَّحت الأعـ　　　ـلامُ وازّينتْ لفتح جديدِ
وإذا هجتهُ تلفتّت الدنـ　　　ـيا وهمّتْ أفلاكُها بالسجودِ

اغتيال العقيد عدنان المالكي

وامتدت يد الاستعمار إلى الجيش .

و « استأجرت » لها يداً لئيمة ذميمة .

واغتالت « عدنان المالكي » .

وسقط عدنان فى الميدان ، ميدان الشرف والكرامة . ميدان البطولة والتضحية ، ميدان الوطنية والقومية العربية .

وسال دمه الطاهر نديًّا زكيًّا ، يسقى شجرةَ الحرية ، ويروى تربتها المعطاء . يزيدها خصباً ونماءً ، وظلاً وفيئاً ، وعطراً وشذًى ، وامتداداً فى الأرض ، وصعوداً فى السماء .

وكان « عدنان المالكى » أغنية يردّدها الجندىّ فى ميدان المعركة ، فيزداد بها حماسةً ، ويزداد بها مضاء ، ويزداد بها ثقةً وإيماناً .

كان اسمه « نشيداً وطنيًّا » ، ومجداً قوميًّا ، وعزًّا تليداً ، ومستقبلا مجيداً .

كان شبابه مُخصباً ممرعاً ، خيّراً معطاءً .

ولم يكن عدنان عدنانَ الفرد ، وإنما كان عدنانَ الجيش . يمثلُ الجيشَ باعتداده واعتزازه ، بشموخه وطموحه ، بأنفته وإبائه ، وعزته وكبريائه .

ومات عدنان .

مات شهيدَ الواجب والحقّ . شهيدَ الوطنية والقومية .

وأصبح رمزاً . .

وأصبح من الخالدين .

ودخل التاريخَ من بابه العريض .

وأما القتلة السفاكون ، أعداءُ القومية العربية المجرمون ، فقد حلت عليهم لعنة التاريخ ، وغضبة الأجيال .

وانتصر الجيش . .

انتصر بعدنانَ فى حياته ؛ وانتصر به بعد مماته :

أنتَ كالحقّ ألِفَ الناسَ يَقظا　　　نَ وزادَ ائتلافهم وهو نائمْ

قد بَعثتَ القضيةَ اليومَ ميْتا　　　رُبّ عظمٍ أتى الأمورَ العظائم

الشعب يوجه سياسة البلاد

ولم يترك الاستعمار باباً إلا ولجه ، ولا سبيلا إلا سلكه . وكانت تتحطم محاولاته ، وتبوءُ بالفشل مؤامراته ، ويحمل الخزىَ والعار عملاؤُه ودعاته .

وتبقى القومية العربية مكينةً متينة ، والحرية غاليةً مصونة ، والاستقلال قَوى البنيان ، منيعَ الأركان ، والشعب متماسكاً متساندا قويًّا صامداً .

وتنهزم قُوى الرجعية والاستعمار ، وتبوءُ بالفشل والخذلان .

وهكذا انهارت مؤامرات الأحلاف العسكرية ، فى شتى أساليبها ووسائلها ، صوَرها ومظاهرها . وخرجت سورية من معاركها كلها رافعةَ الرأس ، ناصعةَ الجبين .

وصمدت سورية . صمدت فى وجه المؤامرات العسكريّة ، والمؤامرات السياسية ، والمؤامرات الاقتصادية . وتحملت هذه الأخيرة بصبر وجَلد عجيبين . وتحطمت على صخرة إيمانها وعزيمتها كل المحاولات والمناورات والمؤامرات .

وكان الشعب يُراقب قضيته بعين ساهرة يَقظى . ويتولى بأقلام كتابه ، وجرأة خطبائه ، شؤونَ وزارة الخارجية هجوماً ودفاعاً . ويضطلعُ بأعبائها ، وتحمل مسؤولياتها . فكان يُجيب بالمظاهرات على المذكرات ، وبالاجتماعات على البيانات والمؤامرات .

ولم تعدْ هناك « كواليس » ، فقد تبخرت أسرارها ، وكشف ستارها ،

وكان الشعب يطلع على كل « شيء » من أخبارها . ويسمع بكل حركة صادرة أو واردة ، سلبية أم إيجابية . ويعرف مصدرها وباعثها ، فيشهر بكل خائن ، ويهتف باسم كل شريف .

ودلت ضبوط جلسات الجامعة العربية — التى نشرت أخيراً فى الأهرام — على أن موقف الحكومة السورية لم يكن سليما . . فقد كانت تحيط به الشبهات ، ويكتنفه الغموض ، وأن الناس كانوا معذورين فى شكوكهم بها ، واتهامهم إياها ، وحملاتهم عليها ، فبالرغم من قرار مجلس النواب برفض جميع الأحلاف العسكرية ، كان رئيس مجلس الوزراء ووزير خارجيته ، يقفان فى الجامعة العربية ، موقفاً لا يتفق مع توجيهات مجلس النواب ، وروح قراره الصريح ، ويحاولان إيجاد مبرر للعراق فى انضمامه إلى « حلف بغداد » ! وإيهام أعضاء الجامعة بأن مجلس النواب قد « يغير » اتجاهه ، ويعود عن قراره !

وكان الشعب يعرف كل شيء ويسمع بكل شيء ، فيخنق الصوت الذى يرتفع ضد إرادته ، ويعمل ضد مصلحته ومشيئته .

وكان مجلس النواب « يحاسب » كل من يحيد عن الطريق التى رسمها له ، أو ينحرف عنها . وبالرغم من اختلاف وجهات النظر ، وتباينها فى كثير من الأمور ، فقد كان موقف مجلس النواب سليما ، وكانت تصدر قراراته فى السياسة الخارجية والقضايا القومية بالإجماع .

واستقالت حكومة فارس الخورى . وانفرط عقد الائتلاف بين الحزب الوطنى وحزب الشعب .

وألف الحزب الوطنى ، وحزب البعث العربى الاشتراكى ، وبعض المستقلين ، جبهة رشحت صبرى العسلى لتأليف الوزارة . فكلفه هاشم الأتاسى بتأليفها ، وكان خالد العظم وزير الخارجية فيها . وانقسم الحزب الوطنى على نفسه بين مؤيد للاتجاه الجديد ، وبين معارض له ، وكان

صبرى العسلى ، وفاخر الكيالى من الداعين بحزم وإصرار للاتجاه الجديد وقد أيدتهم الأكثرية مما أدى إلى استقالة عدد من أعضاء الحزب الوطنى ومعارضتهم له .

سورية . . فى مؤتمر باندونج

وفى عهد هذه الوزارة عقد « مؤتمر باندونج » .

وكان « مؤتمر باندونج » فتحاً جديداً فى السياسة الدولية . ومن أهم الأحداث والتطورات التى حصلت بعد الحرب العالمية الأخيرة .

كان ضربة قاصمة للاستعمار ، وطعنة له فى الصميم . وصارت مقرراته مبادئ للشعوب المكافحة فى سبيل حريتها واستقلالها ، ونصراً لها وسنداً ، وفاتحة عهد جديد للدول الآسيوية الأفريقية ، ونقطة تحول فى تاريخ البشرية والإنسانية .

لقد كان « مؤتمر باندونج » خطا فاصلا عميقاً بين ماض مظلم أسود ، ومستقبل مشرق ، وضاء .

لقد جمع ثلاثة أرباع الدنيا حول فكرة واحدة ، فكرة التخلص من عبودية الغرب واستعماره واستئثاره .

وأيقظ شعوب آسيا وأفريقيا من سباتها التقليدى العميق . ورسم لها طريق الحرية ، ودفعها إليه . واشتركت كل الدول العربية فى المؤتمر . وناب فاضل الجمالى — مندوب العراق — عن « دالس » وزير الخارجية الأمريكية ! وكان الجمالى هذا أمريكياً أكثر من الأمريكيين أنفسهم .

وكانت سورية عضواً فى « المؤتمر » وقد مثلها فيه خالد العظم . وكان « عبد الناصر » رئيساً للجنته السياسية . ولعبد الناصر فضل كبير فى نجاح مؤتمر « باندونج » ، وتغلبه على ما كان يعترض طريقه من صعوبات وعراقيل . .

معركة رئاسة الجمهورية وانتخاب القوتلى

وأشرفت مدة هاشم الأتاسى ، رئيس الجمهورية ، على الانتهاء . واتجهت الأنظار إلى شكرى القوتلى من جديد . وطارت مرة أخرى وفود شعبية إلى مصر تطلب منه العودة إلى دمشق . فكلما حزب الأمر ، واشتد الخطب ، وادلهم الأفق ، ليس هناك إلا شكرى القوتلى : أملا ، وغوثاً ، ورجاءً .

ولم يخيِّب أمل الوافدين ، فعاد معهم إلى دمشق . وزحفت المدينة كلها إلى المطار والطرقات ، تستقبل الزعيم العائد ، معقد الأمل والرجاء .

ولم تشهد دمشق فى تاريخها الحديث حفاوةً أروعَ ، ولا أضخم ، من الحفاوة التى استقبل بها شكرى القوتلى . ولا حفلات آنقَ وأسخى وأضخم من الحفلات التى أقيمت له بعد عودته من مصر ، والتى كانت بُرهاناً على تعلق الشعب به ، وإجماع الكلمة عليه .

وكان المرشحون لرئاسة الجمهورية كثيرين : خالد العظم ، ناظم القدسى ، صبرى العسلى ، لطفى الحفار . وشكرى القوتلى جالس على أريكة الزعامة ، لا يأتى بحركة ، ولا يبذل أى نشاط . بل لا ينبس ببنت شَفة تدل على رغبته فى منصب الرئاسة وسعيه إليها .

ورغم أن الدعوة كانت ما تزال قائمةً له ، والكثرةَ النيابية متجهة نحوه ، فقد صرح فى حفلة الهيئات الشعبية فى فندق سميراميس ، قبل موعد انتخاب رئيس الجمهورية ببضعة أيام ، أنه راغب عن ترشيح نفسه ، وأعلن عن اعتذاره واعتزاله .

ومما قاله بعد خطاب جامع طويل :

« أحاطنى كثير من إخوانى أثناء وجودى فى مصر ، وبعد عودتى منها ، بأجمل عواطف الودّ والإخلاص والشعور النبيل . وزارنى عدد غير قليل من

مختلف البلاد السورية ، وطلب منى هؤلاء جميعهم أن أتقدم إلى ترشيح نفسى لمقام رئاسة الجمهورية . فكنت أجيب الجميع إن أمر انتخاب الرئيس هو من حقوق الشعب الذى يمثله أعضاء مجلس النواب المحترمون . وإنى لست براغب فى منصب رئاسة الجمهورية . بل إننى راغب عنها ، ولا أميل إلى ترشيح نفسى لها . وهأنذا أعيد هذا الجواب الآن على ملأ منكم ، متوجهاً إلى حضرات النواب الذين يشرفوننى بحسن ظنهم ، ويضعون ثقتهم بى ألا يتحملوا أعباءَ وضع اسمى فى قائمة المرشحين لمنصب الرئاسة الأولى شاكراً لهم حسن ظنهم وثقتهم . داعياً إياهم إلى أداء هذه الأمانة الغالية ، التى وضعها ناخبوهم فى أعناقهم ، بأن يعودوا إلى ضمائرهم الحية ، ويتقدموا على انتخاب الرئيس مُختارين الأصلح لهذا المقام الأسمى من الذين خبرتهم الأمة فى أيام النضال والكفاح . وممن عُرفوا بالإخلاص والتضحية والتجرد وإنكار الذات . واتصفوا بالكفاية والدفاع عن حق الوطن الأقدس . راجياً أن يكون بذلك ضمانة قوية تسير البلاد نحو سعادتها ورفاهها وتأمين استقرارها من الداخل . وإلى إعلاء رايتها وكلمتها فى العالم الخارجى .

ما عزفتُ أيها الإخوان عن قبول ترشيح نفسى للرئاسة الأولى لرغبة الابتعاد عن خدمة الأمة عن طريق هذا المنصب السامى . وأنا الذى نذرت نفسى لخدمته ، منذ نيف وأربعين عاماً ، لم أتخاف فيها يوماً عن أداء ما يلزمنى نحو وطنى وبلادى » .

ووجم الناس . ورانَ على القاعات الفسيحة صمتٌ ، وكآبةٌ وأسًى ، وجمدت الابتسامات على الشفاه ، والنظرات على الجدران . وخيم على الحفلة جو كئيب . وكانت المفاجأة صاعقةَ الوقع على جميع الناس .

والناس يعرفون شكرى القوتلى . ويعرفون عفته وإباءه ، وعزوفه عن جميع المغريات ، فكانت المفاجأة شديدةً على آمالهم وأمانيهم ، ومطالبهم ورغائبهم .

وكان صدى هذه المفاجأة عظيماً . وفُسحَ المجالُ أمام المرشحين الآخرين ، بعد أن تخلى عن الميدان ، أوفرهم حظًا ، وأكثرهم نصيبًا ، وأقواهم أملا بالنجاح ، ومع هذا فقد أعلن ثلاثة منهم انسحابهم من الترشيح متأثرين بمثالية القوتلى . وبقى خالد العظم حتى النهاية .

وتشبُّث النواب بترشيح القوتلى له مدلول عظيم . فالقوتلى كان قد أزيح من رئاسة الجمهورية بأسلوب غير دستورى ، وكانت إزاحته امتهاناً لكرامة الشعب ، وخرقاً فاضحاً للدستور ، بل إن الدستور الذى جاء مع القوتلى قد زال بزواله .

وللقوتلى خدمات كثيرة ، وأياد بيضاء ، وإن من العقوق أنْ يُجحد فضلهُ وأن تنكر أياديه . وإخراجه من الحكم على تلك الصورة ، التى طعنت الكرامة وجرحتها ، يسيء إلى سمعة بلاده وينال منها . وإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية إعادة حقٍ له سُلبَ منه ، وتكفيرٌ عن خطيئة ، وغسل وصمة عار . . .

والشعوب الحرة لا تنام على ضيم ، ولا تقبل بالهوان . وكان من الضيم والهوان ألا يعود القوتلى إلى سُدة الرئاسة ، وقد سنحت الفرصة ، وزالت العقبات ، فضلا عن أنه كان ينظر إليه الشعب وهو فى القمة من النزاهة ، والذروة من الإخلاص .

وهذا هو المغزى العميق الذى زاد فى تشبث النواب وإصرارهم على انتخاب القوتلى رئيساً للجمهورية ، مع تقديرهم لمزايا المرشحين الآخرين ، وكفاياتهم .

ولما كان الانتخاب لا يتطلب تقديم تصريح بالترشيح — كما هى الحال فى الانتخابات النيابية — فإن النوابَ يستطيعون انتخاب من يشاؤون لرئاسة الجمهورية ، سواءٌ أرضى بذلك ، أم لم يرض ، وسواء أوافق سلفاً أم لم يوافق . وحينما تظهر النتيجة لا بد له من القبول ، والنزول عند رأى الشعب .

وخُيِّلَ للناس أن القوتلى إنما آثر العزلة ، وأعرض عن الترشيح ، حينما رأى

الانشقاقَ فى صفوف النواب ، وخشىَ مغبته على البلاد . فأما إذا أرادت الكثرة النيابية ترشيحه ، وأصرت عليه ، فالكلمة حينئذ تكون للأمة — التى هى صاحبة القول الفصل .

وحصل الاقتراع السرّى فى ١٨ آب سنة ١٩٥٥ . وفاز شكرى القوتلى برئاسة الجمهورية . ونال من الأصوات ما يقرب من الثلثين . ونال خالد العظم ما يقرب من الثلث .

ووقف العظم بعد ظهور النتيجة ، يهنئ القوتلى على ثقة النواب به ، وانتخابهم إياه .

وامتدت الأعراس زمناً طويلا . وغمر الابتهاج نفوس الناس ، حتى كانوا فى الطرقات يهنئون بعضهم بعضاً .

وفى ٦ أيلول سنة ١٩٥٥ تسلم الرئيس القوتلى صلاحياته بعد أن أدى القسم الدستورى فى مجلس النواب . وقد أعدت وثيقة وقعها فخامته ، وفخامة السيد هاشم الأتاسى ، ورئيس مجلس النواب ، ورئيس المحكمة العليا . وكان فخامة الرئيس القوتلى قد ألقى فى مجلس النواب ، بعد أدائه القسم الدستورى خطاباً قوميا جامعاً جاءَ فى مُستهله :

« أيها النواب الكرام :

فى جلسة سابقة عقدها مجلسكم الموقر ، دعوتمونى مرةً جديدةً إلى القيام بأعباء رئاسة الجمهورية . وقد وجه إلىّ دولة رئيسكم على أثر الانتخاب كلمات طيبة ، وأمانى صادقة . فإليكم جميعاً خالص الشكر على جميل ثقتكم التى أوليتمونى إياها بعد أحداث متتالية مرت فى هذه البلاد . أما الذين توجهوا باختيارهم إلى مرشح سواى ، (ويؤسفنى أن لا يكون اليوم حاضراً هذه الجلسة بسبب مرض ألم به) فقد قاموا بعمل هو من طبيعة الحياة الديمقراطية العريقة ، ومألوف التقاليد الجمهورية الأصيلة . ولهؤلاء وأولئك منزلة واحدة بحكم المهمة الخطيرة الملقاة على عاتقى باسم الأمة » .

« وإنى الآن ، وقد طويت صفحة الانتخاب ، لأود من صميم قلبى أن تتجه الأحزاب والهيئات نحو اتحاد قومى ، فى هذه الأزمات الصعاب التى نواجهها نحن، ويواجهها العالم العربى بأسره . فيشد بعضنا أزر بعض فى العمل على إسعاد وطننا ، ورفع مستوى شعبنا ، وإدراك المثل العليا التى تستهوى أفئدتنا ، ونتطلع من خلالها إلى إنشاء مجتمع يسوده الحق والعدل والإخاء » .

« أيها النواب الكرام :

قد تتساءلون عن البرنامج الذى وضعته لنفسى ، وقررت اتباعه ، والاهتداء به ، فأقول إن هذا البرنامج قد تلوته منذ قليل . إنه فى القسم الذى أشهدت الله عليه ؛ وآليت على نفسى أمامكم ألا أدّخر جهداً فى سبيله ، هو التمسك بالدستور ، رمز سيادة الأمة ، وعنوان ضميرها القومى ، واحترام القوانين ، والمحافظة على حريات الشعب ، ومصالحه وأمواله ، والإخلاص للنظام الجمهورى فى السر والعلن . وحماية استقلال الوطن ، وسلامة أرضه . وتعزيز قوانا الدفاعية ، التى تُوكل إليها هذه المهمة المقدسة ، والسعىُ لتحقيق وحدة البلاد العربية التى تربط بينها أوثق الصّلات ، وأبقاها على الدهر ، حتى تُصبح أمنيةُ اليوم حقيقةَ الغد » .

« ولا يخامرنى شك فى أن تطبيق النصوص الدستورية تطبيقاً صحيحاً ، يجعل فى متناول أيدينا أجدى الوسائل التى تستهدف استقرارَ الأوضاع فى البلاد ، وضمان حقوق الأفراد والجماعات ، وافتتاح عهد جديد تتعاون فيه سلطات الدولة ، وتضطلع بواجباتها فى خدمة الأمة ، وتأمين الرغد والرخاء لجميع طبقاتها ، ولا سيما الطبقات العاملة الكادحة ، التى يجب أن تنال حقها كاملا من العدالة الاجتماعية ، والكرامة الإنسانية » .

إن الرئاسة للقوتلى شىءٌ طبيعى ؛ لا مُستغرب ولا مُستكثر ؛ وقد رأيتَ كيف أعرَضَ عنها ، وعزف عن قبولها ؛ وأنه حمل عليها حملا واختير لها من بين مرشحين عديدين .

إن الكراسى لا تشرف الرجل، ولا ترفعه ، وإذا لم يكن أهلا لها فربما تنزل به ، وتضعه . والرجل العظيم هو الذى يُضفى عليها من شخصيته ما يكسبها مهابةً وجلالا ، وعظمةً ومجداً. إنها تُكَأَةٌ له، ووسيلةٌ لإظهار قدرته وإمكانياته ، وإبراز شخصيته وكفايته . فإن كان أهلا لها سَمَا بها ، وسمَت به ، وإن لم يكن أهلا ، شهّرته وفضحته ، وكشفت معايبه وأظهرت نواقصه .

وشكرى القوتلى لم يرتفع حينما انتخبَ رئيساً للجمهورية . ولم ينزل حينما استقال من رئاسة الجمهورية .

مكانته هى مكانته ، ومركزُه هو مركزُه . وشخصيته الرفيعة ظلت كما هى ، لم ترتفع ، ولم تنخفض، لأنه يستمد عظمتها من نفسه ، لا من منصبه ؛ ومن روحه لا من مركزه :

لم يُؤثروك بها إذ قدموك لهـا ... لكن لأنفسهم كانت بك الإثرُ

الميثاق القومى

كان التناحر السياسى ، بين الأحزاب والكتل النيابية ، قد وصل إلى حدٍّ بدأ يعرقل أعمال السلطة التنفيذية ، ويحد من نشاطها، ومن قيامها بواجباتها، ويحول بينها وبين الانصراف الكلىّ لمعالجة القضايا القومية ، التى تتعرض لها البلاد ، والتى تهدد كيانها ومستقبلها بمصير غامض مجهول .

وكانت مؤامرات الأحلاف العسكرية تُحاك ضد البلاد سرّاً وعلناً ، والأزمة الاقتصادية تزداد حدةً وشدة .

فى هذا الجوّ المضطرب المحموم ، والوضع الذى كان يزداد سوءاً يوماً عن يوم ، وَجّه السيد شكرى القوتلى ، رئيس الجمهورية ، رسالة[1] إلى مجلس النواب يدعو الأحزاب ، والكتل النيابية ، إلى عقد « ميثاق قومى » ،

(١) وجهت الرسالة فى ١٥ شباط سنة ١٩٥٦ .

يجمع شملها ، ويوحّد كلمتّها ، ويصرفها عن التناحر والتنابذ إلى العمل الجدى المنتج .

وُنثبت هنا بعض مقاطعَ من هذه الرسالة :

« حضرات النواب المحترمين :

عندما شرفنى مجلسكم الكريم بانتخابى رئيساً للجمهورية ، ودعانى فى جلسة السادس من أيلول سنة ١٩٥٦ إلى أداء القسم الدستورىّ ، كان أول ما وجهته يومئذ إلى الشعب عن طريق مجلسكم إعلان رغبتى فى أن تتجه الأحزاب والهيئات نحو " اتحاد قومى" فى هذه الأزمات الصعاب التى نواجهها نحن ، ويواجهها العالم العربىّ بأسره ، فيشد بعضنا أزر بعض فى العمل على إسعاد وطننا ، ورفع مستوى شعبنا ، وإدراك المثل العليا التى تستهوى أفئدتنا .

وإذ أعود اليوم مستوحياً واجبى ، ونداءَ ضميرى لأخاطبكم ثانية ، أنتم يا رجال هذا الوطن ، ويا ممثلى شعبه الحرّ الأبىّ ، الذين وضعتم فى عنقى أمانةً أغلى من دم القلب . فلكى أذكركم بما دعوت إليه ، وقبالة عينى ذلك القسم الدستورىّ المقدس ، الذى تلوت صيغته أمامكم وفيه عهد على عظيم بأن أبذل جهدى وكل ما لدى من قوة للمحافظة على استقلال الوطن ، والدفاع عن سلامة أرضه .

وهأنذا معكم مرةً جديدةً فى رحاب هذه الدعوة التى افتتحت بها مباشرةَ السلطات الدستورية منذ اليوم الأول . وما تزال الحاجة إليها تتضاعفُ يوماً بعد يوم خلال خمسة أشهر مضت .

أيها النواب المحترمون :

إن يكن من طبيعة الحياة الديموقراطية ما نرى من تجاذب وتدافع مستمرين ، يحدوهما تنافسٌ شريف فى ميدان الخدمة العامة ، فإنه من حقّ

الديموقراطية على جميع الأحزاب والهيئات فى نطاق الوطن الواحد . أنْ تأخذَ بأسمى الاعتبار معانىَ الديموقراطية بكلّ ما فيها من سماحة وتسامح . إذ لا تُكتب الحياة للحرية نفسها إلا فى رحاب ديموقراطية قائمة على روح التسامح الوطنى . وإننى مع يقينى العميق بأن الديموقراطية هى بالروح وبالممارسة ، فى ضمير وتصميم كل حزب أو كتلة من أحزابنا وكتلنا فى هذا المجلس ، فقد كان نصب العين أبداً أن بلادنا تجتاز مرحلة شاقة من مراحل تاريخها ، بل إنها أمام مصاعب لا بد لها أنْ تَمُد فوقها الجسور الراسية من شجاعة الرجال ، وعزائمهم ، وتكاتف سواعدهم ، ولا مجال للجاج والخصومة والنزاع أمام الشدائد والمكاره .

فلا بد لنا إذن أيها السادة من أن نشعر حق الشعور بما يحيط بنا ، ويتربص لنا . وأن نعيد صياغة كياننا الوطنىّ صياغةً مرصوصةً تجابه الأحداثَ وتشحذُ الشعورَ بها ، والاستعداد لها . ولقد طالما استرشدتُ بوعى هذا الشعب المجاهد ، وحكمة رجاله ووطنيتهم ، عندما كررت دعوتى مرة تلو المرة ، إلى رجال الأحزاب والهيئات خلال الأشهر القليلة الماضية ، داعياً إياهم إلى الالتفاف حول مبادئ ، نضالية رفيعة ، تجمعها مواد ميثاق قومىّ ، لا سبب إلى الخلاف حولها ، لأنها فى الواقع فى مقدّمة كل برنامج حزبىّ ، وفوق أىّ اعتبار شخصى . ولم أكن ألقى من رجال الأحزاب المسؤولين خلال مباحثاتى معهم أىّ إعراض عن فكرة "ميثاق قومى" ، تسترشد به الحكومات ، وإن لم أقعْ بنتيجة اتصالاتى على أعمال محسوسة تبرز إلى الميدان العامّ على أنى مع كل مسعىً ، ومع كل مكاشفة ، كنت أزداد وثوقاً من أن حكمة القادة ستتلاقى مع وطنيتهم فى مرحلة من مراحل الشوط فتتعاقد الأيدى ، وتتصافى القلوب .

أيها السادة :

تتحدثون وتتحدث مجالس الشعب عن وضع يتفاقم شره على مقربة من

حدودنا ، والخطر لم يكن قط فى الماضى بعيداً ، وأمره لم يكن أبداً فى منأى عن تقديركم ووعيكم . فالحديث عنه ليس بالحديث الجديد . ونوايا العدوان ليست مفاجأة من صلب الأحداث . . فالصهيونية التى رمت مرساها فى الأرض العربية المقدسة ، لا تنفك يوماً بعد يوم تمتد كالسرطان ، فى كل ما تراه أمامها ضعفاً وخوراً ، وأرضاً مفتوحة الثغرات . وليس تاريخها فى حياة العرب سوى سلسلة من وقائع العدوان والاغتصاب ، ومحاولاتها وتبييتها .

إن الصهيونية التى رمت فى أرضنا المقدسة جرثومة إسرائيل ، ومن ورائها روافد عالمية شتى ، مصدرها الخوف من انبعاث القومية العربية ، التى هى قوة حق وخير وحرية وسلام . لن تقوى بطبيعتها على الحياة إلا فى مطارح التوسع والامتداد . وليس فى طبيعتنا نحن سوى المقاومة الضارية التى لا وصف لها أبلغ من أنها مقاومة موت أو حياة .

فى ميدان الكفاح الرهيب لن يكون فى مواقعنا أمام العدو الغادر مواطن للضعف والخور ، والأرض المفتوحة الثغرات . فإن أردتم — والشعب مصدر هذه الإرادة العليا — فلن يقوم فى مواقعنا بوجه العدو سوى القوة الصامدة ، والإيمان القادر والمراكز المنيعة العزيزة .

أيها الإخوان الأعزاء :

لقد دعوتكم بجماعاتكم وأحزابكم إلى التضامن والتآزر والاتحاد فى حب الوطن واتقاء شر أعدائه . وأعود اليوم لأعلن هذه الدعوة على ملأ منكم فى ظروف دقيقة يُراد بها لنا ما لا يتفق مع مصلحة وطننا وكرامتنا . وما نحن لنهون على أنفسنا وعلى العروبة فى مختلف ديارها ومعاقلها ، لنخضع لما يُراد بنا ، أو ننجرف فى محاولات الترويض والإذلال .

إنها دعوة إلى نبذ المشادة الحزبية للالتفاف حول ما شئتم من مواثيق تنظيم وجهات نظركم ومناهج عملكم ، فيقف كل منكم أمام تبعاته الجسام ، وتقف جميع الأحزاب والجماعات المنظمة صفا واحداً ، بوجه أى سوء يُراد

لهذا الوطن . فليكن قادة الرأى فينا رجال قدوة حسنة فى مجالات هذا الشعب لنستحق ثقته وشرف الانتساب إليه .

إننى أدعو إلى وحدة الصف ، والعمل القومى ، والتهادن الحزبى ، إلى أجل من الآجال ، لكى يكون بإمكاننا أن نضطلع بمسؤولياتنا ، ونقف أمام حساب التاريخ غير هيابين ، ولا معذبى الضمير .

هذه دعوتى إليكم — يا رجال الوطن . وإننى لواضع نفسى فى الصفوف الأولى من المواضع التى تريدونها لوطنكم ، وتبتغونها لأنفسكم ، دفاعاً عن الحق والحرية والعزة والكرامة . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .

* * *

كان لدعوة الرئيس القوتلى إلى عقد « ميثاق قومى » بين الأحزاب والكتل النيابية ، صدى عميق فى نفوس النواب ، وبين جماهير الشعب . وكانت هذه الدعوة المخلصة حديث الناس ، وسبيلا لجمع الكلمة ، وتوحيد الصف .

واستجابت الأحزاب والكتل النيابية إلى طلب فخامته وتنادت إلى عقد « ميثاق قومى » ، يضع للحكومة منهاجاً تتمشى عليه وتتقيد به فى سياستها الداخلية والخارجية .

وبعد اتصالات واجتماعات استمرت بضعة أشهر أعلنت الأحزاب والكتل نص الميثاق القومى . ووافق عليه المجلس بالإجماع . وجاء فى مستهل الميثاق ما يلى :

« بناءً على الكتاب الموجه من فخامة رئيس الجمهورية المعظم السيد شكرى القوتلى إلى مجلس النواب ، والمتضمن نداءه إلى الأحزاب والكتل النيابية لجمع الشمل ، وتوحيد الكلمة ، فى هذا الظرف الذى تجتازه البلاد ، اجتمع ممثلو الأحزاب والكتل النيابية فيما بينهم على توحيد الكلمة — وفقاً للميثاق الآتى » .

وكان الميثاق ينص على :

« أولا : مقاومة الاستعمار والصهيونية وإسرائيل . وذلك بعدم الاعتراف باغتصاب فلسطين .

(ا) بمقاومة الصلح مع إسرائيل وإحكام مقاطعتها . ومقاومة مشاريعها التوسعية ، وكل سياسة تؤدى إلى ذلك .

(ب) بمناهضة الأحلاف العسكرية الأجنبية وكل سياسة تتجه فى هذا السبيل .

(حـ) بانتهاج سياسة الحياد الإيجابى بين المعسكرين الغربى والشرقى ، ودعم مقررات باندونج .

ثانياً : تحرير البلاد العربية وتوحيدها وذلك :

(ا) توسيع الاتفاق الثنائى مع مصر بعقد اتفاق بين الطرفين يشتمل على الشؤون الاقتصادية والسياسية والثقافية ، لتصبح هذه الاتفاقات نواة للوحدة العربية الشاملة ، بحيث تشمل مختلف النواحى التى يمكن توحيدها أو تنسيقها بين الطرفين » . . إلخ .

وبعد أن يعالج الميثاق القومى كل القضايا الداخلية والخارجية ، ويرسم لها طريقاً سويا — ينتهى بتعهد الأحزاب والكتل على تبنيه وتنفيذه : « تحقيقاً للتعاون الحزبى والسياسى فى البلاد تشكل لجنة تمثل الأحزاب والكتل النيابية لتوثيق التعاون فيما بينها ، والإشراف على تنفيذ هذا الميثاق القومى .

« وإننا نحن ممثلى الأحزاب والكتل النيابية إذ تم اتفاقنا على هذا الميثاق القومى نضرع إلى الله أن يسدد خطانا ويلهمنا من أمرنا رشداً » .

وألفت حكومة جديدة اشتركت فيها جميع الأحزاب والكتل النيابية برئاسة صبرى العسلى لتنفيذ « الميثاق القومى » وكان مشرع الميثاق بيانها الذى نالت الثقة على أساسه من مجلس النواب . وظفرت بأكثرية ساحقة، لم تظفر بمثلها حكومة سابقة .

ولأول مرة فى تاريخ الحكم الديمقراطى فى البلاد — يُوضع للحكومة منهاج تتمشى عليه ، وبرنامج تتقيد به ، أو مفروض أنها تتقيد به . وكانت البيانات الوزارية التى تطلب الحكومات الثقة على أساسها شكلية ، محشوة بالكلمات المنمقة ، والألفاظ المزوقة .. وهى — كما عبرت عنها مرة فى مجلس النواب — أشبهُ ما تكون بـ « إجازة المرور » التى يحملها المسافرون ، ومهمتها تمكينهم من العبور ، حتى إذا ما عبروا ، طرحوها أرضاً ومشوا .

لقد كانت بيانات الحكومة تشبه تلك الإجازات سواء بسواء . وأما بعد أن وُضع « الميثاق القومى » فقد أصبح للحكومة برنامج ومنهاج — وكان ذلك بدء عهد جديد ، لحكم جديد .

مؤتمر الأقطاب

واجتمع الأقطاب الثلاثة فى مصر : عبد الناصر ، والقوتلى ، وسعود ، وعقدوا مؤتمراً فى مدينة « أسوان » فى ١١ آذار سنة ١٩٥٦ وضعوا فيه أسس السياسة العربية المتحررة . وأصدروا بيانهم التاريخى برفض الأحلاف العسكرية جميعاً . وكان بيان الأقطاب صفعة شديدة الوقع على دعاة الأحلاف ومؤيديها . وباءت بالفشل كل مناورات « مندريس » ، واتصالات « نورى السعيد » ، ومساعى « إيدن » ، وجهود « دالاس » . ووقفت الأقطار العربية الثلاثة موقفاً صارماً عنيداً .

وكان موقف سورية أكثر حرجاً ودقة من موقف شقيقتيها ، فهى محاطة بالأعداء من كل مكان . كأنها معصم فى سوار ، أو عنق فى طوق ، وفى داخلها دعاة للأحلاف ، وأذناب للاستعمار ، بعضهم يعمل سرا ، وبعضهم يعمل جهراً . وفى داخلها يضطرب بركان، هو بركان الثورة على كل عميل، والنقمة على كل دخيل .

وكانت مصر ترعى حياد سورية الإيجابى، وتدافع عنه . ويقف عبد الناصر

إلى جانب شكرى القوتلى ، يخططان سياسةً واحدة ، ويشتركان معاً فى تنفيذها .

مصر — الثورة تحطم القيود

وبرزت مصر إلى الميدان الدولىّ ، قوةً جبارةً لها أثرها وخطرها . وتحدت الحصار الذى ضربه الغرب حولها ، واخترقته . واتجهت نحو الاتحاد السوفياتى تشترى منه السلاح والعتاد .

وكانت صدمةً قويّةً للغرب ، ما يزال يترنح من هولها حتى الآن .

وكان للاتحاد السوفياتى سياسة مرسومة ، ببيع السلاح لا يتخطاها . فهو لا يبيع إلا للدول التى تدور معه فى فلك الاشتراكية ، وتقف إلى جانبه فى جميع المحافل الدولية .

ولكن عبد الناصر — مع احتفاظه بسياسته الاستقلالية ، وحياده الايجابىّ — قد استطاع أن يبدّل من سياسة الروس ، وأنْ يغيّر من منهجهم ، وأن يشترىَ منهم ومن حليفتهم تشيكوسلوفاكيا ، كميات هائلة من الأسلحة ، حديثة الصنع والاختراع .

واتبعت سورية طريق مصر ، واقتدت بها .

وكانت هذه الخطوة الجريئة المخلصة ، عملا حاسماً ضد الغرب الذى كان يموّل إسرائيل بأحدث الأسلحة ، ويضنُّ على سورية ومصر حتى بالعتيق منها .

وكانت سياسة الغرب — وما تزال — أنْ تظل إسرائيل قوية ، وسورية ومصر ضعيفتين .

وحاول الغرب بشتى وسائله ، ومغرياته ، أن يستميل عبد الناصر إلى جانبه ، ويكسبه فى صفه . ولكن عبد الناصر قد رسم لبلاده سياسة الحياد ، وعدم الانحياز .

ولوّن الغرب سياسته بشتى الألوان ، وزوقها وزخرفها ، وغير من أسمائها ، وبدّل من أوصافها . ولكنها كلها كانت تصدر من دماغ واحد ، وتهدف إلى غرض واحد وهو خدمة الاستعمار .

فمن « دفاع مشترك » ، إلى « أمن متبادل » ، إلى « حلف بغداد » ، إلى « مبدأ أيزنهاور » ، إلى آخر ما كان يبتكره « عقل » دلاس ، ويتفتق عنه ذهنه ، ويخرجه الممثلون الأمريكيون ، والبريطانيون . . . ولكن — كما قال الشاعر المغترب إلياس فرحات :

كيف ننساهم ، وننسى أنهم   أخذوا النفط ، وأعطونا « اليهودا » !

واصطدمت كل محاولات الغرب بصخرة إيمان عبد الناصر وعزيمته .

وتحطمت كل مؤامرات الغرب تحت أقدام الرجل الذى أطل فى منتصف القرن العشرين ، عبقريا من عباقرة التاريخ ، وبطلا من أبطال الأساطير .

وكان أهم ما يشغل عبد الناصر بناء « السدّ العالى » ، لكى يوفر للملايين الفلاحين المصريين عملا ومورداً وأرضاً . وهو مصلح اجتماعىّ ، لا يهمه من دنياه أكثر من توفير الأمن والسعادة لشعبه ومواطنيه .

ورأى دالاس أن الفرصة سانحة للانتقام من عبد الناصر ، وإحراجه تجاه شعبه ، ووضع العراقيل فى طريق إصلاحاته . فقرر الامتناع عن تمويل « السد العالى » . وكانت المفاوضات بشأنه قد قطعت شوطاً بعيداً ، وتبخرت أسطورة « المساعدات غير المشروطة » ؛ وظهرت حقيقة أمريكا ، وحقيقة نواياها ؛ وثبت للعالم أن أمريكا تسعى لاستعباده بأموالها ، وأموال البنك الدولىّ .

وكان لا بد من أن يُجيب عبد الناصر على تحدّى أمريكا .

وكان جوابه صريحاً مفحماً ، وطعنةً فى الصميم .

لقد أمم شركة « قناة السويس » .

والقناة — هذا المرفق المائىّ الذى يصل الشرقَ بالغرب ، والبحر الأحمر بالبحر الأبيض — كانت تحت سيطرة الغرب وسلطانه وكانت مورداً ضخماً يقتسمه المساهمون والموظفون ، وينفقونه ضد البلد الذى يمر فى أرضه ، ويبعثرونه على الدعاية هنا وهناك . وعين مصر ترى ؛ وشعب مصر لا يستفيد منه حتى النزر اليسير .

وشركة القناة ظلٌ للاستعمار ثقيل ، وبقيةٌ من بقايا السيطرة والعبودية والطغيان .

والثورة التى قضت على العبودية ، وحطمت قيود الظلم ، وأزاحت عن كاهلها نير الاستعمار ، لا تسمح بأن يبقى فى بلادها أثر للعبودية والظلم والاستعمار . ولا ترضى لها وطنيتها ورسالتها أن تبقَى للغاصب المحتل بقيةٌ فى أرضها ، وسيطرة على مرفق من مرافقها .

وأمم عبد الناصر قناة السويس .

واضطرب العالم كله لقرار التأميم .

عبد الحكيم عامر ينجو

كان « المشير عبد الحكيم عامر » فى دمشق ، يتفقد جيشه فى الجبهة ، وبانتظاره طائرتان حربيتان ، ومعه نخبة من الضباط المصريين استقلوا إحداهما . وكان المفروض أن يكون المشير معهم لولا أن مشاغل أخرته بعض الوقت ، فاستقل الطائرة الثانية .

وكان القراصنة اليهود يتحينون الفرص للإيقاع به ، فكأنهم أوقعوا بجيش لجب وانتصروا بمعركة كبرى .

واختفت الطائرة الأولى !

ونجا عبد الحكيم عامر . . .

وعبد الحكيم عامر ، وحده ، جيش وشعب . . .

فى وجهه براءة وطهر ، وفى قلبه طيبةٌ ونبل . . .

وتقرأ فى قسمات وجهه وداعةً تعبّر عن نفسه المترفة ، وإحساسه الرقيق .

كل ما فيه يدل على أنه . . . « إنسان » .

« الجندية » كامنة فى عزيمته ، متركزة فى قوة إرادته ، وصلابته وحيويته .

و « الإنسانية » بارزة فى أساريره ، تُطل عليك من عينين توحيان بالثقة والصدق ، ومن بسمة تطفح بالعذوبة والرقة .

إنه « إنسان » .

ولطف الله بالعرب . . فنجا « الإنسان » .

العدوان الثلاثى على مصر

لقد كان التأميم طعنةً فى الصميم نفذت إلى قلب « إيدن » — فصرعته ؛ وإلى قلب « دالاس » فروّعته ؛ وإلى قلب كلّ مستعمر فزعزعته وضعضعته . وكان حدثاً تاريخيا مشهوداً .

وأفاق الاستعمار من غيبوبة الصدمة — ولما يُفقْ بعد — فوجد أن عبدالناصر يتخطى العقبات ، ويهزأ بالصعوبات ، ويمشى قُدماً نحو تحقيق فكرته الوطنية ، وبعث قوميته العربية ، وأنه يدك فى كل يوم للاستعمار معقلا ، ويهزم فيلقاً ، ويهدم حصناً ، ويقضى على وكر من أوكاره ، وركيزة من ركائزه .

إنه خطير . .

وخطورة عبد الناصر أنه أصبح رمزاً . .

وأنه يعمل لقومية لها جذور عميقة فى التاريخ ، وهى فى أجمل المناطق موقعاً ، وأكثرها خصباً ، وأعظمها أهمية ، وأقدمها عمراناً وتاريخاً .

وعبد الناصر قد أيقظها من سباتها ، ودفعها نحو غاياتها ، وحرك عواطفها ، وهيج مشاعرها . وأعاد لها ثقتها بنفسها ، وإيمانها بحقها فى الحياة .

إنه خطر . . .

لقد استطاع أن يجمع الشعوب المتفرقة ، والآراء المتشعبة ، والأفكار المختلفة ، وأن يخلق منها « شلالا » يوحد القوى الضائعة ، وينير الظلم الحالكة ، ويسقى به الأرض العطشى .

إنه خطر . . .

ومن مصلحة الاستعمار أن يزول هذا « الخطر » .

وقرر « الغرب » أن يعمل . . .

وعمد إلى أحقاد فرنسا فاستغلها ، وإلى نقمة بريطانيا فاستثارها ، وإلى مطامع إسرائيل فحركها .

وتجمعت قوى الدول الثلاث ، ضد دولة واحدة أصغر منهن حجماً ، وأقل منهن جيشاً ، وأضعف منهن إمكانيات . ولكنها أكثرهن شجاعة وبطولة وعزماً وإيماناً .

وأمسك أحرار العالم قلوبهم بأيديهم .

وارتجفت قلوب أبناء الدنيا ، إلا قلب « النيل » .

لأن النيل يعرف من هم أبناؤه — ومن أىّ تربة يتغذون ، ومن أىّ منهل ينهلون .

وأعطت « بورسعيد » الخالدة أروع مثال للبطولة والتضحية والكفاح ، ووقفت فى وجه المعتدين صابرةً لا تجزع ، وصامدةً لا تلين .

وأطلت الأهرام وعلى قمتها إكليل النصر ، وعلى جبينها غارُ الظفر .

وانجلت المعركة عن هزيمة المعتدين .

وارتفع عبد الناصر على مناكب المجد . .

وجلس على أريكة التاريخ — وجثا تحت أقدامه : مجد بريطانيا ، وغرور فرنسا ، وطمع إسرائيل .

ومن هنا بدأ للعرب تاريخٌ جديد ، وعهدٌ جديد .

و . . طار القوتلى إلى الاتحاد السوفياتى

ولا بد من عودة إلى الوراء .

كانت حكومة الاتحاد السوفياتى قد وجهت دعوةً رسميةً إلى الرئيس القوتلى لزيارة جمهورياتها . وقضت ظروف خاصة بتأجيل الموعد الذى كان محدداً لها . ثم حدد موعد آخر . وبذلت بريطانيا وأمريكا جهوداً جبارةً لمنع هذه الزيارة والحؤول دونها . وفشلت مساعى بريطانيا وأمريكا . وصمم الرئيس على السفر . .

وبينما الناس فى المطار ينتظرون قدوم الرئيس ، فاجأتهم أنباء هجوم إسرائيل على صحراء سيناء . ولم يكن ثمةَ مجال للشك فى أن هذا الهجوم مقدمة لعدوان .

واضطرب الناس وتساءلوا فيما بينهم : هل يؤجل الرئيس الزيارة مرةً ثانية ، أو يقوم بها ؟

وكانت لجنة الشؤون الخارجية قد عقدت اجتماعاً لبحث موضوع الزيارة واتخذت قراراً — بالأكثرية — باقتراح التأجيل ، واتجهت آراء أكثر الوزراء نحو إرجائها إلى وقت آخر . ولكن الرئيس أصر ورفض الموافقة على التأجيل . .

وطال الجدال فى القصر الجمهورى .

وطال انتظار الناس فى المطار . . .

وبعد فترة قلق واضطراب ، وتساؤل واستقراء ، إذا بموكب الرئيس يُطل ، وعلى ثغر الرئيس تلك البسمة الهادئةُ المشرقةُ التى لا تفارقه ، والتى تُشع من وجهه ، ثقةً ، وطمأنينةً ، وعزماً وإيماناً .

وارتفعت الطائرة تحمل فى قلبها الرجلَ العظيمَ المؤمن الذى لا يخاف إلا الله

ولا يخشى أحداً سواه . وكان ذلك فى ٣١ تشرين الأول سنة ١٩٥٦ .

وجرى له فى الاتحاد السوفياتى استقبال حافل حاشد[1] .

واختصر الرئيس برنامج الزيارة ، لأن المعركة كانت دائرة الرحى حول القناة ، والقومية العربية على مفترق الطرق ، والدنيا العربية كلها جذوة تتقد ونار تضطرم[2] .

فمصر زعيمة الأقطار العربية ، وعدوة الأحلاف العسكرية ، وحاضنة الدعوة الحرة الجريئة إلى الحياد . وهى التى تحدت ، وما تزال تتحدى الاستعمار فى صميم نفوذه ، ومصالحه وقواعده .

وسورية هى التى وقفت فى وجه العاصفة وهى تزمجر وتدمّر . والتى تحدّت النطاق الذى ضُرب حولها ، والحصار الذى فرض عليها . ولم تبال بجيش يُحشد ، ومؤتمر يُعقد ، ومؤامرات تُهيأ وتحبك وترتب .

وظلت سورية صامدةً صابرة . متحديةً مغامرة . ولبطولتها صدى بعيد . ولا يعدم الشعب الذى يطالب بحريته من نصير له فى العالم .

وكانت قضية مصرَ محور خطب القوتلى . وأحاديثه — فى كل حفلة ، وفى كل مجلس . كانت على لسانه مثلما كانت فى وجدانه . وكانت فى قلبه مثلما كانت فى بيانه . وفى الحفلة التكريمية التى أقيمت له فى « الكرملين » ألقى خطاباً هاما جاء فيه :

. . . « وعندما يئس أصحاب المطامع الدولية من تحقيق أغراضهم فى بلادنا ، كان لا بد أن يُفسح المجال للصهيونية العالمية لتمد إلى معاقلنا جسر

---

(١) كنت عضواً فى الوفد النيابى الذى زار الاتحاد السوفياتى فى شهر تموز سنة ١٩٥٥ بدعوة من مجلس السوفيات الأعلى . وما زلت وزملائى نذكر الحفاوة البالغة التى استقبلنا بها فى تلك البلاد .

(٢) راجع كلمة الأستاذ محمد حسنين هيكل المنشورة فى فصل « أقوالهم فى الرئيس القوتلى » فى مستهل هذا الكتاب .

العبور والارتكاز . وهذه هى خلاصة لتاريخ كارثة فلسطين التى أحلت للغزاة وطناً عربيا أصيلا ، وأسلمت للبؤس والشقاء والتشرد ملايين من العرب . ولقد بذر الاستعمار والصهيونية فى ربوع هذا الشرق المسالم بذور حرب يتضخم جهازها يوماً بعد يوم استعداداً لليوم الذى يتفق فيه الاستعمار والصهيونية لتنفيذ الخطة المدبرة .

وها إنّ الاستعمار والصهيونية قد بدأا بتنفيذ خطتّهما فى مصر العربية بالاعتداء . وإننا لنعتبر الاعتداء على مصر اعتداءً علينا أنفسنا ، وعلى جميع الأمة العربية فى مختلف أقطارها . . .

ونحن نقف الآن — الأمةَ العربيةَ كلها — وقفةً واحدةً إلى جانب مصر فى قضيتّها فى قناة السويس ، تأكيداً لحقّ من حقوقها ، ولممارسة سيادتّها فوق أرضها ؛ ولنبرهن أننا لا نؤخذ بالقوة ، ولا ترهبنا القوة »

* * *

وأنهى القوتلى زيارته للاتحاد السوفياتى — التى لم تستغرق إلا أربعة أيام بسرعة وعاد إلى دمشق . وكانت طائرته قد هبطت فى حلب ، وواصل هو ورفاقه السفر فى السيارات .

وتحت الأنوار الخافتة الباهتة — أنوار الحرب — كان ينتظره ألوف المواطنين فى مدخل دمشق .

ولأول مرة فى مواقفه الخطابية — كان صوته متهدّجاً .

ولكنه كان صوتاً قويّاً جهورياً ، نفذ إلى قلوب أبنائه ، وكأنه نسمةٌ عليلة بليلة ، ريانةٌ ظليلة . كأنه صوتُ الأجيال ، صوتُ التاريخ ، صوتُ القومية العربية تهتف من صميم الأبد ، وإلى الأبد .

كان بُشرى بسلاح كثير ، ودفاع متين ؛ بمجد مؤثل ، ونصر مؤزر ؛

بقومية تفتحت براعمها ، وتضوع أريجها ، وسرى خبرها إلى الآفاق ، وانحنت لجبروتها الأعناق .

وكان كعهد الناس به — عظيماً .

وكان العدوان على مصر شديدَ الوقع على نفسه ، ونفس كل عربىّ مؤمن . كانت تضطرم فى نفسه نار الجهاد ، ويضطرب بركان الكفاح والثورة .

سورية فى معركة القناة

وكانت سورية على أهبـــة الدخول فى المعركة . وهى تنتظر أول إشارة من القائد العام — المشير عبد الحكيم عامر — ليندفع جيشها بهجومه على إسرائيل . وكان عبد الحكيم عامر قد انتخب قائداً عاما للجيوش : المصرية والسورية ، والأردنية ، بعد توحيدها معاً — وقبل أن ينكث على نفسه « الملك حسين » .

وكان العمال السوريون قد نسفوا أنابيب البترول ، فمنعوا تدفقه إلى الغرب ، وحالوا دون سيلانه إلى قوى المعتدين .

وكان نسف أنابيب البترول ضربةً قاصمةً فى الصميم . ولم تسمح سورية بإسالة البترول فى أراضيها إلا بعد انسحاب القوات المعتدية من أرض مصر . وهى قد ساهمت بذلك مساهمة أشاد بها الرئيس عبد الناصر وأطراها ، وكان لها أثرٌ ملحوظ بتعجيل انسحاب المعتدين[١] .

وكانت القوات المعتدية الثلاث توالى هجماتها الوحشية على القوات المصرية ، وعلى السكان العزل الآمنين — فتقذف الطائرات قنابلها هنا وهناك ، فلا تجد أمامها إلا عزيمةً وصبراً ، وبسالةً فى المعركة ، واستهانةً بالموت .

وكانت هيئة الأمم تنظر فى شكوى مصر ، وتتخذ بشأن المعتدين القرار تلو القرار . وبريطانيا وفرنسا ، وذنبهما إسرائيل ، لا تبالى به ولا تأبه له ولا ترعوى . وكانت أمريكا تؤيد قرارات هيئة الأمم .

وكانت الخطة الغربية تتركز على أساس المماطلة والتسويف ، حتى يُتاح للقوات المعتدية أن تحقق هدفها وغايتها !

---

(١) ذكر الرئيس عبد الناصر تفجير أنابيب البترول المارة فى سورية ، وأثره الشديد على اقتصاديات فرنسا وبريطانيا ، أكثر من مرة فى خطبه القومية البليغة .

ولم يكن يُخيل للاستعمار أن مصرَ ستصمد هذا الصمود العجيب . بل كان يُخيل له أن مقاومة المصريين ستتلاشى ، وأن القنابل ستفعل فعلها ، وتترك أثرها العميق فى النفوس . وأن الثورة ستنشب ضد عبد الناصر وتطيح بالعهد الذى كسب لمصر العزة والسيادة والاستقلال . وتؤلَّف حينئذ حكومة جديدة من بقايا الاستعمار ومطاياه، تطلب من هيئة الأمم حذف « الشكوى » ، وتسمح للقوات المعتدية بالتمركز والاحتلال . وهكذا تكون القوات المعتدية قد حققت غايتها ، وظفرت ببغيتها ، وتمركزت فى التربة الطاهرة البيضاء .

ولكن مصر هى مصر ، قوةً ، وشجاعةً ، وكفاحاً . .

وعبد الناصر هو رجل مصر — قدوةً وأملا ورمزاً .

وأشع إيمان عبد الناصر فى نفس كل مواطن ، فكانت مصر كلها صفاً واحداً، وقلباً واحداً ؛ وباءت بالفشل والخذلان خطة المعتدين .

ولم تكن القوات المعتدية تنتظر هذه المقاومة الضاريةَ من الجيش ؛ ولا الجلد والصبر وقوةَ الأعصاب من الشعب . وثبت لها أن الطريق طويل ، وأنه عسير وشاقٌ ، ومحفوف بالمخاطر والأشواك ، وأن السير فى ظلمته والتوائه ينطوى على مجازفات لا يُعرف مداها ، ولا تُحمد عقباها . وأن النصر فى النهاية للشعب المكافح الصابر .

. . . واضطرت القوات المعتدية إلى الانسحاب .

وفى هذا الانسحاب يفتتح الشاعر عادل الغضبان قصيدته « الرحيل» بقوله :

لَمْلَموا الجندَ والظبى والعتادا — وحدا العارُ ركبهم والمعادا
هجموا بالنيوب زُرْقاً حداداً — فحطمنا تلك النيوبَ الحدادا
بسلاحٍ من حقنا ونفوسٍ — تتبارى فدى الحمى استشهادا
وإذا الحق ناصرتهُ العوالى — عزَّ فى حلبة الجهاد وسادا

وكتبَ التاريخ على قمّة « الهرم » ، وعلى صفحة سماء مصر الخالدة

— اسم « جمال عبد الناصر » وإلى جانبه قول الشاعر القروى :

فانقادت المُعضلاتُ العاصياتُ له — كأنهن قطارُ الأينُق الذلل
رأىٌ أصيلٌ، وعزمٌ غيرُ ذى فلل — كأنما هو صمصامٌ بكف «على»

جمال عبد الناصر والتاريخ

تاريخ أمة — أىّ أمة — لا يحفل بأكثرَ من عظيم ، أو نابغة فى جيل ، وربما فى أجيال .

وهذا الذى نعنيه ، ويحفل به التاريخ ، إنما ذاك الذى يضعه فى « الصدارة » من سجله ، وفى « القمة » من أحداثه . وليس ذاك الذى يمر به مروراً عابراً ، ثم يتجاوزه دون توقف طويل . . .

فالتاريخ أريستوقراطى ، لا يحفل بالأحداث الصغيرة ، ولا يعطيها أكثرَ مما تستحقّ . ولا يحفل إلا بمن يستحق أنْ يُحفلَ به من الناس . إنه كالقطار السريع ، يمر وسط حقول وجبال وغابات ، وفوق صخور وأتربة وأنهار . ولكنه لا يقف إلا فى أماكن مُعينة ، وفى مناطق محددة .

بل إن التاريخ لا يعبأ إلا بمن يفرض نفسه عليه فرضاً . ولا يأبه إلا لمن يملى عليه إرادته إملاءً ، ويخط بنفسه صفحات حياته ، وفصول كفاحه ونضاله .

والأمة العربية — كأكثر الأمم — غنىَ تاريخها ببطولات وأمجاد ، وحفل بأسماء كبيرة ضخمة جلست على أريكة التاريخ — وما تزال تجلس فى القمة — لا يسمو عليها أحد ، ولا يطاولها من الخالدين إلا القليل . ومرت عليها فترات ركود وجمود ، وغفلة ونوم ، فلم يتوقف عندها التاريخ ، لأنها لم تستطع أنْ تفرض نفسها على التاريخ . وكانت أعنفَ فترة وأقساها تلك التى مرت بعد « صلاح الدين » ، إلى القرن العشرين .

وحفلَ القرن العشرون هذا برجال عظام ، قدموا لأمتهم العربية خدمات

جلّى ، واستقرّوا فى صُلب التاريخ . والذين نعنيهم الآن هم أولئك الذين يدور التاريخ حولهم ، يستقى أحداثه منهم ، ويأخذُ أخباره عنهم ، أولئك الذين لا يقتصر أمرهم على قطر ، وشأنهم على إقليم ، فهم نفحة قرن ، ومنحة أجيال .

وجمال عبد الناصر واحدٌ من هؤلاء – بل فى طليعة هؤلاء .

والحديث عن عبد الناصر عريضٌ وطويل ، ولكنه شَيقٌ وجميل ، وسهلٌ وميسور ؛ لا يُزعج قائله ، ولا يُضنى كاتبه .

ولو جُمعَ « الحبر » الذى كتب فيه عن جمال عبد الناصر – منذ أن ظهر جمال عبد الناصر – لكون « بحيرة » تغرق فيها كل قطع الأسطول الأمريكىّ السادس ، فلا يظهر لها أثر ، ولا يسمع عنها خبر .

لقد تسلم عبد الناصر المبادهة منذ أن تسلم « الدفّة » وتركزت الأضواءُ كلها عليه ، وازدحمت الأحداث كلها من حوله ؛ فكان محورَها ، وموجهها ، وهدفها ، وقطبَ رحاها ؛ وأصبح « شغل » العالم الشاغل ؛ يُحرّك عاطفةَ الدنيا بيمناه ، ويهدئ عاصفتَها بيسراه . ويملى على التاريخ الفصولَ التى يُريد والأحداث التى يشاء .

وانتفضت القومية العربية ، تنفض عنها غُبار الأجيال ، وتبرز إلى العالم – من جديد – مدوية أخبارُها ، متلألئةً أنوارُها ، مكتسحاً إعصارُها وتيارُها .

وما يزال الركب العربى فى منتصف الطريق ، بل فى أول الطريق .

والطريق أمامه طويلةٌ وعسيرة ، شائكةٌ وملتوية ؛ ولكنه سيصلُ حتماً إلى هدفه وتحقيق مناه .

. . . سيصل . . . لأن العملاقَ العربى الأسمر – جمال عبد الناصر – هو الذى يقود الزحف المباركَ ، ويوجهه ويرشده ، ويغذيه وينميه .

ومرة أخرى . . . بعد ألف ونيف من السنين ، يقوم « عربى » جديد يسجل التاريخ بيمناه ، ويمسك أعنّة الأحداث بيسراه .

وبوركَ الزحفُ والفتح . وبوركَ النصرُ المبين .

مؤتمر الملوك والرؤساء فى لبنان

دعا « كميل شمعون » رؤساءَ الدول العربية للاجتماع فى لبنان بغية « الاتفاق على خطة موحدة لدعم مصر فى كفاحها ضد الغرب » .

ولم يكن أمر هذه الدعوة وسببها خافياً على أحد .

فكميل شمعون عميلٌ استعمارى عريق . وهو لا يأبه للمصالح العربية ، ولا يقيم لها وزناً . وإنما تهمه مصالح الاستعمار وحدَه ، لا يفكر إلا بها ، ولا يأبه إلا لها !

وكانت بريطانيا وأمريكا وراءَ هذه الدعوة التى ترمى إلى إظهار العرب بمظهر التفكك والانحلال . لأنه من غير المعقول أن يوافق حسين ، وعبد الإله ، وكميل شمعون ، على قرار فيه مساس بمصالح الغرب ، ونيلٌ منها .

ومع ذلك . . فقد لبى الرئيس القوتلى هذه الدعوة وقبلها . وذهب إلى بيروت .

وانكشفت نيات كميل شمعون ، وظهرت على حقيقتها . فقد رفض أن يقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وبريطانيا ! كما رفض عبد الإله ، وابن عمه حسين ، أن يقطعاها مع بريطانيا ! وأوشك المؤتمر أن يفشل ، وأن ينهار !

وكانت مهمة القوتلى جدَّ عسيرة . فهو يعرف شيئاً عن المؤامرة المبيتة . ويعرف الدافع لها ، والغاية منها ، ولكنه لا يريد أن يفشل المؤتمر ، فتتندر به وبفشله الدوائر الاستعمارية والصهيونية ، وتستغله ضد مصر وقضيتها .

وقام بمحاولات جبارة ، وبذل كل ما فى وسعه ، مستعيناً بالرؤساء الآخرين ، حتى يستطيع المحافظة على « مظهر » التفاهم والاتفاق ، وينقذ سمعة المؤتمر من الخلاف والانشقاق .

وأشارت الصحف العربية يومئذ ، إلى جهود فخامته فى تقريب وجهات النظر بين الرؤساء العرب ، وتغطية الخلاف وتمويهه .

وصدر بيانٌ عن المؤتمر يُشير إلى تقارب وجهات النظر ، والتضامن مع مصر ، فى نضالها القوميّ ضد الاستعمار .

وهكذا نجح شكرى القوتلى . وأخفق كميل شمعون .

واستقال عبد الله اليافى — رئيس الوزارة اللبنانية يومئذ احتجاجاً على تصرف كميل شمعون وعلى مؤامرته السافرة ، وتخلّفه عن السير فى الركب العربىّ ، ومحاولته بعثرة الخطى ، وتمزيق الصفوف . ووقف رشيد كرامى[١] موقفاً أملته عليه وطنيته ورجولته ، وعروبته النقية ، وإخلاصه الفريد . وكان لتصريحاته وتهديداته أثر حافل فى الأندية اللبنانية ، ومحافلها السياسية .

نهرو الإنسان

قام الرئيس القوتلى بعدّة زيارات لبعض الدول استجابةً لدعوة رؤسائها وسعياً لتمتين الروابط والصلات الودية مع شعوبها ، ولم يتمكن من إجابة كل الدعوات ، نظراً للتطورات التى حصلت بعدئذ ، والظروف التى كانت تمر بها البلاد . وقد زار الهند وباكستان ، بعد زيارته للمملكة العربية السعودية ، فى مطلع سنة ١٩٥٧ .

وكان يُستقبل فى كل مكان بأروع مظاهر الحفاوة ، والتجلة ، والترحيب .

ودعا « نهرو » الزعيمَ الإنسانى الكبيرَ لزيارة سورية فلبى الدعوة ؛ ونزل من قلب الشعب السورىّ منزلا يليق بروحيته الصافية ، ومثاليته الرفيعة . وكان

(١) رشيد كرامى بن عبد الحميد كرامى الذى قاد المعارضة العربية فى وجه الفرنسيين فى لبنان طوال ربع قرن . والذى كان له فى الأندية العربية مكانة عظمى ، ومنزلة كبرى . وكان عضواً فى الوفد الذى وفق بين المملكة العربية السعودية واليمن ، وأنهى حالة الحرب بينهما . ورشيد كرامى الآن هو وجه طرابلس المشرق ، ولسانها المعبر ، وقلبها العربى النابض .

لطفولة قلبه ، ورجاحة عقله ، وسلامة منطقه ، وتواضعه وتهذيبه ، أثرٌ كبير فى نفوس الناس .

« نهرو » الذى مجد الإنسان ، فمجده الإنسان ؛ والذى عرف نفسه ، وأدرك حقيقته ، فاستطاع من خلال معرفته نفسه ، أن يعرف العالم ، ومن خلال إدراكه حقيقته ، أن يُدركَ سر الوجود .

وسبر غور ذاته ، فسبر غور الدنيا .

وتطلع من زاوية قلبه إلى الناس ، فأحبهم وأحبوه . وآمن بهم ، وآمنوا به .

ونظر إلى الكون بمنظار عقله ووعيه ، فكشف سر الكون .

وعقلُ الإنسان مُستودَعُ أسرار الطبيعة بكل ما فيها وما عليها . أغمضْ عينيك ترَ الدنيا . . وترَ أبعدَ ما تراه العين فيها . إنها فى رأسك ، وقلبك ؛ فاعرف نفسك أولا ، تعرفْ حقيقتها ، وأسرارَها . ولكن . . هل باستطاعتك أن تعرفَ نفسك وأن تسبر غورَها ، وتدركَ حقيقتَها ؟ قليلون جداً أولئك الذين استطاعوا ؛ و « نهرو » واحدٌ من أولئك القليلين .

« نهرو » الإنسان ، الذى سما شعوره ، فعجزت عن أن تمسه أدران البشر ، ونقّتْ عاطفته ، فاستعصت على نوازع الشرّ ، واندمجت بمثلها الأعلى .

وليس كلّ إنسان إنساناً .

فللإنسانية تعاليمها ومفاهيمها ، ومبادئها ومثلها .

وأول مايميّز به الإنسان عن سواه أن يكون قد عرف نفسه وأن يكونَ ذا رسالة .

ورسالة الإنسان هى الحب . ولا شىء غيرُ . . . الحب .

ومن هنا قال السيد المسيح : « الله محبة » .

ومن هنا . . . كان « نهرو » صاحبَ رسالة .

ومن هنا . . كان إنساناً . .

. . . كما قال عمر أبو ريشة :

لستَ تستطيعُ أنْ تكونَ إلهاً   فإذا استطعتَ فلتكنْ إنسانا!

جبهة التجمع القومى

وتصدعت جبهة « الميثاق القومى » . واستقالت حكومته . وظهر فى مجلس النواب تكتل جديد ، حول اسم جديد : « التجمع القومى » ، فقد جمع بين الوطنيين ، والبعثيين ، وأكثر النواب المستقلين . وانتخب إحسان الجابرى رئيساً للتجمع .

وكلفَ الرئيس القوتلى مُرشحَ « التجمع » صبرى العسلى ، بتأليف الوزارة . وكان برنامجها — ككل برنامج وزارة فى عهد القوتلى — يتضمن الاتحاد مع مصر .

ورَشح « التجمع » أكرم الحورانى لرياسة مجلس النواب فانتخب رئيساً له فى خريف سنة ١٩٥٧ .

وبلغت نقمة المستعمرين على سورية الذروة : فمن حشد تركىّ فى الشمال ، إلى حشد عراقى فى الشرق ، إلى تحرشات إسرائيلية مستمرة فى الجنوب ، إلى تهديد سافر وَقح من سمير الرفاعى فى الأردن . . . إلى حملات التهويش والتهويل ، والتغرير والتضليل ، إلى مؤامرات خفية ، وتكتلات سرية ؛ إلى حركات مريبة ، وتصرفات من بعض المسؤولين غريبة ؛ إلى تهريب السلاح وخزنه ، تقوم به عصابات القوميين المأجورين ، وحلفاؤها من السياسيين « الحاقدين » .

وكان يُخيل للمراقبين أن الواقعة قد تقع فى كل لحظة ؛ وأن جيوش الاستعمار قد تُطبق على سورية من الخارج ، ويتحرك أذنابه وعملاؤه ومأجوروه من الداخل .

وكان الاستعمار يهدف إلى إقصاء سورية عن مصر . ومتى أتيح له ذلك ، زَج بها فى أتون أحلافه المجرمة ، وجعلها فى عداد منكوبيه وضحاياه .

وكانت عين الرئيس ترعى الوطن ، فى هذه المراحل الدقيقة العصيبة ، وكان بعزيمته يقوى عزائم أبنائه ، وبإيمانه يضاعف إيمانهم ، وبصبره وتحمله يزيد من صبرهم وتحملهم .

لقد كان قدوةً لهم ، وموئلا وذخراً .

ولا يربح الجندى معركة إلا إذا كان قوى الثقة بقائده ، عظيم الإيمان بمقدرته وإخلاصه .

وكانت ثقة الشعب بشكرى القوتلى ، مستمدةً من ماضى كفاح طويل ، ومن جهاد لم يخمد ، وعزيمة لم تبرد .

ووصلت السفينة وسط العواصف الهوجاء إلى شاطئ السلامة والأمان ، بفضل حكمة « ربانها » ، وتعاون ضباطها وجنودها ، وإخلاص الجميع وكفاحهم وتفانيهم .

عبد الحميد السراج — بطل قومى

وليس من الإنصاف أن ننسى عبد الحميد السراج ، وأن نتابع سيرنا ، فلا نتوقف — ولو قليلا — عند الرجل الذى صان لنا كرامتنا ، وصان لنا سمعتنا ، ودعم بيقظته وسهره استقلالنا وكياننا .

إن جميع المؤامرات أحبطها عبد الحميد السراج ، وجميع الدسائس قضى عليها .

فمن حقه علينا أن نذكرهُ ، ومن واجبنا أن نشكرهُ .

لقد استخف بالثروة وأعرض عن المال . وداس بقدمه « الملايين » ، فى حين أن بعض تجار السياسة يسعون وراءَ المئين .

وكان فى ترفعه عظيماً ، وفى وطنيته أعظم .

لقد احتل فى تاريخنا مكانةً واسعة .

وخط لنفسه ولبلاده فصلا مجيداً .

وسيظل كفاح عبد الحميد السراج ونزاهته ، وإخلاصه وتضحيته ، مشعلا ونبراساً ، وقدوةً ومثالا .

وسيظل الناس يذكرون عبد الحميد السراج ما دام بين الناس من يقدّر الفضل ، ولا يُنكر الجميل .

الشعب يطالب بالاتحاد بين سورية ومصر

كانت محاولات الاستعمار تهدف كلها إلى إقصاء سورية عن مصر ، وقطع الصلة بينهما . وكانت الأحداث تزيد الروابط الأخوية بين أبناء الشعب الواحد ، فى البلدين الشقيقين ، قوةً ومتانة .

والشعب السورى نزّاعٌ بفطرته إلى الوحدة ، مؤمن بها ، عاملٌ لها ، وهو لا يؤمن بكيان غير كيان الأمة العربية ، ولا بمصلحة غير مصلحتها .

وتلاقت أهدافه القومية ، مع أهداف الشعب العربى فى مصر .

وازداد إيمانه بأن الانطلاق نحو الوَحدة العربية لا يكون إلا بالوحدة بين سورية ومصر .

ولمصر زعامتها ومكانتها ، ومركزها الدولىّ المرموق .

ومصر حاضنة الفكرة العربية ، ووجه الدعاية لها فى العالم . وإذا لم تجتمع الأقطار العربية حول مصر ، فإن من المستحيل أن تجتمع حول قطر آخر ، ومن المستحيل أن يتحقق الأمل العربى وأن نصلَ إلى الهدف القومى .

والمستعمرون يُدركون هذه الحقيقة ويعرفونها . ولذلك شنوا عُدوانهم الغادرَ على مصر ، وفشل العدوان . وحركوا المؤامرات حول سورية ، وفشلت المؤامرات .

وكان لابد من قرار حاسم بشأن الاتحاد مع مصر يقطع الطريق على الاستعمار ويحبط مؤامراته ومساعيه ، ويكون نواةً لوحدة شاملة . يُؤمن بها المخلصون ويتطلعُ إليها العرب أجمعون .

وكانت قد عُقدت بين سورية ومصر وَحدةٌ ثقافية واتفاقية عسكرية ؛

وكانت الأبحاث تدور حول عقد اتفاقية اقتصادية .

ولماذا التطويل ؟ ولماذا لا يُختصر الطريق ، ويبدأ الاتحاد فوراً ؟

ولماذا هذه الاتفاقيات « المنفردة » ولماذا لا يكون اتفاق « واحد » ، يشمل الجميع ويغنى عن الجميع ؟

وارتفعت أصوات الشعب من كل جانب ، بعضها يدعو إلى الوحدة وبعضها يدعو إلى الاتحاد .

وكانت تلاقى صداها العميق فى نفس الرئيس عبد الناصر ، واستجابةً سريعةً من النفس الكبيرة ، التى بُعثت لتبعثَ قضيتها ، وتحيى قوميتها ، وتوحد بلادها وأمتها .

وحينما قابلنا الرئيس عبد الناصر فى مصر — نحن أعضاء لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس النواب — فى نهاية عام ١٩٥٥ ، وكان يتحدث عن القومية العربية ، حديث الرجل المؤمن المخلص ، قلت لسيادته :

« هل هناك ما يمنعُ قيام اتحاد بين سورية ومصر يكون نواةً لوحدة عربية شاملة ، يُؤمن العرب بها ، ويتطلعون إليها ؟ »

وأجاب سيادته :

« إن مصر تفتح قلبها لكلّ تعاون عربىّ ، بأىّ شكل كان ، وَحدةً أو اتحاداً ، والأمر متروك للشعب السورى أن يقرّر ما يشاء ، ويختار ما يريد . وسيجد منا الصدى الإيجابى لكلّ رغباته وأمانيه » .

لقد كان عبد الناصر يتحدث إلينا ، ويجيب عن أسئلتنا ، بالروح الذى تسلسل إليه من أجداده العرب الأقدمين . والذى أضفى على تاريخهم هالةً من المجد ، يقصر عن إدراكها أعظمُ الأمم قوةً وسلطاناً ، وعن وصفها أعظمُ الكتاب بلاغة وبياناً .

لقد كان يتحدث إلينا بتلك اللغة التى تهادت إليه ميراثاً ضخماً ، وتراثاً خالداً

من أولئك السلف الصالح ، الذين فتحوا الدنيا ونشروا فيها مدنيتهم وتعاليمهم ، وأخلاقهم ومثلهم .

لقد كان يتحدثُ إلينا قائداً جلّى في جميع الميادين التي خاضها ، وهيأه القدر ليعيد لأمته مجداً زاهراً، وعهداً غابراً ، ويحقق لها وحدتها وسيادتها ، ويؤدىَ رسالتها رسالة الحق والخير والسلام .

وعُدنا يومئذ من مصر[1]. وتابعنا جولتنا فى أنحاء العالم العربىّ ، ونحن مؤمنون بأن الرجل الذى تنتظره الأمة العربية قد جاء ، والبطل الذى تتمخض عنه أجيالها قد بُعثَ من جديد .

حسين . . يحنث وينكث

بعد أن أقصىَ القائد البريطانى « كلوب » عن الأردن ، وتحرر جيشه منه ، كان المفروض أن يصبح الأردن سيد نفسه وأنْ يتقلصَ منه آخر أثر للاستعمار .

وعُقدت بين مصر وسورية والأردن اتفاقية عسكريّة ووحدة ثقافية ، وقامت بين سورية والأردن وحدة اقتصادية .

وكان الأردن يتلقّى « معونة » ماليةً من بريطانيا عشرة ملايين جنيه فى العام ثمن استعماره واستعباده — وقطعت المعونة بعد أنْ تحرر من العبودية والاستعمار .واضطلعت سورية ومصر والسعودية بعبء المعونة تقدمها للأردن، وأرسلت مفارز من الجيش السورىّ لتحل محل الجيش العراقى الذى عاد إلى بغداد ، وقدمت للجيش الأردنى أسلحةً كثيرة متنوعة ، وازدهرت الحياة

(١) ألقيت عقب عودتنا من مصر محاضرة فى قاعة « النادى العربى » فى دمشق ، بدعوة من جمعية « الأدب النسائى » كان عنوانها : « جولة فى مصر » وقد تحدثت فى تلك المحاضرة عما شاهدناه من تقدم وتطور فى حياة مصر ، وعن مصر القائدة التى بدأت تبعث القومية العربية من رقادها العميق . وقد دعيت لإلقائها فى عدة أمكنة أخرى . ولم تنشر المحاضرة لأنها كانت مرتجلة .

الاقتصادية فى الأردن ، بعد أن فتحت أمام صادراته أسواق الدول العربية المتحرّرة .

ومرت فترة . . خُيلَ للناس فيها أن « حسينا » قد ثاب إلى رشده ، وسلك الطريق المستقيم .

وزاره الرئيس القوتلى فى عمان . واستقبله فى دمشق ، ليشدّد من عزمه ويضاعف من حماسته . .

ولكن خطوة حسين هذه لم تطل .

وقد أحدث نكوصه فى الجبهة العربية تصدعاً ، وفى الخطط والمناهج اضطراباً وتبدلا .

ولقى أحرار الأردن ، وما يزالون يلقون ، أسوأ ما يلقاه مخلص من خونة مارقين .

وكان الله فى عون عباده الصابرين .

أنور السادات والوحدة

دعا مجلس « النواب السورى » أعضاء مجلس « الأمة المصرى » لزيارة سورية .

ولبى « مجلس الأمة » الدعوة . وأوفد أربعين عضواً من أعضائه ، يتقدمهم وكيله « أنور السادات » .

وحينما أطل « أنور السادات » بوجهه الأسمر ، وبسمته المشرقة ، التى تعبّر عن طيبة قلبه ، ونبل سريرته ، وصفاء روحه ، وإشعاع نفسه ، شعرنا أن بارقاً من القومية العربية قد أشع ، وأن رائداً لها قد أطلّ .

وكان « أنور السادات » فى مواقفه الخطابية الرائعة ، وحماسته وإخلاصه ،

ولباقته وكياسته ، خير رائد للوحدة مع مصر ، فى تلك الزيارة الميمونة ، وخير داع لها ، وجامع لفكرتها .

وحينما وقف يخطب فى مجلس النواب ، كان صوته الهادر ، يهز شغافَ القلوب ، ويهيج كوامن النفوس ، ويبعثُ فيها الغبطةَ والنشوة ، والسعادة والأمل .

إنه صوت مصر يدوّى فى أذن سورية ، وفى آذان العالم العربى كله .

إنه نداء القومية العربية ، ورسالتها وبشراها .

إنه رسول عبد الناصر يحمل رسالته ، ويؤدى أمانته .

وتشهد الوقائعُ والمواقف أنه حمل الرسالة ، وأدى الأمانة .

وكانت زيارة وفد مجلس الأمة بمثابة استفتاء للاتحاد مع مصر .

وأفتى الشعب ، فى الاستقبالات الحماسية ، والمهرجانات الشعبية ، والمظاهرات الكبيرة . وأعرب عن تأييده المطلق لكل تعاون وارتباط مع مصر .

وطغت الحماسة على الجماهير ، واستبدّ بها الفرح والزّهو ، فكانت تهزج أمام الوفد ، وتهتف وتنشد .

واتخذ النواب السوريون والمصريون فى جلسة مشتركة ، قراراً بالموافقة على الاتحاد وتوصية الحكومتين باتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذه .

وكان . . قراراً تاريخياً ، صوّتَ عليه النواب ، فى جوّ من النشوة والحماسة .

القوتلى يرشح عبد الناصر لرئاسة الجمهورية

وارتفعت الأصوات من جميع فئات الشعب ، تطالب بالاتحاد مع مصر . ولم تقتصر هذه الدعوة على حزب معين ، أو جماعة دون أخرى .

بل إن الشعب السورى بأجمعه كان قلباً واحداً ، ولساناً واحداً ، ورغبةً واحدةً ، ولم تشهد البلاد فى تاريخها الطويل إجماعاً على فكرة والتفافاً حول مبدأ ، أو تهافتاً على موضوع — كالاتحاد مع مصر .

لقد أصبح الاتحاد عقيدةً عند الناس ، وعقيدة راسخةً مستمدةً من

إيمان عميق بالقومية ، ومن رغبتهم بحبّ البقاء .

وكان مجلس النواب يطالب فى كل مناسبة بتحقيق فكرة الاتحاد .

ويوجّه أعضاؤه أسئلة إلى المسؤولين يستحثونهم ويستثيرونهم ، ويذكون فى نفوسهم نار الوطنية ، ويدفعونهم للإسراع بالمفاوضة والتنفيذ .

واجتمع مجلس الوزراء برئاسة القوتلى وأقر فكرة الاتحاد مع مصر . وأوفد وزير الخارجيه صلاح البيطار لإجراء مفاوضات فى القاهرة حول طريقة التنفيذ .

ولم تكن « الوحدة » موضع بحث جدّىّ أبان المفاوضات مع الشقيقة الكبرى مصر . وإنما كانت الأبحاث كلها تدور حول موضوع الاتحاد باعتباره طريقاً للوحدة ، وخطوةً أولى نحوها .

وتمت الترتيبات المبدئية مع مصر ؛ وعاد صلاح البيطار من القاهرة ، وفى حقيبته نتائج الأبحاث حول الأسس التى يقوم عليها الاتحاد ، وصورة عن الاتفاقية التى وُضعتْ فى مصر . واجتمع مجلس الوزراء فى القصر الجمهورى لإقرار الاتفاقية ، ووضع التعليمات وتنفيذها .

وفاجأهم الرئيس القوتلى بقوله :

« لماذا لا تكون وحدة » بدلا من « اتحاد » ؟

وكانت مفاجأة . . أخذَ بها المجتمعون . وأعقبها صمت رزين ، تطفح من ثناياه نشوة أمل ، وغبطةُ بشرى .

وقال قائل منهم : هنا رئيس للجمهورية السورية ، وفى مصر رئيس للجمهورية المصرية ، وكيف تتحقق الوحدةُ مع وجود رئيسين ؟

وأجاب فخامة الرئيس القوتلى :

« المسألة من هذه الناحية محلولة . والرّئاسة لا تقف عقبةً فى الطريق ؛ ولا يمكن أن تكون عقبةً فى سبيل هدف قومىّ . إننى نذرتُ نفسى لتحقيق الوحدة العربية ، ووقفتُ عليها كيانى ، وأنا أرشح الرئيس عبد الناصر لتولى رئاسة الجمهورية الواحدة » .

ودوى صوته فى أرجاء القصر الجمهورى :

« يجب أن تكونَ التضحيةُ رائدَنا ، طالما أن الوحدةَ هدفنا » .

وأصغت الدنيا كلها إلى الصوت الجهوَرىّ ينبعث من قلب مؤمن شريف .

وأطل العالم — الذى يعكر صفوَه حب الذات ، والمنافع الخاصة والأنانيات ؛ أطل ليرى خُلقاً جديداً ، وروحاً جديداً ، وبطلا جديداً .

وأخذت الدنيا بهذه التضحية المثالية يُقدم عليها رئيس دولة مختاراً ، وتندغم فيها دولتان ببعضهما دون حرب أو تهديد . وهو أول حدث من نوعه فى التاريخ . وأيقنت الدنيا أن القومية العربية بدأت تأخذ مكانها الجدير بها تحت الشمس .

وسافر القوتلى ووزراؤه إلى القاهرة ، يوقّعون صكَّ الوحدة ، ويعلنونها على الملأ .

واستقبلت القاهرة رسل القومية العربية بالورود والرياحين .

وأُعلنَ مولد الجمهورية العربية المتحدة فى ١ شباط سنة ١٩٥٨ ، وكان مولدها عيداً قوميًّا ، ومهرجانا وطنيًّا. وأتى صبرى العسلى رئيس مجلس وزراء سورية وثيقة إعلان الوحدة . وخطب الرئيسان شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر بهذه المناسبة القومية التاريخية الخالدة .

ووافق مجلس النواب على الدستور المؤقت ، وعلى ترشيح عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة فى ٥ شباط سنة ١٩٥٨ وفى ٢١ شباط انتخب الشعب العربى فى إقليمى الجمهورية — الشمالى والجنوبى — جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية ، بإجماع منقطع النظير .

ولم تر البلاد فى عمرها الطويل ، تهافتاً على صناديق الاقتراع ، كالتهافت الذى شهدته فى ذلك اليوم .

إنها لحظات تاريخية حاسمة كان كل مواطن يشعر فيها ، وهو يضع ورقته

فى صندوق الاقتراع أنه يضع « لبنة » فى أساس القومية العربية ، ويبنى حجراً فى جدارها .

وتحقق الأمل .

وأفاق الناس بعد إغفاءة أجيال طويلة ، ونفضوا عن أجفانهم طيوف الكرى ، وتلفتوا ليروا أملهم التاريخى ، وحلمهم القومى قد أصبحا حقيقة وواقعاً .

إنها طلائع الوحدة العربية ، بفضل قيادة عبد الناصر ، وتضحية شكرى القوتلى .

خطاب فخامة الرئيس شكرى القوتلى حين إعلان الوحدة

أيها المواطنون الأحباء — يا إخوة العرب :

هذا يوم مشهود من أيام العمر ؛ هذا يوم عظيم فى تاريخ أمة العرب ، وتحوّل كبير فى مجرى الأحداث العالمية فى هذا العصر . فى هذا المكان من هذه المدينة العربية العظيمة ، نعلن على الملأ باسم الشعب العربى فى كل جزء . نقف ونعلن على الملأ باسم الشعب العربى فى كل من الجزئين العربيين الغاليين — مولد الجمهورية العربية المتحدة .

أيها الإخوة :

إنه يوم من أيام التاريخ ترمقه عيون الأجيال ، وتحوم حوله فى هذه اللحظة أرواح الشهداء الأبرار . إنه فلذة من ماضى الجهاد المجيد . ورجاء من روح المستقبل العربى العتيد . إنه اليوم الذى يحمل نسمة من روح الله . ومن روح هذه الأمة الخالدة . ومن روح الإيمان والعزيمة ، والصدق والإخلاص . إنه بالنسبة إلى — أيها الإخوة الأحباء — وقد نذرت نفسى لخدمة القضية العربية من فجر الشباب ، قبلة رجاء ، وفرحة عمر ؛ ونعمة من السعادة تهز كيانى ، وتغمر وجدانى ، وتفيض على رضى من الله ، ومن ضميرى وأمتى .

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة — فى هذا الموقف التاريخى ، الذى يشرفنا إننا بإعلاننا وحدة الجزئين العربيين ، والقطرين المجاهدين المناضلين ، وطناً واحداً فى جميع مرافقه وشئونه ، بلا تفريق ولا تمييز ولا تحديد ، وبلا تحفظ . إننا لم نأت بجديد . ولم نحاول اصطناعه . بل إننا نصحح أوضاعاً ، ونعيدها إلى أصولها . وننسجم بذلك كل الانسجام مع خصائص الوجود العربى ، وحقيقة الأمة العربية . حقيقتها ، كانت ، وما زالت ، وستبقى إلى الأبد ، حرية ووحدة . وإننا لعلى إيمان راسخ بأن الأجزاء العربية إذا وعت وتحررت ، تعاظمت ، وتجمعت ، فتلاقت . فالألفة هى الأصل . والحرية للعرب أمر محتوم مقدور . ولن يستطيع الأعداء مهما اصطنعوا لأنفسهم من قوى الشر أن يغيروا قليلا أو كثيراً من أقدار الأمة العربية . ومن أجل هذا أرانى واثقاً كل الوثوق أن وحدتنا القومية هذه نواة ستكبر وتنمو . وخطوة فى صميم الواقع العربى ، ستتلوها خطوات . ولقد فتحنا نوافذنا للشمس . ووضعنا خطى الأجيال الصاعدة فى أفضل طريق نحو التحرر والوحدة .

فهنيئاً للشعب العربى فى مصر وسورية . وهنيئاً لكل من خط فى يده كلمة تاريخ وحدة العرب . هنيئاً لكل من شهد هذا اليوم المجيد بين أيام عمره وحياته . وهنيئاً للعرب جميعهم أينما كانت ديارهم ومساكنهم .

وأنتم أيها المصريون — أيها الإخوة فى العروبة : لقد سرتم فى نهضتكم بقيادة الرجل العربى الملهم جمال عبد الناصر . فسارت بكم قضية العرب إلى الأمام . إنى أحييكم وأهز يد كل واحد منكم على أحر ما تنعقد عليه الأيدى من ود وصفاء . وقلوبنا معكم . والله مؤيدنا وناصرنا .

خطاب سيادة الرئيس جمال عبد الناصر حين إعلان الوحدة

أيها المواطنون :

هذا اليوم الذى تلتقى فيه جمهورية مصر ، مع جمهورية سورية — لتتوحدا وتكوّنا الجمهورية العربية المتحدة . هذا يوم من أيام العمر التى نعتز بها على مر الزمان ، ونعتز بها على مر الأيام .

فى هذا النهار يقرر الشعب العربى فى سورية ومصر الوحدة . ويعلن مشيئته بقيام دولة جديدة . دولة عظمى . دولة قوية تنبع إرادتها من شعبها ، وتنبع إرادتها من مشيئتها ، ومن ضميرها .

فى هذا النهار يقرر الشعب فى سورية ومصر ، قيام هذه الدولة — التى تثق بقوتها ، وتثق بحقها فى الحرية وفى الحياة .

فى هذا النهار — يا إخوانى — نشعر جميعاً أننا استطعنا أن نقيم دولة عظمى ، دولة قوية حقيقية .

أيها المواطنون :

لقد كنا نتكلم عن القومية العربية ، وكانت القومية العربية شعارات وهتافات . كانت نداءات عاطفية ، ونداءات معنوية . كنا نتكلم عن القومية العربية ، ونشعر بقوتها وبقيمتها . كنا نتكلم عن القومية العربية — وكنا نشعر أن أعداءنا أرادوا دائماً أن يفرقوا بيننا ! وأن يقسموا الأمة العربية إلى أمم صغرى ، يتحكمون بها ويسيطرون عليها . كنا نشعر أن كل دولة منا تؤثر على مصير الدولة الأخرى . وكنا نشعر أنه لابد لنا من أن نتضامن ، وأن نتآزر ، وأن نتآخى — حتى ندفع عنا أطماع الطامعين ، وحتى ندفع عنا غائلة الزمن . وحتى لا تتكرر مأساة فلسطين . وحتى نستطيع أن نحافظ على الوطن العربى ، وأن نبرهن على أننا متحدون متكاتفون .

اليوم — أيها الإخوة المواطنون — بعد أن كانت القومية العربية هتافاً وشعارات . أصبحت حقيقة واقعة . اليوم اتحد الشعب العربى فى سورية مع الشعب العربى فى مصر . وكونت الجمهورية العربية المتحدة — هذه الجمهورية

ستكون سنداً للعرب جميعاً ، ستكون قوة للعرب جميعاً . ستعادى من يعاديها . وتسالم من يسالمها . ستتبع سياسة تنبع من نفسها ، من ضميرها .

اليوم — أيها الإخوة المواطنون — يوم خالد فى تاريخنا . ومرحلة حاسمة من تاريخنا . اليوم نشعر أن القومية العربية تتحقق . وننظر إلى المستقبل ، ونشعر بعون الله أنه سيكون مليئاً بالعزة والكرامة ، ننظر إلى المستقبل ، وننظر إلى الماضى . ونقرر ما فى نفس كل فرد منا . كل واحد منا يقرر أن الماضى لن يعود . ولن يسيطر علينا أجنبى . ولن يستبد بنا مستبد . وسنتجه إلى الأمام لنبنى ونشيد . لنرتفع بمستوانا ، ولنزيد من قوتنا — حتى لا يتكرر ما فات . ننظر إلى المستقبل ، ونتجه إليه . ونراه مستقبلا عزيزاً كريماً . وننظر إلى القومية العربية التى حلمنا بها ، ونادينا بها . والتى كانت لنا أمنية من أغلى الأمانى . وسنعمل جميعاً بعون الله على تثبيت أهداف القومية العربية ، وعلى تثبيت أسسها . سنعمل جميعاً مع الوطن العربى ، ومع الشعب العربى فى كل مكان .

أيها المواطنون . . .

لا بد من أن أذكر لكم جهاد الرجل العربى الذى جاهد فى سبيل الوحدة العربية مدة تزيد على الخمسين عاماً .

أتحدث إليكم عن جهاد شكرى القوتلى الذى حارب فى سبيل استقلال بلاده ، وفى سبيل استقلال وطنه . حارب فرنسا ، وسجن ، وحكم عليه بالإعدام . حارب من أجل القومية العربية ، ومن أجل الوحدة العربية . فإذا كنت أهنئكم اليوم فإننى أهنئ شكرى القوتلى الذى استطاع أن يحقق الآمال .

أيها المواطنون . . .

بهذه الصفات ، وبهذه القيم ، نستطيع أن نثبت المبادئ ، وأن نثبت المثل العليا . على هذه المثل ستسير الجمهورية العربية قدماً إلى الأمام ، وراء المثل العليا ، التى بناها ، وعبر عنها ، وأظهرها ، شكرى القوتلى .

فباسمكم جميعاً أتكلم إلى أخى الأكبر شكرى القوتلى . وأقول له : إننا

جميعاً نحييك . وإننا جميعاً نحيي جهادك . وإن الشعب العربى فى كل مكان سيذكر على مرّ الزمن ما قمت به ، وإن الجمهورية العربية المتحدة هى خير هدية نقدمها لك اليوم ، بإعلان مولدها ، لأنها هى النتيجة الكبرى لجهودك فى سبيل الوحدة العربية ، وفى سبيل القومية العربية .

أيها الإخوة المواطنون :

فلنطلب من الله الهداية والتوفيق [1] .

كتاب الرئيس القوتلى لمجلس الأمة المصرى

سيادة رئيس مجلس الأمة — القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :

إننى إذ أعلن لمجلس النواب السورىّ رسميا مولد الجمهورية العربية المتحدة ، والميثاق الذى تم الاتفاق عليه بين حكومتى جمهورية مصر ، والجمهورية السورية ، فى اجتماعات القاهرة من يوم الجمعة الأول من فبراير إلى يوم الأحد الثالث منه عام ١٩٥٨ الموافق للثانى عشر من رجب إلى الرابع عشر منه عام ١٣٧٧ فيصبح حلم الأجيال العربية حقيقة واقعة ، تنفيذاً لإرادة شعب الجزءين العربيين الغاليين أرى من واجبى ونحن قادمون على الاستفتاء الشعبى المقرر لانتخاب رئيس للجمهورية العربية المتحدة ، يوم الجمعة فى ٢١ فبراير ١٩٥٨ ، أن أكون المواطن الأول ، فى الدولة الجديدة ، يرشّح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً لها [2] ، شعوراً منى بالواجب تجاه أمتى وبلادى

---

(١) نشرنا القسم الأخير من الخطاب التاريخى الخالد فى مستهل هذا الكتاب فى مطلع فصل « من أقوالهم » .

(٢) حينما تليت هذه الرسالة فى مجلس نواب سورية ساد المجلس جو من الحماسة والعاطفة الملتهبة ليس له مثيل . وقد وقف النواب والنظارة جميعاً يهتفون للرئيس القوتلى ويصفقون بشكل متواصل دام بضع دقائق . بينما كانت الدموع تسيل على وجنات الكثيرين منهم من شدة التأثر . لقد كان موقفاً لا مثيل له فى التاريخ .

وثقة منى بإخلاص الرجل العربىّ المؤمن ، الذى تعقد عليه الأمة أكبر الآمال ، وتقديراً لما يتمتع به من صفات النزاهة والجرأة والإقدام ، وعلى رأسها تفانيه فى خدمة أمته وقوميته العربية .

إننى إذ أرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لتسلم هذه الأمانة الغالية ، أعلن ثقتى واطمئنانى إلى أن سيادته سيعمل على إعلاء شأن الجمهورية الفتية ، بكل تجرد وصدق لما فيه عزها ورخاؤها وسعادة مواطنيها ، وما فيه خير العرب فى جميع ديارهم ومساكنهم ، والله ولى التوفيق .

الأربعاء الخامس من شباط (فبراير) ١٩٥٨ شكرى القوتلى

كتاب مجلس الأمة ـ إلى فخامة الرئيس شكرى القوتلى

حضرة صاحب الفخامة السيد شكرى القوتلى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

وبعد : فقد تشرفت بإبلاغ مجلس الأمة فى جلسة الوحدة التى عقدها فى يوم ١٦ رجب سنة ١٣٧٧ الموافق ٥ فبراير سنة ١٩٥٨ رسالتكم الكريمة التى تفيض وطنية وإخلاصاً وتفانياً وأملا وعملا ، فى سبيل وحدة الأمة العربية ، وتحقيق مجد العروبة .

وإنه ليطيب لى فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ القومية العربية ، أن أبلغ فخامتكم بالقرار الذى اتخذه مجلس الأمة بعد استماعه إلى هذه الرسالة التاريخية الكريمة .

نص القرار

« استمع أعضاء مجلس الأمة إلى الرسالة الكريمة التى وجهها فخامة السيد شكرى القوتلى ، رئيس الجمهورية السورية ، إلى مجلس الأمة ، والتى تفيض

بأنبل المشاعر ، وأصدق الأحاسيس ، وتعبر عن روح قومية وعقيدة مخلصة ، أشربت حب الوطن العربىّ ، والرغبة المؤمنة الصادقة فى البذل والتضحية من أجل وحدة الأمة العربية .

وإن مجلس الأمة ليتجه بالتهنئة إلى الرئيس شكرى القوتلى الذى استحق بجهاده المتصل ، وتضحياته الكريمة ، تقدير الأمة العربية أن وفقه الله إلى تحقيق ما جاهد من أجله منذ فجر حياته .

وإن الموقف الوطنى الرائع الذى يقفه الرئيس شكرى القوتلى ، فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ الأمة العربية ، بترشيحه السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، لهو الرمز الخالد والمثل الحى ، لروح باذلة مضحية مؤمنة مدركة .

وإن مجلس الأمة إذ يعرب عن صادق شكره ، وعظيم امتنانه ، للروح التى أملت هذا الترشيح ليعلنُ عن تأييده الكامل لترشيح القائد الوطنى المخلص جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، ويؤمن إيماناً عميقاً بأنه سيحمل الأمانة ، ويتم الرسالة ، ويحقق هدف الأمة العربية فى الوحدة والعزة والكرامة » .

وأرجو أن تسمحوا لى فخامتكم بأن أعبر عما تكنه قلوبنا جميعاً لكم من صادق التقدير وعظيم العرفان بجميلكم على الأمة العربية . وندعو الله أن يمنحكم دوام الصحة والتوفيق حتى تتحقق آمالنا جميعاً فى الوحدة الشاملة للأمة العربية .

وتفضلوا فخامتكم بقبول عظيم الاحترام .

عبد اللطيف البغدادى

رئيس مجلس الأمة

خطاب الرئيس عبد الناصر

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

فى حياة الشعوب أجيال يواعدها القدر ويخصها دون غيرها بأن تشهد نقط التحول الحاسمة فى التاريخ ، إنه يتيح لها أن تشاهد المراحل الفاصلة فى تطور الحياة الخالد، تلك المراحل التى تشبه مهرجان الشروق حين يحدث الانتقال العظيم ساعة الفجر من ظلال الليل إلى ضوء النهار ، إن هذه الأجيال الموعودة تعيش لحظات رائعة . إنها تشهد لحظات انتصار عظيم لم تصنعه وحدها ، ولم تتحمل نتيجته بمفردها ، وإنما هى تشهد النتيجة المجيدة لتفاعل عوامل أخرى كثيرة ، واصلت حركتها فى ظلام الليل ووحشته ، وعملت ، وسهرت ، وظلت تدفع الثوانى بعد الثوانى إلى الانتقال العظيم ساعة الفجر .

ساعة الفجر التى نعيشها :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

إن هذا الجيل من شعب مصر من الأجيال التى واعدها القدر لتعيش لحظات الانتقال العظيمة التى تشبه مهرجان الشروق ، لقد عشنا ساعة الفجر ، ورأينا انتصار النور الطالع على ظلمات الليل الطويل . لقد عشنا فجر الاستقلال ، وعشنا فجر الحرية ، وعشنا فجر العزة والكرامة ، وعشنا فجر القوة ، وعشنا فجر الأمل فى بناء مجتمع سعيد ؛ واليوم نعيش فجراً جديداً رائعاً لقد بدأ مشرق الوحدة .

أقدم آمال العمر :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

لقد سبق كل فجر شهدنا مطلعه ليل طويل . لقد سبق فجر الاستقلال ، وفجر الحرية ، وفجر العزة والكرامة ، وفجر القوة ، وفجر الأمل ، ليال طويلة امتدت مئات السنين ، فى صراع مستمر مع ظلام الاستعمار والاستبداد

والظلم والضعف . ليال طويلة عاشها أجيال قبلنا ، وقاست أهوالها ، وتحملت مصاعبها، لكى تقرب منا اللحظات الرائعة للانتقال العظيم . وكذلك هذا الفجر ، الذى نشهد هذه اللحظة مطلعه . إن الليل الذى سبق فجر الوحدة هو دون شك أطول ليالى كفاح أمتنا العربية ، ذلك أن الأمل الذى يتحقق لنا اليوم هو أقدم آمالنا . إنّ تاريخ الوحدة فى أمتنا هو نفس عمر تاريخ أمتنا .

لقد بدأ معها منذ بدأت . نشأ على نفس الأرض ، وعاش نفس الحوادث ، واندفع إلى نفس الأهداف ، فلما استطاعت أمتنا أن ترسى قواعد وجودها فى هذه المنطقة ، وتثبت دعائم هذه القواعد ، كان مؤكداً أن الوحدة قادمة وأن موعدها بات قريباً .

القوة والوحدة وتاريخ أمتنا :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

لقد كان الكفاح من أجل الوحدة هو بنفسه الكفاح من أجل القوة ، من أجل الحياة . ولقد كان التلازم بين القوة والوحدة أبرز معالم تاريخ أمتنا . فما من مرة تحققت الوحدة إلا تبعتها القوة ، وما من مرة توافرت القوة إلا وكانت الوحدة نتيجة طبيعية لها . وليس محض صدفة أن إشاعة الفرقة ، وإقامة الحدود والحواجز ، كان أول ما يفعله كل من يريد أن يتمكن فى المنطقة ويسيطر عليها . وكذلك لم يكن محض صدفة أن محاولات الوحدة فى المنطقة لم تتوقف منذ أربعة آلاف سنة طلباً للقوة بل طلباً كما قلت للحياة .

أمة عربية واحدة :

ولقد كان أسلوب السعى إلى الوحدة يتشكل بالعصر الذى تعيش فيه كل محاولة لتحقيقها . ولكن الهدف ظل دائماً لا يتغير ، وبقيت الغاية فى كل وقت هى هذه اللحظات التى نعيشها الآن . لقد اتحدت المنطقة بحكم السلاح ، يوم كان السلاح هو وسيلة التعبير فى الطفولة الأولى للبشرية ؛ واتحدت المنطقة

بيقين النبوات حين بدأت رسالات السماء تتنزل إلى الأرض لتهدى الناس ؛ واتحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين اندفعت رايات الإسلام تحمل رسالة السماء الجديدة ؛ وتؤكد ما سبقها من رسالات ، وتقول كلمة الله الأخيرة فى دعوة عباده إلى الحق . واتحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة فى أمة عربية واحدة . واتحدت المنطقة باللغة يوم جرت العربية وحدها على كل لسان . واتحدت المنطقة تحت دافع السلامة المشتركة يوم واجهت استعمار أوروبا يتقدم منها محاولا أن يرفع الصليب ليستر مطامعه وراء قناع من المسيحية . وكان معنى الوحدة قاطعاً فى دلالته ، حين اشتركت المسيحية فى المشرق العربى فى مقاومة الصليبيين ، جنباً إلى جنب مع جحافل الإسلام حتى النصر . واتحدت المنطقة بالمشاركة فى العذاب يوم حلت عليها غارات الغزو العثمانى ، وأسدلت من حولها أستار الجهل تعوق تقدمها ، وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه عصر النهضة فى أوروبا . بل إن المنطقة اتحدت فيما تعرضت له فى كل نواحيها من سيطرة الاستعمار عليها ، ثم كان اتحادها فى الثورة على هذا الاستعمار بكل أشكاله ومقاومته فى تعدد صوره . ومع الوحدة فى الثمرة كانت الوحدة فى التضحيات ؛ فإن المشانق التى نصبها جمال باشا فى دمشق عاصمة سورية لم تكن تختلف كثيراً عن المشانق التى نصبها اللورد كرومر فى دنشواى هنا فى مصر .

تاريخ واحد للقاهرة والشام :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

هكذا ترون الوحدة حقيقة ، حقيقة نسعى إليها أو حقيقة قائمة بالفعل ، وهكذا ترون أن الصراع من أجل القوة ، من أجل الحياة ، يتم ويتحقق بالوحدة ؛ وترون أن الوحدة لا تتم ولا تتحقق إلا بقوة الحياة ، هكذا ترون أن تاريخ القاهرة فى خطوطه العريضة ، هو بنفسه تاريخ دمشق فى خطوطه العريضة . ولقد

تختلف التفاصيل ، ولكن المعالم البارزة هى نفس المعالم ، نفس الدول ، نفس الغزاة ، نفس الملوك ، نفس الأبطال ، ونفس الشهداء . بل إنه لما بدا فى بعض الأحيان أن مصر ابتعدت عن الفكرة العربية ، وقطعت ما بينها وبين المنطقة من صلات ، وذلك بعد الحملة الفرنسية على مصر ، ثم تحت حكم أسرة محمد على ، لم يكن الأمر فى باطنه يمثل ما يبدو فى ظاهره .

ما يقره الله لا يبعده إنسان :

لم يكن البعد إلا سطحياً ، ولم تكن القطيعة إلا باللسان . أما الشواهد الحقيقية ، وأما الأدلة الأصيلة فكانت تؤكد أن ما قربه الله لا يمكن أن يبتعد ، وما وصلته الطبيعة لا يمكن أن ينقطع . ومن بين الشواهد والأدلة أن جيش الفلاحين الذى سار تحت قيادة إبراهيم باشا ليحرر سورية من الظلم العثمانى كان يسمى نفسه الجيش العربى .

ومن بين الشواهد والأدلة أن القاهرة التى سارعت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، إلى فتح النوافذ لتيارات النهضة ، تحولت إلى قلعة للفكر الحر فى الشرق العربى ، وما لبث رواد الحرية فى سورية ، ورواد الحرية فى المنطقة العربية كلها ، أن وفدوا إليها يتحصنون بأسوارها المنيعة ، ويبعثون منها إشعاعات الفكر لتعبئ وتلهم ، بل إن القاهرة تحوّلت فى مطلع القرن العشرين ، فأصبحت هى ودمشق المركز الرئيسى للجمعيات السرّية التى راحت تناضل جبروت سلاطين استانبول ، من أجل تحرير الأمة العربية ، بكل ما يملكه الشباب من روح البذل والفداء .

الوحدة هى الحقيقة :

هكذا كانت الوحدة هى الحقيقة ، وكان كلّ ما عدا الوحدة اصطناعاً . وهكذا كان واضحاً أنه إذا تركت المنطقة تستوحى طبيعتها ، وتستلهم مشاعرها ،

وتستمع إلى دقات قلبها ، فإن اتجاهها إلى الوحدة يصبح لا ريب فيه ، ولا مناص منه ، وهذا هو ما حدث .

توافق وتماثل فى اليقظة :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

حين حصلت سورية على استقلالها الكامل تطلعت لمصر . وحين حصلت مصر على استقلالها الكامل تطلعت إلى سورية . ولقد كان التقارب أبلغ التوافق والتماثل كاملا حتى قبل أن يوقع ميثاق جامعة الدول العربية ، وحتى بعد أن تم توقيعه وأرادت له بعض القوى أن يبقى حبراً على ورق . لقد كان فى سورية رد فعل لكل حركة فى مصر ، كما كانت أصداء الذى يحدث فى دمشق تتجاوب فى القاهرة . فى مصر وسورية ذلك الفوران الذى أعقب الحرب العالمية الثـانية ، وبدأت على أثره حركات التحرير الهائلة فى أفريقيا وآسيا . فى سورية ومصر هذه الهزات العنيفة ووراءها جميعاً محاولات تغيير الأوضاع تطلعاً إلى الأفضل والأحسن ، فى مصر وسورية ذلك الاندفاع إلى حرب فلسطين بالفروسية والإيمان ، ولكن من غير سلاح . ثم كانت فى القاهرة ودمشق تلك الآثار التى ترتبت على حرب فلسطين ، والتى كان أولها تلك اليقظة التى تشبه انتفاضة من لسعته النار فاستفاق .

معركة واحدة خضناها :

ثم فى سورية ومصر نفس المعارك ، ولو قصرنا الحساب على الشهور الأخيرة فقط لكان مدهشاً أن المعارك التى خاضتها دمشق هى نفس المعارك التى خاضتها القاهرة ، معركة الأحلاف العسكرية ، معركة السلاح ، معركة عدم الانحياز ، معركة المؤامرات ، معركة التحرر الاقتصادى ، بل إن سورية خاضت معركة قناة السويس بنفس العنف وبنفس القوة التى خاضت بها

بور سعيد معركة قناة السويس . وكذلك خاضت مصر معركة التهديدات الموجهة إلى سورية وأعصابها كلها فى دمشق وأمام أعصابها قطعة من جيشها احتل جنودها مراكزهم جنباً إلى جنب مع إخوانهم جنود سورية . ولقد كان ذلك كله مدهشاً ولكنه لم يكن من صنع الصدف . لقد مهدت عوامل كثيرة ، وكبيرة ، ونبيلة ، وعميقة ، لهذا الذى ربط بين مصر وسورية مهدت الطبيعة ، ومهد التاريخ ؛ مهد الدم ، ومهدت اللغة ؛ مهدت الأديان ، ومهدت العقائد ، مهدت السلامة المشتركة ومهدت الحرية ، كذلك اشتركت فى التمهيد له تجارب من الألم والعذاب صنعها فرسان الطغيان الثلاثة : السجن ، والمنفى ، والمشنقة ؛ ولكن ذلك كله كان يمهد لهذا الفجر الذى نشهد اليوم مطلعه بعد ليل طويل .

فجر الوحدة نداء قدسى :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

ولقد كان البشير بالفجر هو ذلك القرار الذى اتخذه مجلس النواب السورى ، واتخذه مجلسكم ، بالعمل فوراً لتحقيق الوحدة بين مصر وسورية . كان قراركم هذا تعبيراً عن واقع هائل لا يمكن تجاهله ، وصدى مستجيباً لنداء قدسى لا نستطيع أن نغلق آذاننا دونه ؛ ولم يكن هذا الواقع موجوداً فى دمشق والقاهرة وحدهما ، كذلك لم يكن ذلك النداء القدسى فى هذا النطاق وحده لا يتجاوزه ، وإنما كان الواقع موجوداً فى كل أرجاء الوطن العربى وكان النداء هو هدير التيار المتلاطم بالموج ، ذلك التيار الذى شقت القوميةُ العربية كلها مجراه ، وحددت له خط سيره . هكذا بدأت فى القاهرة محادثات نهائية لرسم الشكل الخارجى للحقيقة الواقعة . ولقد كانت هذه المحادثات فى القاهرة تجربة جديدة فى التاريخ . إنها لم تكن اجتماعاً يتم بناء على رغبة ساسة أو حكام وإنما كانت اجتماعات تمت بناء

على ضغط وإلحاح ، وإرادة عنيدة مصممة ، صادرة من قلوب الشعوب . ولقد كان خيراً على أى حال أننا تركنا الأمور تصل هذا المدى ، فقد كان ينبغى للشعوب أن تأخذ فرصتها كاملة حتى تتثبت من يقينها ، وحتى يترسب إيمانها مع الأيام إلى أعماق الأعمال ؛ وحتى تؤكد لها الحوادث والتطورات أن طريق الوحدة هو طريق القوة ، طريق الحياة .

المسؤولية التاريخية لسورية ومصر :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

كان معنى محادثاتنا فى القاهرة ووصول رائد الوحدة ، وبطلها ، ورافع علمها ، المجاهد شكرى القوتلى إلى مصر ، مع وفد من رفاقه فى الجهاد ، كان معناه أن الأوان قد آن ، وأن الساعة التى تطلع إليها أجدادنا ، وعمل من أجلها آباؤنا ، قد دقت أجراسها ؛ وأنه قد كتب لجيلنا بعد ليل طويل أن يشهد مطلع صبحها . كان معناه أن الذى تخيلوه فى المنى قد أصبح واقعاً ، وأن الذى ذاقوا من أجله الموت قد أصبح هو الحياة نفسها ، كان معناه أن الذى نصبت المشانق لتحول دونه قد أصبحت له وحدة قوة القانون وقدرته . كان معناه أن الذى اصطنعت الفرقة بينه قد عاد إلى طبيعته التى أودعها الله فيه كلاً متجانساً متحداً ، كان معناه أن السلاسل تكسرت ، أن السدود انهارت ، أن الحواجز سقطت ، وأن الشظايا المتناثرة ، والأجزاء المتفرقة ، توشك أن تعود إلى بعضها ، بل إلى كلها . كان معناه أن سورية ومصر قد قررتا تحمل المسؤولية التاريخية التى تهيأتا لها ، بوصفهما بلدين عربيين خلص زمام الأمر فيهما لأبنائهما ؛ وتحققت لهما فى أراضيهما سيادة حقيقية ، واستقلال كامل . كان ذلك هو معنى محادثات القاهرة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

قلت لحضراتكم مرة إننا نعتبركم مجلس الثورة الجديد باعتبار أن

الثورة مستمرة . وإنه لمما يدعو إلى الأمل أن تجربة الشهور القليلة التى مضت ، منذ بدأ مجلسكم يمارس عمله ، كانت تبشر بتعاون كامل يستهدف صيانة مصالح الشعب ، ويسعى إلى بناء المجتمع الجديد ، وإنه لحق علينا أن نقول لحضراتكم فى هذه اللحظات الفاصلة فى تاريخ شعبنا ، إنكم كنتم على خير ما كنا نأمل ونتمنى ، وإن مشاركتكم لنا فى المسؤوليات كان خير عون لنا فيما مضينا لتحقيقه من الأمور ، وإنه لمما يسعدنى أن التطور العظيم الذى نعنيه لن ينهى صحبتنا على الطريق ، وإنما هو على العكس سيقوى الأواصر بيننا ، ويشد الصلات ، ويجعلنا فيما نحن مقبلون عليه أكثر اندفاعاً ، وأكثر صلابة ، وأعز وحدة وتضامناً .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

على أننى أرى أنه من واجبى فى هذه اللحظات أن أصارحكم ، وشعب الجمهورية العربية المتحدة كله معكم ، أن الطريق الذى نقبل عليه طويل وشاق . إن رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس ، وإنما رحلتنا عليه مشاق ومتاعب وكفاح وجهاد . ولكن هذه كلها هى الثمن العادل للأمل الكبير الذى نسعى إليه . ولسوف يضاعف من مصاعب ما سوف نلقاه أمامنا على الطريق ، أن الذين لا تروقهم وحدة سورية ومصر ، ولا توافق أغراضهم ، لن يتقبلوها بالرضا والسكوت ، وإنما ستكون المساعى ، وستكون المحاولات ، وستكون المناورات . لهذا أقول لكم من الآن إننا فى سعينا على طريق أملنا ، يجب أن نظل مفتوحى الأعين ، متنبهى الحس والوجدان .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

إننا نعيش فترة رائعة ، ولكن علينا أن ندرك أن لهذه الفترة الرائعة أخطارها أيضاً ، وربما كانت شهوات أنفسنا هى أكبر الأخطار التى يتعين علينا مواجهتها . لقد مرت علينا قرون من الزمان وأحلامنا

وأمانينا ورغباتنا وأهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التى صنعها الاستعمار ، ولقد تهاوت الحواجز والسدود لما زال وجود الاستعمار من بلادنا ، وهكذا بدأت الأحلام والأمانى والرغبات والأهداف تنطلق من عقالها وتتدافع بسرعة بعد الكبت الطويل فى مثل تدفق الفيضان . ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقى لسرعة الحوداث فى جيلنا ، وهو أمر طبيعى بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكنه أيضاً تحذير كما هو تفسير إنه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على أمانينا ، ثم نفتح عيونها ليمر التيار على شكل الفيضان المنظم ، ولا يخر فوق رؤوسنا كالطوفان العالى الشديد .

سورية فى طليعة العروبة :

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

إننى واثق بأن التجربة التى نواجهها اليوم، ستحقق كل ما يرجوه لها هؤلاء الذى عملوا لمشرق فجرها طوال الليل الموحش المظلم، وإنه لمما يؤكد ثقتى أن الله تعالت قدرته قد جمع قلبينا بقلب خير رفيق على طريق ، خير سند فى معركة ، خير قريب ، خير أخ ، خير حبيب . لقد أكد شعب سورية بتجارب الأيام ، تجربة بعد تجربة ، أنه طليعة القومية العربية ، وأنه رأس الحربة فى اندفاعها ، وأنه الحارس الأمين لتراثها المجيد .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق ، إن دولة جديدة تنبعث فى قلبه ، لقد قامت دولة كبرى فى هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ؛ ليست عادية عليه ، ولا مستعدية . دولة تحمى ، ولا تهدد ، تصون ولا تبدد تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ؛ تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، ولا تتجرف ، ولا تنحاز ؛ تؤكد العدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، للبشر جميعاً بقدر ما تحمل وتطيق .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

وفقكم الله وبارك لكم وحدتكم وحمى جمهوريتكم العربية المتحدة .

خطاب الرئيس القوتلى

أيها النواب المحترمون .

أفتتح كلمتى إليكم اليوم ، فى هذه الجلسة التاريخية التى يعقدها مجلسكم الكريم ، بحمد الله حمداً كبيراً على ما أفاء علينا من نعمته ، وما أحاطنا به من سابغ عنايته ، فوجه خطانا فى طريق الصواب ، وألهمنا الخير والرّشاد ، وأخذ بيدنا أخذاً عزيزاً فى سبيل مرضاته وابتغاء وجهه ، ووجه الحق ، حتى رأينا بعيوننا ما كنا نراه بأحلامنا وأمانينا ، وتفتحت لنا فى هذه الدنيا آفاق واسعة ، وآمال جسام .

فى هذه الجلسة الكبرى التى يعقدها مجلسكم ، ونحن فى منطق تحول جديد فى تاريخ هذا الجزء السورى من الوطن العربى ، أريد أن أذكركم لتذكروا أبداً ، أن نضالنا فى سبيل حريتنا ، كان يمشى جنباً إلى جنب مع نضالنا فى سبيل الوحدة القومية ، فمنذ أن فتحنا على الحكم العثمانى ، ثم على الاحتلال الفرنسى ، نار الجهاد ، فأعلنا جهادنا على الملأ باسم الله وباسم العروبة ، وكانت كل حركة سورية نقوم بها ضد الاغتصاب والاحتلال ، متصلة الجذور بكل وسط عربى يهزه مثلما يهزنا شعور العزة والكرامة ، وتدفعه مثلما تدفعنا شعائر العقيدة والإيمان والتاريخ المشترك ، والمصير المشترك .

لقد أردنا الثورة العربية خلال الحرب الكونية الأولى ، وفى أعقابها ، ثورة فى سبيل الحرية والوحدة فنصبت لنا أعواد المشانق ، وتهافت عليها الأحرار وهم ينشدون أناشيد الحرية والنصر . وكان نداء هذه الأرض العربية المطهرة بدماء الرواد الأول ، إيذاناً بتفجير الثورة على أربعمائة عام من حكم الإرهاب والإفناء .

ولقد هال الدول الكبرى من بعد ، أن يستيقظ العملاق العربى ، ويدقّ أبواب الحرية ، وكانت قد قرّرت مصيره فى الخفاء ، بينما كنا لا نزال فى مهبّ جهاد التحرير ، وراحت تفرض سياسة السيادة الاستعمارية بالتجزئة وتقطيع الأوصال ، فاخترعت نظام الانتداب ، ورمت الوثبة العربية فى شراك الصداقات الكاذبة ، والحلافات الخادعة ، وكان هذا الجزء السورى من الوطن العربى ، أول من دوت فى الآفاق صيحته ، وتخضبت بالدماء الزكية ثورته ، ومضى تاريخنا من موقعة ميسلون عام ١٩٢٠ حتى موقعة هذا المجلس النيابى عام ١٩٤٥ ، خطاً مستقيماً من المضاء والعزيمة والنضال ، تنير جوانبه مشاعل البطولة ، محترقة بدماء الشهداء ، حتى رأينا العدو الباغى ينكس راياته فوق هذه السهول الحبيبة ، ويغمد سيفه فى قلب غروره ، ويخرج من هذه البلاد ذليلا مدحوراً .

كانت حركة النضال السورى أيها النواب المحترمون ، على اتصال مستمر وثيق ، جهاراً وسرّاً ، بشتى عناصر المقاومة فى كل أرض عربية ، وكنا نعمل أبداً على أن تتواصل حركات المقاومة والجهاد فى كل بلد عربى فرضت عليه التجزئة والانتداب أو قيود المعاهدات ، وكثيراً ما التقت التيارات السورية بالروافد العربية هنا وهناك ، لإعلان النقمة والثورة ، على سلطات الاحتلال والاغتصاب ، وكنا نوجه النضال المحلى توجيهاً قومياً شاملا قناعة منا بأن النجاح معقود على تعاقد الأيدى ، وتلاقى القوى ، وليس من سبيل للإعراب عن وحدة لأرض ، ووحدة الهدف ، ووحدة المصير ، إلا بوحدة النضال والعمل القومىّ المشترك ، وعندما ظفرنا بالحرية والاستقلال ، وجلت جيوش الاحتلال جلاء أبديّاً عن أرضنا وبلادنا ، كنا نرى استقلالنا المنيع العزيز منطلقاً إلى حرية عربية أمنع وإلى عمل قومى أوسع نطاقاً ، وأبعد أملا وطموحاً ؛ بل قد تعالت بحريتنا بشائر التحرير العربى وأخذت أبواق الاستعمار منذ عام ١٩٤٥ تقرع نذير الخطر المقبل من العالم العربى ، متلاقية على هدف واحد فى قمع حركة

الانطلاق ووضع السدود فى طريق الركب المتصاعد . وعبثاً كانوا يهولون ، وعبثاً كانوا يكيدون ، وعبثاً كانوا يضعون فى طريقنا مصاعب وعقبات . . . فقد شببنا على الطوق وخرجنا إلى النور وعبثاً نقبل لحريتنا بديلا .

لقد رفضنا كل مساومة على حريتنا ، ونبذنا كل مشروع يمس سيادتنا وكرامتنا . وشعرنا منذ أيام الاستقلال الأولى أن المستعمر ينظر إلى بلادنا الحرة ، نظرته إلى فراغ يطمع به ، ويطمح إلى ملئه ، فوقفنا بوجه المطامع الجديدة وقفة إيمان وعزّ ، وكان جوابنا على كل محاولة سافرة أو مقنعة بأننا لم نجل الغاصبين ، ليحل محلهم غاصبون آخرون ، مهما كانت أزياء صداقاتهم ومجاملاتهم . بل قد خيل إليهم أن متاعب أيام الاستقلال ستطفئ فى صدورنا جذوة الطموح إلى استكمال أسباب الحياة الحرة العزيزة ، فراحوا يترقبون ويتربصون ، ثم أدركوا أننا طلاب حرية ووحدة ، فلوحوا لنا بمشاريع ذات أشكال خادعة من الاتحاد والوحدة كمشروعى سورية الكبرى ، والهلال الخصيب ، وأدركنا بلا وناء أن هذه المشاريع ليس وراءها سوى سوق استقلالنا إلى مزالق النفوذ الأجنبىّ ، وربط حريتنا بمعاهدات مفروضة ، ومحالفات باطلة فجمعنا أمرنا على مقاومتها ، وأنفذنا إرادة شعبنا فى نبذها وتوهينها ، وكدنا أن ننفرد ذات يوم فى ساحة النضال ، ونحن نمسك بقبضتنا على شرف استقلالنا ، بينما لم نفتر يوماً واحداً عن دعوتنا إلى توسيع ساحات العمل القومىّ المشترك ، والتبشير بالحرية طريقاً إلى الوحدة .

على هذه العزيمة النضالية أسسنا الجامعة العربية وأردناها لتنسيق الأعمال ، وتوحيد الجهود وإكثار مجالات اللقاء خطوة نحو لقاء قومى دائم . وعلى هذه العزيمة أردنا أن نخرج من كارثة فلسطين إلى تضامن عربى أقوى وثوقاً ، وأعزّ جانباً ، وقد وضعتنا الكارثة ومن سببوها إزاء عدو سفاح جعل منه المستعمرون جبهتهم الأولى لكرّهم على بلادنا ، وتخليد نفوذهم وسيطرتهم علينا . وبقى

جزؤنا السورى هذا فى خضم الهول ، وتلاطم تيارات الاستعمار ، صخرة تتحطم عليها المكائد ، وترتد المطامع خاسرة فاشلة .

ومهما تكن طبيعة الأحداث العربية والدولية وتقلباتها خلال الأعوام العشرة الأخيرة ، فقد بتنا على يقين بعد طول التجارب والوقائع أن الوعى العربى القومى قد بلغ أشده ، وهو آخذ بالتوسع والرسوخ ؛ وأن ما تعرضنا له من مخاطر ومكائد ، لم يكن بالواقع سوى سبب بين الأسباب الرئيسية التى وحدت شعور الشعب العربى مشرقاً ومغرباً ، ووضعت رجال هذه الأمة وحاكميها وقادتها فى المواقع الأمامية من تبعاتهم الكبرى إزاء وثبة التحرير والوحدة . وإنه لمن أعز ما نفخر به اليوم ، ونحن مقبلون على حدث الأحداث العربية فى القرن العشرين أن السوريين لم يصونوا استقلالهم إلا ليدفعوا به إلى الأمام عجلة الاستقلال العربىّ كاملاً ، ولم يحتفظوا لأنفسهم بسلامة كيانهم وسيادتهم فى أرضهم إلا ليلقوها دعامة راسخة فى بناء كيان عربى ذى سيادة ، وقد شرفنى أن أعرب عن ضمائرهم وشعورهم يوم الجلاء عام ١٩٤٦ عندما رفعت علم الاستقلال ، وقلت لن يرتفع فوقه إن شاء الله إلا علم واحد هو علم الوحدة العربية .

هذا هو الموجز فى تاريخنا القومى أيها السادة ، نضال فى سبيل الحرية ، وحرية فى سبيل الوحدة . لم نهادن فى جهادنا ولم نساوم ، لم ندّخر طاقةً ولا جهداً ، ولا وفرنا مالاً ولا رجالا . وكنا أبداً فى صراع مع الأعداء غير متكافئ ، فما وهنا ، ولا هانت علينا نفوسنا ، وكانت المقاومة أعظم من قوى الشر ، لأن الإيمان كان فى أعماقها أبداً .

أيها النواب المحترمون . .

فى خلال العامين الأخيرين من هذا التاريخ الحافل ، تم لقاؤنا القومى من جديد مع مصر الثورة . فكان لقاء أخوياً صادقاً على صعيد المبادئ القومية السامية ، وعلى أسس صريحة من سياسة دولية ، مستوحاة من مصلحتنا القومية

العليا ، ومن حرصنا الشديد على صيانة معنى السيادة بكل جماله وجلاله .

ولقد طالما تعانقت فى التاريخ البعيد والقريب ، أسيافنا وأقلامنا وأرواحنا ، ولكن لقاء اليوم ، إلى جانب كل ما بيننا من أواصر القربى والتاريخ والمصلحة القومية ، ذو إعراب كامل عن عزّ نضالىّ ، تجلى فى وعى شعب عربى حر ، وهذه هى بالذات نقطة اللقاء فى تاريخ العرب الحديث . وهذا التاريخ لن يكون جموداً على الأوضاع المصطنعة ، ولا ركوداً على الآفاق المحدودة ، ولا اتكاء ، ولا اتكالا ، ولا أنانية ولا هروباً إلى العزلة ، بعيداً عن تطورات الأحداث ، ومجابهة الوقائع .

لقد دعم الجبهة المصرية السورية أيها الإخوان ، عامل جديد من العوامل الخارجية التى أرادت أن تصدع الجبهة الصامدة ، فزادتها قوةً ومناعةً وصموداً . ومثلما شعر المستعمرون بثقل الجبهة القومية فى الميزان الدولى ، ازددنا شعوراً بوزنها فى تطور الأحداث ، وبضرورتها فى حفظ التوازن العالمى لمصلحة العدل والحرية والسلام . ولقد أرادوا لنا الحرية بعد طول المضاء والعناء حرية مغلولة اليد ، مشلولة الحركة ، ترسف فى أغلال الاتفاقات والأحلاف ، وتتوكأ عاجزة على عصى المساعدات والتبرعات ، فلا تعكس من واقع الحرية سوى ظلالها ، وأبينا إلا أن نريدها حرية كاملة شاملة تمثل سيادة أمة ، وطموح حياة عزيزة كريمة . وكان لابد لمصر من أن تدخل معركة الحرية الضارية فى تأميم قناة السويس ، كما دخلت سورية معارك الحرية تتوالى ، فاستحق هذان الجزءان العربيان الغاليان نعمة الحرية الوارفة الظلال ، بعد أن وضعتهما التجارب على لظى النيران ، آناً بعد آن ، ودوراً بعد دور ، حتى صفا الجوهر الخالص ، واستحال كل باطل إلى رماد ، وكان لنا ما أردناه حرية خالصة ، وكانت الحرية وحدها سبيلنا إلى ربط مصايرنا المشتركة برباط الوحدة الجامعة .

فى سبيل هذه الحرية والسيادة نادينا بمبادئ الحياد الإيجابى وعدم الانحياز ، لأنه من شروط السلامة والسيادة أن تتحرر من سياسة الطامعين ، ومضرمى الحروب ، فليست أرضنا موطئاً لأقدام جيوشهم ، ولا ثرواتنا مورداً لحروبهم ولا أبناؤنا جنوداً فى معسكراتهم ولا مبادؤنا وعقائدنا ذريعة لنشر مبادئهم وعقائدهم

على هذه المبادئ والأسس ، وبروح كلها صدق وعزيمة ومضاء ، توالت اتصالاتنا بمصر العزيزة ، خلال الشهور الأخيرة ، تحقيقاً لقرار مجلسكم ولقرارات الحكومة المنبثقة عنكم ، ولإرادة الشعب بجميع أحزابه وهيئاته ، وانتهينا إلى تلك الجلسة المشتركة ، التى عقدت فى قصر القبة يوم الأول من شباط عام ١٩٥٨ والثانى عشر من رجب عام ١٣٧٧ بحضور كامل أعضاء الحكومتين المصرية والسورية وأعلنا باسم الله ، والشعب العربى فى كل من الجزءين الغاليين : مولد الجمهورية العربية المتحدة . مؤكدين فى البيان التاريخى : أن عناصر الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية وأسباب نجاحها قد توافرت ، بعد أن جمع بينهما فى الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً ، وأكد أنها حركة تحرير وتعمير ، وعقيدة تعاون وسلام . كما أنها فى الوقت نفسه خطوة إيجابية فى طريق وحدة العرب وتضامنهم ، ودعوة إليهم للالتقاء معها بأى شكل مناسب من أشكال الوحدة أو الاتحاد .

فإلى العرب فى مواطنهم ومهاجرهم ، أعلن من فوق هذا المنبر ، كما أعلنت فى القاهرة يوم الأول من شباط ، هذا الميثاق القومى الجديد فتحاً من الله ونصراً عزيزاً . فى مدى الألف عام التى مضت لم يكن أعظم منه شأناً ، ولا أبعد أثراً فى حياة الأمة العربية ، بل فى تاريخ هذا الشرق الكبير ، وإننى لأرى منذ الآن رؤية العين ، وحدتنا القومية ، مؤتلفة مع بقية الأجزاء العربية بأسباب الوحدة أو الاتحاد ، على المبادئ التى تعمل من أجلها ، ونسعى أبداً لتوطيدها ،

وهى مبادئ الحرية والعدل ، والحياد الإيجابى وعدم الانحياز : مبادئ غدت ترمز اليوم إلى ممارستنا حقنا الكامل فى السيادة القومية .

* * *

وإليكم أيها النواب المحترمون هذه المبادئ التى تم الاتفاق عليها لتكون أساساً فى بناء الجمهورية العربية المتحدة، أقدمها لمجلسكم الكريم وفاقاً لما تقرر فى الجلسة التاريخية المنعقدة فى قصر القبة فى القاهرة بين الحكومتين السورية والمصرية .

أولا : الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة ، وشعبها جزء من الأمة العربية .

ثانياً : تتكون الجمهورية العربية المتحدة من إقليمين هما مصر وسورية ، ويكون لكل إقليم مجلس تنفيذى يرأسه رئيس يعين بقرار من رئيس الجمهورية ، ويعاونه وزراء يعينهم رئيس الجمهورية بناء على اقتراح رئيس المجلس .

ثالثاً : الحريات العامة مكفولة فى حدود القانون .

رابعاً : الانتخاب العام حق للمواطنين على الوجه المبين فى القانون ، ومساهمتهم فى الحياة العامة واجب وطنى عليهم .

خامساً : يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الأمة . ويشترط أن يكون نصف الأعضاء على الأقل من بين أعضاء مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى .

ـ يحدد عدد أعضاء هذا المجلس ويتم اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية .

سادساً : يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .

سابعاً : الملكية الخاصة مصونة ، وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ، ولا تنزع الملكية إلا للمنفعة العامة ومقابل تعويض عادل وفقاً للقانون .

ثامناً : إنشاء الضرائب العامة ، أو تعديلها ، أو إلغاؤها لا يكون إلا بقانون ؛

ولا يعفى أحد من أدائها فى غير الأحوال المبينة فى القانون .

تاسعاً : القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون .

عاشراً : كل ما قررته التشريعات المعمول بها فى سورية وفى مصر يبقى سارى المفعول فى النطاق الإقليمى المقرر له عند إصدارها .

ويجوز إلغاء هذه التشريعات أو تعديلها .

حادى عشر : تبقى أحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة بين كل من سورية ومصر وبين الدول الأخرى سارية المفعول فى النطاق الإقليمى المقرر لها عند إبرامها وفقاً لقواعد القانون الدولى .

ثانى عشر : تبقى المصالح العامة والنظم الإدارية القائمة معمولا بها فى كل من سورية ومصر إلى أن يعاد تنظيمها وتوحيدها بقرارات من رئيس الجمهورية .

ثالث عشر : يكون المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الأهداف القومية ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليماً من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتبين طريقة تكوين هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية .

رابع عشر : تتخذ الإجراءات لوضع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة .

هذه هى المبادئ والأسس التى تقوم عليها الجمهورية العربية المتحدة ، تلوتها عليكم ، وما هى فى الواقع إلا من وحى شعوركم وضميركم ، ومن صميم إرادة هذا الشعب الأبى المناضل الذى انتخبكم وائتمنكم ، فأعربتم عن إرادته فى شتى المناسبات والظروف حق الإعراب ، واستحق كل منكم شكر بلاده وأمته .

* * *

أيها النواب الأفاضل :

فى هذا اليوم الخامس من شباط عام ١٩٥٨ ، يكون قد مر على انتخابى

رئيساً للجمهورية من قبل مجلسكم الكريم ، وتطويق عنقى بثقتكم الغالية ، سنتان ونصف السنة . ومثلما أتيح لى خلال عهد الرئاسة الأول بين عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٦ شرف إعلان الاستقلال وجلاء الأجنبى عن هذا الجزء العربى العزيز ، كذلك أتيح لى شرف أرفع وأدعى إلى الاعتزاز بإعلان مولد « الجمهورية العربية المتحدة » خلال عهد رئاستى هذه بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٨ .

وكم أرجو أيها الإخوان الأعزاء ، أن أكون باعتباركم ، وباعتبار هذا الشعب العربى العظيم ، الذى يشرفنى أن أنتسب إليه مواطناً عادياً —كم أرجو أن أكون باعتباركم واعتباره ، قد أديت واجبى نحو بلادى وأمتى ، وكنت جديراً بالثقة التى أوليتمونى إياها خلال هذه الحقبة من الزمن العصيب ، فإن قصرت ، فعذرى أننى عملت بصبر وإيمان ، وصدق وإخلاص ؛ وإن أخطأت ، فعذرى أننى إنسان ، وليس الإنسان بمعصوم . وإن فاتنى شرف الاستشهاد ولم أكن بجوار الخالدين من أحرار هذه الأمة ، فأمام الله أشهد أننى لم أجنب نفسى خطراً ، ولم أوفرها عن شهادة . وقد أراد الله أن ألتقى بأجيال الشباب تتقدم الموكب العربى الطالع وفى جباهها وعود المستقبل العظيم فطيبت نفسى ، وأثلجت صدرى ، وغمرت كيانى بسعادة الطمأنينة والثقة . وإننى إذ أرفع بيدى تلك الشعلة المقدسة لأسلمها فى أوج اشتعالها ، إلى يد الأجيال الشابة القادرة فى أوج فتوتها وشبابها ، أبارك اليد التى تحمل والساعد الذى يرتفع ، والشعلة التى تضىء ، والجيل الذى يصعد ، والروح التى تتدفق ، والمستقبل الذى تبلج فجره ، وهلت للملأ راياته .

إننى إذ أسلم الأمانة الغالية ، طيب النفس ، قرير العين ، واثقاً مطمئناً ، أرشح لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة أمام مجلسكم الكريم فى هذه الجلسة القومية التاريخية ، الرجل المؤمن ، والقائد العربى الملهم ، الرئيس جمال عبد الناصر . وسأكون غداً فى يوم الاستفتاء يوم الواحد والعشرين من شباط

عام ١٩٥٨ أول من يقوم بواجبه كمواطن لانتخاب الرئيس القائد ، الذى وضع ثورة مصر ، فى خدمة القومية العربية ، كما وضع نفسه فى خدمة أمته ، ليعمل فى سبيل حريتها ومجدها ورخائها .

فى هذا اليوم الخامس من شباط عام ١٩٥٨ وجهت إلى سيادة رئيس مجلس الأمة بمصر رسالة[١] وإننى أعتبرها موجهة إليكم فى الوقت نفسه ، وإلى كل مواطن عربى فى أرض الجمهورية العربية المتحدة .

بهذا أيها النواب الكرام ، أتم واجبى ، وأكون قد أديت الأمانة الغالية التى حملتمونى إياها تكريماً وتشريفاً ، وأنا على أشدّ ما يكون المواطن مغموراً بشعور الرضى : رضى الله ، وضميرى ، وأمتى .

فإلى مجلسكم الكريم رئيساً وأعضاء أوجه أجمل التحية والشكر لما نهضتم به من أعباء جسيمة ، وما أنجزتم من تشريعات مفيدة ، خلال عهد نيابتكم الزاهر ، فمثلتم شعبكم خير تمثيل ، وتوّجتم أعمالكم القومية الباهرة ، بقراركم التاريخىّ فى وحدة مصر وسورية .

وإلى الحكومة المجدة العاملة ، برئيسها ووزرائها ، الذين كانوا فى أيام الشدائد التى مرت بالبلاد خير من يمثل إباء هذا الشعب وعزته ، وطموحه وإقدامه ، أجمل التحية والتقدير ، لأنهم بفضل علمهم وإخلاصهم وإيمانهم ، تمكن جهاز الحكم فى البلاد من اجتياز أدق المراحل فى تاريخها الحديث . وقد بلغوا فى مباحثات الوحدة القومية مع مصر العزيزة أوج التوفيق والنجاح وكتبوا بأقلامهم وثيقة الحرية والوحدة .

إلى الجيش السورى الفتىّ بقيادته وضباطه وجنوده ، أوجه تحيتى ، وشكرى وإعجابى . وقد كان الجيش عيننا الساهرة ، وساعدنا العامل ، ودرعنا الواقية ، وكان القذى فى عيون الأعداء ، والشوك فى مضاجع رقادهم ، كما كان فى

(١) نشرنا الرسالة بعد انتهاء فصل « القوتلى يرشح عبد الناصر لرئاسة الجمهورية » ونشرنا جواب رئيس مجلس الأمة المصرى عليها .

ميدان التعاون العسكرى عن طريق القيادة المصرية السورية المشتركة ، خير عامل من عوامل تحقيق الوحدة القومية بين جيشى الجزءين — العربيين المناضلين .

إلى هذا الشعب العربى الحبيب ، الذى طالما منحنى محبته ، وأكرمنى بثقته ، وشجعنى بحماسته وإيمانه ، وملأ قلبى زهواً وفخراً بأمتى وبلادى ، إلى هذا الشعب الأبى المقدام الذى كان أبداً من وراء كلّ شجاعة وتضحية ، وبطولة وانتصار ؛ إلى هذا الشعب ، أرسل تحيتى بوعد : وعدى أن أكون أبداً فى خدمته جندياً من جنوده وعاملا أسعى لخيره وإسعاده فى ظل عهده الجديد وجمهوريته العربية المتحدة .

خطاب أكرم الحورانى رئيس مجلس النواب

كان السيد أكرم الحورانى رئيس مجلس النواب قبل أن يلقى رئيس الجمهورية السيد شكرى القوتلى خطابه البليغ ، قد افتتح الجلسة بالكلمة القومية الآتية :

سيدى صاحب الفخامة . .

حضرات النواب المحترمين . .

باسم الله العلىّ القدير ، باسم الشهداء الأبرار الذين فاضت أرواحهم فى سبيل هذا اليوم ، باسم المجاهدين الأحرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر هذه الساعة . باسم كل من أسهم فى سبيل هذه الدقيقة ، باسم الأمة العربية فى الوطن العربى الأكبر — أفتتح هذه الجلسة .

حمداً لله وشكراً أن تكون هذه الحكومة وأعضاء هذا المجلس عاملين وشاهدين لهذه الجلسة التاريخية ، وأن يكون رائدنا الرئيس شكرى القوتلى وهو من زكت نفسه التضحية ، وملأ قلبه الإيمان ، وتوّجت هامه سلسلة الأمجاد

السياسية ، حمل آمالنا فى الحرية والكرامة ، والاستقلال والجلاء ، وجاء اليوم يحمل أمنيتنا فى تحقيق وحدتنا ، فاللهم اشهد أنه قد حقق الرسالة ، وأدى الأمانة ، فله تقدير الوطن ، ومشارف المجد ، وهامات الخلود .

وبعد أن أنهى الحورانى كلمته ، والقوتلى خطابه ، وافق المجلس على قراره التاريخى بالإجماع .

قرار مجلس النواب

دولة رئيس مجلس النواب الموقر ..

إن مجلس النواب بعد أن استمع إلى البيان التاريخى الذى تفضل فخامة رئيس الجمهورية بإلقائه فى جلسة يوم الأربعاء الموافق ١٦ رجب ١٣٧٧ و ٥ شباط ١٩٥٨ ، شارحاً أسس الوحدة بين الإقليمين العربيين مصر وسورية ، يبارك الخطوات التى قام بها الرئيسان والحكومتان لتحقيق هذه الأمنية القومية العزيزة على قلب كل عربى ، ويؤيد المبادئ الدستورية التى اتفق عليها ، ووردت فى البيان للعمل بها خلال الفترة الانتقالية .

وإن مجلس النواب يرى من واجبه فى هذه اللحظة المباركة أن يسجل بالفخر والاعتزاز الموقف المشرف للرئيسين المؤمنين العظيمين شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر ، وجهدهما الميمون الذى حقق للأمة العربية أمنية قدمت فى سبيلها تضحيات ودماء ، وكانت آخر رؤيا أطبقت عليها أعين الشهداء .

إن المثل الرائع الذى ضربه فخامة السيد شكرى القوتلى بصدق جهاده ، وعميق إيمانه وعظيم إيثاره ، سيظل الهدى الذى تهتدى به أجيال الأمة العربية .

إن أعضاء مجلس النواب بموافقتهم وتأييدهم لما تم إنما يعبرون عن إرادة الشعب العربى فى الإقليم السورى ويؤدون الأمانة ، ويوفون بالعهد حين أقسموا

اليمين الدستورية على العمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية .

ومجلس النواب يرى فى ترشيح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة الضمانة الأكيدة للسير بالدولة العربية الفتية نحو تحقيق أهداف القومية العربية ، وتوطيد العدالة والخير والسلام للعرب والإنسانية .

وبقلوب مؤمنة نتجه إلى الله العلىّ القدير أن يرعى دولتنا الفتية وأن يجعلها فاتحة جمع شمل أمتنا العربية فى دولة واحدة .

الرئيس عبد الناصر فى دمشق

. . . ودوّى صوتُ المذيع فى دمشق :

وصل عبد الناصر . .

وكانت الشوارع تعج بالناس . .

ولم تمض دقائق على إعلان المذيع حتى أقفرت من المارة . وزحف الناس — جميع الناس — يستطلعون طلعة عبد الناصر . وكانوا يركضون . وكان يخيل للرائين أن الأرض والبيوت تركض معهم .

وفاجأ عبد الناصر شكرى القوتلى فى بيته . وتعانق الرئيسان .

وأطل البطلان من الشرفة : بطل الجلاء عن سورية ، وبطل الجلاء عن مصر . عملاقان انحنى لهما « قاسيون » ؛ فارتفعا على قمته إلى سماء المجد والخلود .

وكان شارع الجلاء يموج بالآلاف المندفعة كأنها السيل .

لقد جن الشعب من الطرب .

عبد الناصر فى دمشق ، وفى بيت القوتلى .

إنها الفرحة الكبرى . فكأن جبريل قد نفخ فى الصور ، وكأن القيامة قد قامت . .

وكان الهتاف ، بحياة عبد الناصر والقوتلى ، قد ملأ الفيحاء دوياً ونغماً وموسيقى . .

وَعبقت ورود الغوطة ، وفاح عطرها وأريجها ، وسطع طيبها وشذاها . .

لقد جاء الربيع مبكراً . .

ونعمت دمشق بربيعين : ربيع الغوطة ، وربيع جمال عبد الناصر . .

ووقف عبد الناصر يخطب . . إنه هو بلحمه ودمه . ببسمته الرضية ، وسمرته النقية ، بقامته الفارعه ، ورأسه الشامخ . بعاطفته المتدفقة ، وشعوره النبيل ، بحنانه ، وإيمانه ، وبيانه وعنفوانه ، بعقله — كأنه الفضاء سعة ، والبحر عمقاً ؛ بقلبه — كأنه النسيم رقة ، والفجر عذوبة ؛ بصوته — كأنه الرعد هديراً ، والأسد زئيراً . .

إنه هو . .

وتلمس كلُّ إنسان قلبه — إنه منه . وأصغى . . . هذا صوتُ ضميره ، وصدى وجيبه وشعوره ، كأن سلكاً كهربائياً يصله بقلوب الناس .

لقد عرفتْ فيه كلُّ والدة ولدها ، وأب ابنه ، وأخ أخاه ، ووليد أباه .

وبكى الناس . وبكى معهم عبد الناصر . .

شعوره شعورهم ، وإحساسه إحساسهم . إنه صلاح الدين .. عاد مكلَّلاً بغار الظفر من حطِّين . . وجاء يزف إلى الناس بشرى . . لقد طهرت أرضهم المقدسة من أقدام الغاصبين ؛ وبدأت تسير فى طريق الوحدة والنصر المبيين .

وهُرعت إليه مدن سورية ، وماجت جبال لبنان . . ودبت الحياةُ فى ثلجه — فإذا به ينتقل إلى دمشق فى طهر العذارى وصفاء النيات . وأطل « صنين » فعرف فيه واحداً من الخالدين .

إنه عبد الناصر . .

إنه يومٌ خالدٌ على الدهر — يتعانقُ فيه البطلان : بطلُ الجلاء عن سورية ، وبطلُ الجلاء عن مصر . .

إنها الوحدةُ العربية — هذه طلائعها ، وهذا رسولها . .

إنه عبد الناصر .

درس من القوتلى[1]

استمعتُ له فى الإذاعة ، واستمعت له فى مجلس النواب .

استمعتُ له — وكأن صوته صوتُ الرعد القاصف حيناً ، أو هفهفة النسيم الريان ، حيناً آخر .

استمعتُ له — وكأن حديثه حديثُ التاريخ ، وكأن صوتهُ صوتُ الأجيال . وكأن لهجته الأليفة الحادبة ، صوتُ « ناى » حنون ، تسلسله إلى الأسماع « قصبة » رقيقة الحواشى ، ناعمة الملمس ، تهيج الخواطر ، وتحرك المشاعر ؛ تأسو الجراح ، وتشفى الكلوم .

استمعتُ له — وكأنه الأسد الرئبال . يزمجر — فينتشر الرعبُ ، ويهدأ — فيسودُ الجلال .

استمعتُ له — بالأذن وحدَها ، واستمعتُ له بالأذن إلى جانب العين ؛ وكان فى كلا المرتين بليغاً عظيماً . .

رجل مؤمن — يتحدث عن قضية عادلة يؤمن بها . وإنسانٌ يحمل رسالةً يرى من الواجب أداءها — وقد أداها . وأمانةً يرى من الحق والخير وفاءها — وقد وفاها . .

رجل شريف ، ذو لسان عفيف ، وعقل حصيف ، وقلب كبير نقى عطوف .

استمعت له — وهو فى القاهرة ، يذيع على الدنيا نبأ « الوحدة » التى حققت ، والتخوم التى مزقت . .

وسمعت من بعده صرير أقلام التاريخ وهى تسجل : لولا تضحيتك لما تحققت — الآن — وحدة ولما مزقت تخوم . والوحدة لابد أنها كائنة وستكون ،

(١) كلمة كتبت من وحى تلك الساعات الجميلة الخالدة . وقد نشرت فى جريدة القبس — دمشق ، ومجلة الصياد — بيروت ، ومجلة المواهب — الأرجنتين .

لأن الدماء التى أريقت من أجلها لن تذهب هدراً . والوحدة حقيقة» ، وستحقق – لأن آمال الشهداء لن تخيب ، ولن تضيع ؛ ولكنك سبقت الزمن ، وغلبت الأحداث ، وغيرت مجرى التاريخ .

وسمعته فى مجلس النواب يعلن تنازله عن منصبه كرئيس جمهورية عربية صغيرة ، فى سبيل إنشاء جمهورية عربية كبيرة .

وأطل من على منصة مجلس النواب – وكأنه بطل « أسطورى » يطل من على « هرم » رفيع – لا تطاوله العيون ، ولا تصل إليه الظنون . وكان عظيماً . أطل من على منصة مجلس النواب :

وبيمناه راية الوحدة الكبـــــرى   فميدى يا راية الله ميدى

كان واحداً من أولئك القلائل الذين يجود بهم الدهر فى فترات متقطعة ، ليكونوا حجة على المتقدمين .

وأشعت من وقار وجهه الرصين ، ومن محياه الوسيم ، بوارق الوحدة العربية المتحررة ، والقومية المظفرة المنتصرة . وأشرقت بشائر الأمل الطرى ، والحلم الجميل السخى .

وجلجل صوته فى أسماع الملايين – أسماع الدنيا ، هادياً للحق ، وداعياً للخير . ومهيباً بزملائه رؤساء الدول العربية أن يهتدوا بهديه ، ويقتدوا بتضحيته ، ويسترشدوا بخطاه .

وأعلن تنازله عن رئاسة الجمهورية ، فى سبيل الوحدة العربية – لصديقه وأخيه ، وموضع ثقته وأمله جمال عبد الناصر . للرجل الذى صان للعرب كرامتهم ، وشرف لهم سمعتهم ، وعزز فى الدنيا مكانتهم .

وعاد السامعون بذاكرتهم القهقرى إلى التاريخ ينبشون دفائنه ، للبحث عن تضحيات مماثلة ، فلم يجدوا شبيهاً لها فى التاريخ .

وبكيت – وأنا أرى هذا الشيخ الجليل تحف به قدسية الوطنية ، وجلال التضحية ، وروعة الجهاد .

هذا الشيخ الجليل – الذى تتجمع فيه وحده ، وطنية أمة ، وبطولة شعب ، وخصائص جيل .

هذا الشيخ الجليل – شكرى القوتلى ، الذى سطر لأمته أروع صفحة فى تاريخ البطولة والنضال . وفتح لها باباً جديداً من أبواب المجد والسعادة والخلود .

بكيتُ – وأنا أرى هذا الشيخ الجليل ، يعطى الأجيال القادمة أروع مثال للتضحية ، وأنصع برهان لنكران الذات .

وبكى معى كثيرون . .

وخيل إلى أن الدموع التى انهمرت من عينى « صبرى العسلى » كانت كلمات لخطبة طويلة ، وقوافى لقصيدة جميلة – استغنت بها العينان عن اللسان ، واكتفى بها الوجدان عن البيان .

وتضاءلت أمام عظمة شكرى القوتلى ، كل القيم الرفيعة ، وكل المراكز المنيعة .

ودخل التاريخ من بابه العريض .

وسجل التاريخ اسمه بأحرف من نور .

وسيظل اسمه إلى جانب الوحدة العربية رمزاً ، وقدوة ، ومثالا ،

هكذا هـــكذا وإلا فـــلا لا   ليس كل الرجـــال تدعى رجالا

* * *

لمجدك يعنـــو المجد فى حلبة الفخر   فقد كنت أسمى من تنازل يا شكرى (١)

مشيت على التاريخ مشية واهب   فأذهلت فيه واهب المـــال والعمر

(١) هذان البيتان للشاعر العراقى المبدع العقيد نعمان ماهر .

صفحة من تاريخ القوتلي

كان ملءَ سمع الدنيا وبصرها ، وما يزال ملء سمع الدنيا وبصرها . ومن يوم أن دخل الميدان – ميدانَ الكفاح والنضال . عرف الناس أن قوةً غلابةً ستنطلقُ من هذا الذى دخل الميدان .

ومن أول معركة خاض غمارها – ضد القوى الغاشمة ، ضدَّ السجن والنفى ، ضدَّ الموت ، قال الناس : إن بطلاً جديداً قد نزل إلى السَّاح .

ومن يوم أن كان جندياً – كان قائداً .

فيه عبقرية القائد وبطولته ، وإقدامه وجرأته .

فيه عزوفه عن المغريات ، وترفعه عن مزالق الحياة .

فيه إخلاصه لفكرته ، وإيمانه بقضيته .

وسارَ على متن جواده ، يستعرضُ مواكبَ الأيام – مواكبَ الزهور ، من نصر إلى نصر ، ومن كسب إلى كسب . ومن فتح مبين ، إلى فتح مبين . من ميدان مزدحم رهيب ، إلى ميدان مزدحم رهيب .

وفى الليالى السود ، فى الليالى الداميات الحمر ، يوم تُنكبُ البلادُ بالخائرين المتخاذلين ، بالمترددين المتقاعسين ، كان شكرى القوتلى يقتحمُ الميدان ، لا من زاوية نائية ، ولا من نافذة ضيقة ، وإنما من بابه الواسع العريض ؛ فيحرك الهمم الراكدة ، والعزائمَ الخامدة ، ويحيل الليلَ الدامس إلى نار ونور ، والنفوسَ الخاملةَ إلى كتل من إحساس وشعور .

وظل هكذا . . . إلى أنْ فتح لأمته العريقة باباً جديداً من أبواب الخلود .

ومرت الأيام – وشكرى القوتلى على أريكة من المجد ، فى ركابه العز والسعد ، إلى أن ائتمر به ناس أحسنَ إليهم . . .

وصدق صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «شر اتقِ من أحسنت إليه » . .

ولكنَّ شكرى القوتلى – رغم إيمانه بالله وبالرسول – لم يتق شر أولئك الذين أحسن إليهم ، فأساؤوا إليه ، وهذه حال الدنيا !!

ومرت الأيام – وللدهر دروس وعبر ، وللقدر « حكمةٌ » لا ندركُ مداها ، ولا نعرف مغزاها ، وإذا بالذين ائتمروا بالقوتلى ، وتآمروا عليه ، يجنْدلهم الدهر صرْعىَ هنا وهناك ، ويشتتهم هنا وهناك .

ويبقى شكرى القوتلى – وحده – شامخاً كالطود . تتكسر على أقدامه أراجيف المرجفين ، وأحابيل المغرضين . .

وحتى الذين عرضوا به فى شتى الحالات والمناسبات ، ينطقهم الله بكلمة الحق ، ويدفعهم – آخر الأمر – للاعتراف بالفضل وتقدير الجميل .

وآمن الناس بقوة الإيمان ، وأيقنوا بعظمة اليقين .

وبزغَ فجرُ الوحدة العربية من مصر – من جبين عبد الناصر – من قلب البطل الثائر ؛ من بسمته المشرقة ، ونفسه الخيرة ؛ من إيمانه العميق ، وفكره الطليق ؛ من شجاعته النادرة ، وإرادته القاهرة ؛ من حنكته ودرايته ، وبطولته وشجاعته ؛ من جبين الرجل الذى كانَ حلم الأجيال ، وأمل الملايين .

ووقفتْ فى الطريق عقبةٌ كؤود . فليس للوحدة إلا رئيس واحد ، ولا بد من تضحية .

وتلفتت الأفكار وتطلعت العيون .

وأمسكَ الغُيُر قلوبهم بأيديهم ، مخافة أن تفلتَ الفرصة أو تضيع ؛ ونحن والزمن على موعد. وعبد الناصر الرجل المنتظر ، نفحة الدهر ، ومنحة القدر .

وأطلتْ أرواح أجدادنا الأقدمين ، من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين إلى العباسيين .

وفتح التاريخ صحائفه الذهبية ليسجل اسمَ الرجل الذى يضربُ المثلَ الأعلى للتضحية ، ونكران الذات .

من . . . ؟ . . .

وإذا بالرجل نفسه يقف ؛ وبالصوت نفسه يدوى .

وعرفَ الأفقُ البعيدُ صوتَ الرجل . واطمأن الأجداد إلى مستقبل الأحفاد . وعادت أرواحهم الطاهرة إلى مقرها الأمين ، ومكمنها الحصين . .

إنه شكرى القوتلى يقدمُ على التضحية ؛ ويعلنُ عن نزوله عن رئاسة الجمهورية السورية — فى سبيل إنشاء الجمهورية العربية .

واندغم فى المثل الأعلى ، وأصبح جزءاً منهُ .

كان جهاده أسطورة ، وأصبح نزوله أسطورة .

وما أروع الأسطورتين . وما أخلدهما وأعظمهما . وما أحلاهما وأسماهما .

وارتفع شكرى القوتلى على مناكب الخلود ، على مناكب قاسيون العظيم . يستعرض المواكبَ العربية الزاحفة بقيادة عبد الناصر ، ويباركها ، ويعمر قلبها بالثقة والإيمان . ويمدها بفيض من المثالية وإنكار الذات . وسيبقى رمزاً لها ، لوحدتها ، لنضالها ، لتضحيتها ، لإيمانها العميق ، لسيرها الدائم الدائب ، من فتح إلى فتح . ومن نصر إلى نصر .

سيبقى فى مكانه الخالد — يستعرض المواكبَ الزاحفةَ ، والأجيالَ الصاعدة ، وهو فى خلوده الدائم هازىءٌ بالمغترين .

وأطل « قاسيون » العظيم — الذى أطل فى تاريخه الطويل على الملايينَ من الوافدين . فعرف فيه واحداً من الخالدين ، من القلائل النادرين . وعمم جبينه ، ونقش على صفحة الخلود :

يدكَ البيضاءَ لا نُنْكرها   سوّدَ اللهُ وُجوه المنكرين

شكرى القوتلى . .
صفاته وحياته الخاصة

يوحى منظر شكرى القوتلى بأنه صلب حازم . فهو مكتنز الجسم طويل . تتخلل أساريره تجعدات تتكاثر ، وتزدادُ عمقاً حول فمه ، ومما يزيد من الإيحاء بقوته منظر أنفه الأشم ، وعينيه الثاقبتين الواسعتين ، اللتين تطلان عليك وسط هالة من الوقار والوسامة والأنس . بل إن كل ملامحه تنطقُ بقوته ، وطيبته ، ووداعته ؛ وتشعر بأنه رجل حريص ، وإنْ كان فى ذات الوقت صريحاً .

يستقبلك كريماً فى روحه الوديعة ، بعيداً غاية البعد عن التقاليد الرسمية . ويبتسم لك بحنان ، ورقة ، وإخلاص . وتزيده البسمة وقاراً ، وتزيد مجلسه مهابة وجلالا ؛ ومع ذلك فتشعر أنك أمام أب وأخ ، قبل أن تشعر أنك أمام زعيم ورئيس . بل تشعر أنك أمام إنسان ، بكل ما فى كلمة « الإنسان » من معنى .

ويشيعك بمثل ما استقبلك به ، بابتسامة هادئة وادعة رصينة ، ويخلف فى نفسك أثراً عن ديموقراطيته ، وأنسه ، ومروءته .

يخيل إليك أن فيه أريستوقراطية ، وليس فيه شىء منها . إنه ترفّع ليس مصطنعاً ولا مفتعلا ، يوحى بالعظمة ولا يوحى بالعنجهية ؛ يقربك منه ، ولا يبعدك عنه .

شديد الحساسية ، سريع التأثر .

ينفعل سريعاً ، ويهدأ سريعاً . يغضبُ بسرعة ، ويرضى بسرعة ، له قلبُ طفل ، وعقلُ رجل ، وعزيمة بطل .

عاطفته مترفة . . وإحساسه رقيق .

يتطلع إلى الدنيا من زاوية قلبه ، ووطنيته ، وإيمانه بالله .

شديدُ الوَلع بأسرته ، كثيرُ الحنو عليها .

يتجرع الألم ، ويحتمله صابراً .

رصين ، يحسب حسابَ الكلمة قبل أن يقولها ؛ ومتى قالها لا يتراجع عنها .

لا ينهزم ، وإذا اضطر للهزيمة فإنه لا يعترف بها ولا يقرها . عنده من الاعتداد والاعتزاز ما يحول بينه وبين الاعتراف بها وإقرارها .

يحب أن يقول الناس به خيراً ؛ ولكنه لا يحبُ أن يسمع بأذنه كلمات الثناء والإطراء .

حاولت أن أقرأ عليه هذا الكتاب ، قبل أن يطبع ، حتى يصحح بعض وقائعه ، فصُدم عندما سمع عبارات الثناء عليه ، واعتذرَ عن متابعة السماع وطبعَ الكتابُ دون أنْ يطلعَ عليه .

صريح يكرهُ الالتواء ، ككل صاحب صوت قويَ جهوريَ .

عنده من الإباء والترفع وعزة النفس — ما لو وزع على فيلق لكفاه وأغناه .

يعرف كيف يصعد ، ولكنه لا يعرف كيف يهبط .

يكرهُ العملَ فى الظلام ، ويكره الاختباء والانزواء .

محافظ ؛ وذو نزعة إنسانية سليمة .

عيبه الوحيد : طيبة قلبه . إنها مصدر ضعفه وقوته . سر فشله حيناً ، ونجاحه أحياناً .

يحب الخير ، ويكره الضرر .

لم يقر حكم الإعدام فى رئاساته الثلاث ، إلا لاعتبارات قومية بحتة .

يحدثك . . . وكأنه على منبر يخطب ؛ فهو يهدر كالرعد ، ويزأر كالأسد .

تقف أمامه — ولا يعلو رأسه على رأسك إلا بضع سنتمترات ، وليس بينك وبينه إلا مسافة يد تمتد ، ويخيل إليك ، أن بينه وبينك مسافةً طويلة ، وأن قامته تعلو قامتك بضعة أمتار .

مهيب . كأن الفرزدق قد عناه — أيضاً — بقوله :

يغضى حيــاءً ، ويغضى من مهابته   فلا يكلَّم إلا حين يبتسم

* * *

حياة القوتلى ناعمةٌ مترفة ، فى بيته تتوفر كل معانى السعادة التى ينشدُها رجلٌ متدين ، وأبٌ صالح ، وزوجٌ مستقيم .

والسعادة تنبعُ من ضمير الإنسان نفسه ، ومن صميم حياته الزوجية . وما سوى ذلك « فهو باطلٌ ، وقبضُ الريح . . »

تزوج القوتلى بنت إحدى الأسر العريقة فى دمشق سنة ١٩٢٨ ، وكان قد خطبها سنة ١٩٢٣ ، وحالت الثورة السورية ، وانشغاله بها عن نفسه ، دون إتمام الزواج . واضطر بعد فشل الثورة ، والحكم عليه بالإعدام للنزوح إلى مصر — حيث لحقت به أسرة خطيبته . وبنى على زوجته فى مدينة القاهرة وهى ما تزال رفيقة حياته إلى الآن . وله منها خمسة أولاد : صبيان — أكبرهما « حسان » ، ويكنى به أبوه ، ويدرس مهندس بترول فى إنكلترا ، ومحمود ويدرس الهندسة الميكانيكية فى سويسرا . وثلاث بنات تزوجت إحداهنَّ « فائز العجل » قنصل سورية الفخرى السابق فى مدينة الإسكندرية ، وأنجبت منه ولداً . ولزوجها فى المجتمع مكانٌ مرموقٌ ، ومنزلةٌ رفيعة . وتوفى للرئيس القوتلى طفل قبل أن يكمل السنة الأولى من عمره .

وعقيلة القوتلى من كرام السيدات . مرت معه فى ظروف قاسية ، وفى ليال حالكة السواد . فكانت رفيقته فى حياته وكفاحه ، وكانت فى جميع الحالات مثالَ المرأة التقية الصابرة المخلصة . وأنجبت منه أولاداً غذتهم من روحها لبان الفضيلة ، والعفة ، والاستقامة . وأنشأتهم تنشئة كريمة ، تليق بأبناء القوتلى ، وتجعلهم جديرين بحمل اسمه العظيم .

وأولاد شكرى القوتلى — كشكرى القوتلى . . وداعةً ، واستقامةً ، وطيباً ،

وكرمٌ خلق ويد ، وعفةٌ لسان ووجدان ؛ وترفع عن مزالق الشهوات ؛ وتسام
عن جميع المغريات .

* * *

يستيقظ القوتلى فى الساعة الخامسة من صباح كلِّ يوم . وبعد أنْ
يؤدىَ صلاة الفجر « يرتل » جزءاً من القرآن الكريم . ثم يخلد إلى فراشه ساعة ،
أو بعض الساعة ، وينهض ليسمع نشرات الأخبار ، ويطالع جرائد الصباح ،
ويدون ملاحظاته عليها . ثم يتفقد أفرادَ أسرته واحداً واحداً . ويتناول معهم
طعام الإفطار . ثم يستهل أعماله اليومية باستقبال الزائرين .

ومن مزايا القوتلى ، أنه لا يرفض مقابلةَ من يود مقابلته . ويرحب بزيارة
الجميع على اختلاف مراكزهم ، وميولهم ، وجنسياتهم . فالحياة الديمقراطية أصيلةٌ
فى نفسه ، عميقة الجذور فى طبعه ، وهو لا يرد طلب طالب ، ولا يحجم عن
إغاثة ملهوف . وأحب شىء إلى نفسه ، أنْ يبرئ مكلوماً ، وينقذ مظلوماً ،
ويقيل عثرة منكوب . وكثيراً ما يقف سيارته على الطريق ، ليصطحب معه
فقيراً ،ويستمع إلى شكوى مظلوم. وهو يردد دائماً : « هذا بيتُ الشعب يدخله
من يشاء ، فى أىّ وقت يشاء — آمناً مطمئناً . » .

وكثيراً ما كان يحنقُ على بعض موظفى القصر إذا علم أنهم أقصوا قاصداً ،
وردوا طالباً ، وحالوا بينه وبين مقابلة الرئيس؛ وحاول « مرافقه » أن يقصر
المراجعات على القصر الجمهورى وحده ، فأبى فخامته . وكان يقول له : إن
الذى يذهب إلى القصر الجمهورى يذهب لمقابلة رئيس الجمهورية . والذى
يأتى إلى بيتى يأتى لمقابلة شكرى القوتلى ، ولا أريد أن يكون بينهم وبينى
حارس ولا بواب .

وبعد أن يفرغ فخامته من الزيارات ، ومن النظر فى شؤون الناس ،
ينصرف إلى أعماله الخاصّة ومعالجة بعض القضايا ، وإعطاء التوجيهات اللازمة
بشأنها .

ويتناول طعام الغداء مع ضيوفه وقليلا ما تخلو مائدته من مدعوّين ، وإذا
لم يكن عنده مدعوون فيتناول الغداء مع أفراد أسرته جميعاً .

وبعد الغداء يستمعُ إلى نشرات الأخبار . ثم يطالعُ الصحف المسائية ،
وما تبقى من صحف الصباح . وبعد أن يكونَ قد صلى الظهر والعصر ، ينام
ساعة كاملةً ، ثم يستيقظ ، ويجلس فى مكتبه يطالع بعض الكتب . ويستمر
فى المطالعة حتى غروب الشمس . وبعد أنْ يصلى المغرب ، يصطحب معه
أحد أفراد أسرته ، ويذهب لمزاولة رياضته المفضلة ، وهى المشى بين الأشجار ،
فى إحدى ضواحى دمشق وبعد عودته يجلس للاطلاع على بريده اليومى ،
وهو لا يغفل رسالةً واحدةً دون قراءة أو تعليق . ويدون ملاحظاته على كل
رسالة . ويتركها لسكرتيره الخاص للإجابة عليها . ثم يستقبل الزائرين .

وزائرو المساء هم أصدقاؤه القُدامى ، ورفاقه الخلّص ، الذين يأنس
بالجلوس إليهم ، واستعادة الزكريات معهم ، ومناقشتهم بالقضايا العامة .

وإذا كان عليه واجب زيارة فإنه يقضيه بعد نزهة الغروب .

ويأخذ عشاءه مع أفراد أسرته ، ثم يعكفُ بعد ذلك على مطالعة بعض
الكتب ، وتدوين مذكراته عليها . وبعد أداء صلاة العشاء يخلد إلى فراشه —
لينهض فى الساعة المبكرة من صباح اليوم الثانى ، ويستأنف عمله اليومى ، على
النحو الذى ذكرناه .

ويذهبُ أحياناً إلى مزرعته « بالا » — الكائنة فى غوطة دمشق — ويقضى
كل نهاره ، أو جزءاً منه فيها ، وحينئذ يتبدل برنامجه اليومى .

وفخامته يملك مكتبة غنيةً بالكتب القيمة ، وعامرةً بمختلف أنواعها .
وهى مبوبة تبويباً متقناً دقيقاً . فالكتب العلمية مرقمة فى فهرس خاصٍ .
وكذلك الكتب الأدبية ، والتاريخية ، وو . . . إلخ . وهو يجيدُ ، إلى جانب
لغته العربية ، اللغات : التركية ، والإنكليزية ، والفرنسية .

والقوتلى لا يدخن إلا نادراً . ولم يشرب فى حياته شيئاً من المسكرات .

وهوايته المفضلة المطالعة ورياضة « المشى » كما ذكرنا ، والإشراف على أعماله الزراعية ، التى تدر عليه دخلا متوسطاً يمكنه من النهوض بأعبائه المادية الكثيرة .

* * *

قليلون الذين يعرفون أن شكرى القوتلى لم ينفق على نفسه ، ولا على أسرته ، غرشاً واحداً من راتب الرئاسة ومخصصاتها طيلة مدة رئاساته الثلاث . وإنما كان ينفقه كله على أعمال البر والإحسان ، وعلى الأسر الفقيرة ، والمستورة . وكان قد رفض أن يخرج له أى راتب من الخزينة — ثم رأى أن يعين به أسراً منكوبة ، وناساً معوزين . وهكذا كان .

والدولة فى كل بلاد الدنيا ، تقدم لرئيسها بيتاً يسكنه . ولكن شكرى القوتلى رفض السكنى فى بيت تدفع أجره الدولة — فمن بستان الرئيس ، إلى العفيف ، إلى شارع الجلاء أخيراً ، كان شكرى القوتلى يدفع أجر بيته من ماله الخاص . ولم تصرف خزانة الدولة غرشاً واحداً عليه فى رئاساته الثلاث . . .

وبيته الحالى ملك الأمير فهد السالم الصباح مدير أشغال وبلدية الكويت . وقد رفض الأمير النبيل أن يتقاضى أجر البيت من صديقه شكرى القوتلى . ورفض شكرى القوتلى أن يسكن بيتاً بدون أجر . ثم اتفق الاثنان على أن يدفع الأجر باسم الأمير المحسن إلى أسر الشهداء المنكوبة — وهكذا كان .

وحتى سيارة الرئيس القوتلى الرسمية — بصفته كان رئيساً للجمهورية — فإنه لم يستعملها فى تنقلاته الخاصة مطلقاً . . وإنما كان يستعمل سيارته العادية فى شؤونه وشؤون أسرته جميعاً .

وموظفو القصر المطلعون يعرفون هذا ويشهدون بأن شكرى القوتلى ، كان يحرم على نفسه درهماً واحداً من راتبه وتعويضاته كرئيس للجمهورية . وكان يضع ذلك كله تحت تصرف « المحاسب » ، أو تحت تصرف « الأمين العام » ، لصرفه فى أوجه الخير على المعوزين . وحينما كانت تزيد نفقات الحفلات

الرسمية على الاعتمادات المرصَدة فى الموازنة ، كان يسدد العجز من ماله الخاص ، ولا يطلب اعتماداً جديداً . وحينما اضطر لمغادرة البلاد بعد انقلاب حسنى الزعيم عهد إلى صهره زوج شقيقته — فريد صدقى — بمتابعة الإنفاق على العوائل المستورة التى كان يعولها ، وينفق عليها . ولم يتوقف عن الإنفاق عليها حتى الآن . ويتحدث موظفو القصر ، أنه لم ترد رسالة بطلب معونة من أى كان — إلا وأجيب صاحبها إلى طلبه . وأسعف بما قدر له من مال . وحتى فى الإسكندرية كان ينفق على عوائل مستورة طيلة مدة إقامته فيها . ويضطلع من بعده صهره فائز العجل ، بهذه المهمة الإنسانية ، إلى جانب مهامه الوطنية والاجتماعية الكبيرة . والأسر المستورة التى كانت — وما تزال — تتقاضى راتباً شهرياً من فخامته ، لا يعرف أسماءها إلا « فؤاد الحلبى »[1] ، وقليلون من المؤتمنين .

ولكن — كما قال الشاعر القروى :

تنكُّرُ الفضل زادَ الفضلَ معرفةً ... كأنما برقعاهُ الشمس والقمرُ

وكم من أسرة معوزة نديتْ كف فخامته بالخير لها ، فنديت حياتها المجدبة الظامئة ، وعمرتها بالسعادة ، وغمرتها بالحنان . .

وكم من أسرة هبط عليها الليل بوشاحه القاتم ، ووجهه المكفهر العبوس فأضاء ظلمته ، وبدد وحشته ، فيضٌ من آلاء شكرى القوتلى ، وقبس من إشعاع روحه ويده .

وكم من أسرة نكبت بفقد معيلها ، وزوال رجلها فمن الله عليها بعاطفة الرجل الخير الكريم ، الذى يبذل فى سبيل الله ، ويعطى من أجل العطاء ، لا من أجل منفعة دنيوية وغاية شخصية :

كالغيم ليس له ، أُريدَ غياثُهُ ... أو لم يُرِدْ ، بدٌّ من التهطال

(١) قراء هذا الكتاب مدينون للسيد فؤاد الحلبى بالاطلاع على كثير من المعلومات التى وردت فيه .

وقصة الأسرة التي أقدم ربها على الانتحار ، فراراً من فقر أصابه وعوز ضايقه ، وفاقة لم يجد سبيلا للخلاص منها ، فأسرع القوتلي لنجدتها ، ورد غائلة البؤس والفقر عنها .

وقصة الأسرة – التي هُددت بإخراجها من البيت ، إذا لم تدفع أجوره المتراكمة ، فأسرع لمساعدتها ، ودفع الأجور عنها .

وقصة الأسرة التي باعت كل ما تملك لتعيش . ثم صارت تنام على فراش من « القش » ، وأدركها المرض والسقام ، فامتدت إليها اليدُ الكريمةُ تفرش بيتها ، وتخصص مرتباً شهرياً لها .

هذه القصصُ ، وأمثالها كثير ، لم تنسج من العاطفة ، ولم تحبك من الخيال . إنها من صميم الحقيقة والواقع .

وأخيراً . . . كأن أبا تمام قد عنا شكري القوتلي بقوله :

ولو لمْ يكنْ في كفهِ ، غيرُ نفسهِ   لجـادَ بها ، فليتقِ اللهَ سائلُه

كلمات مختارة – للرئيس القوتلي

● إن عوامل الاستقرار ، ودعائم العدالة الاجتماعية ، والأخذ بأسباب التنظيم العملي والعلمي ، والدعوة إلى التنافس الخيّر ، والبعد عن التناحر البغيض – شؤون لا يستقيم لها ميزان إلا بإقامة قواعد صحيحة للحياة الحرة ، فلا تنقلب الاتجاهات الحزبية إلى تيارات عداء وكراهية ، ولا تنحدر إرادة الإصلاح ، والتنافس في سبيله ، إلى حضيض الخصومات الشخصية .

● ليس أعدى للحرية من إساءة استعمالها ، وإشاعة الفوضى باسمها . . . ونحن في شدة حرصنا على الحرية نطمع إلى توسيع مدارك الشعب ، وتثقيفه ، والنهوض به ، ليكون يوماً بعد يوم أبعد وأرفع عن مواطن الخضوع والإذعان والذلة .

● الوطنية لا تعرف الحلول الوسطى .

● إنّ كل استتباب أمر ، وكل استقرار نظام حكم يجب أن يحاط بسياج من السلامة الوطنية الشاملة .

● السياسة – في نظري – مدرسة أخلاق . ويجب أن يكون رجالها رجال سماحة وكرم وعلم ، ونزاهة وتجرد ، وإعطاء مثل في إنكار الذات . .

● إن سورية تأبى أن يرتفع في سمائها لواءٌ يعلو على لوائها – إلا لواء واحد ، وهو لواء الوحدة العربية .

● الاستقلال الذي ظفرنا به – بفضل جهاد الشعب ، وكفاحه ونضاله ، وصبره واتحاده – هو أمانة الشهداء في أعناقنا ، لنورثه أبناءنا ، سليماً قوياً منيعاً .

● إننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا ، لنفتح صفحة الجهاد لصيانته وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به . فالسبيل ليس هيناً

ولا يسيراً ، ولكنه أمام إرادة الشعب ليس أمراً عسيراً .

● إن قضية فلسطين قضيتنا ؛ وخلاصها من الصهيونية ركن أساسىٌّ من أركان سياستنا ؛ وفى إنقاذها ضمان لسلامة بلادنا ، ومستقبل أبنائنا .

● مهما تباينت نزعاتنا واجتهاداتنا ، فإننا متفقون على مبادئ كبرى رئيسية هى مبادئ الاستقلال والسيادة والحرية .

● إن على عواتقنا ألقيت مسؤوليات ضخمة — يجب أن ننهض بها ، ونؤدى رسالتها . فكيف ننهض بها إذا كنا مثقلين بمتاعبنا الشخصية . وكيف نكون جديرين بالرّسالة إذا كنا متفرقين شيعاً وأحزاباً ؟

● إننا لا نضمر الأذى لأحد . بل نريد الخير لأنفسنا ولسوانا . ولكن إذا حملنا على الشر ركبناه . وإذا لحق بنا الضر دافعنا عن كياننا بكل إباء وشمم .

● لنترك الماضى بحسناته وسيئاته . ولنلتفت إلى المستقبل — بكل ما فينا من أمل وعزم وإيمان ، فالماضى ليس إلا للعبرة وتلقى الدروس والعظات .

● إنّ وحدة العرب بمعنى من معانيها ، وبفضل وعى الأمة العربية بكافة طبقاتها وأقطارها ، هى اليوم أقرب منها فى أىّ لحظة مضت إلى التحقيق العملى .

● نحن أمة ذات ثقافة — والثقافة تتنافى مع العجز والمرض والخمول . ونحن أمة ذات رسالة — ومن يحمل الرسالات الكبرى يجب أن يعد نفسه إعداداً قويًّا لتحمل الأعباء والمشاقّ .

● إننا فى سبيلنا إلى الإصلاح الاجتماعى ، ورفع مستوى المواطنين ، لن نألوا جهداً فى سبيل إرساء القواعد المتينة لدولة حديثة ، تأخذ بجميع أسباب النهوض والرقى مسايرة للركب الإنسانى المتصاعد ، عدتها للثقافة الواعية ، والبنية القوية ، والعدالة الاجتماعية الوارفة الظلال .

● إن هذا الشعب الذى كان سباقاً فى ميدان الجهاد الوطنى ، فى سبيل حرية أرضه ، مدعوٌّ أبداً إلى مواصلة جهاده القومى فى سبيل حرّية أرض الوطن العربى ووحدته .

● لقد مضى زمن الجزئيات الوطنية المنعزلة بين أسوار القرون الوسطى وقلاعها . وأقبل العالم فى العصر الحديث على تكامل أجزائه تحت ضغط الحاجة المشتركة ، بالرغم مما تتفاوت به هذه الأجزاء عنصراً ، ولغة ، ومقومات جماعية أخرى . وليس من نواميس التطور فى شىء أن يقبل العرب برسالتهم الكبرى على رحاب العالم الجديد متفرقين دُوَلاً ، ليس بينها سوى حدود مصطنعة ركزتها أطماع الطامعين .

● إن سبيلنا إلى الوحدة الوطنية — هى سبيلنا نفسها نحو الوحدة القومية .

● إنّ الحياة الديموقراطية ، وفى قاعدتها الأحزاب السياسية ، لن تعجز فى أيام الشدة والمحنة أن تضع فوق قاعدتها مبدأ السلامة الوطنية .

● إن الوحدة العربية ليست فى دستور الشعب السورى كلاماً وقسماً فحسب ، بل هى فى ضمير كل مواطن سورى منقوشة فى صدره ، محفورة فى شغاف قلبه . إنها الرئة التى يتنفس بها والقلب الذى يدفع فى ساعديه حرارة ودماً وإيماناً .

● إنّ هذا الكيان السورىّ ، بكل أعصابه وعروقه ، وبكل إمكانياته وأسباب حياته ، إنما هو النزوع المطلق والطموح العنيف إلى الوحدة المنشودة .

● إننا نحمل أعباء رسالة قومية فى هذا العالم ، هى فى الصميم رسالة إنسانية ، مبعثها كل ما فى ضمير هذا الشرق من أسمى مبادئ الدين القويم ، والخلق النبيل .

● نحن العرب إنما نؤمن بحقّ تقرير المصير لجميع الشعوب الطامحة إلى حياة الكرامة والحرية .

● إنما الصهيونية فتنة مدمرة ، ودعوة إلى الحرب الشريرة ، والوثنية الضالة ضدّ كل مبادئ الدّين والأخلاق .

● إنّ هذا الدور الذى ينتظر الذرة فى تطوير الحضارة الحديثة يحمّل العلم مسؤولية عظيمة ، تجاه الإنسانية القلقة على حاضرها ، وتجاه الأجيال القادمة

التى نبنى نحن مستقبلها . فلتكن مسؤولية العلم الكبرى أن يضع قوى الذرة فى خدمة السلم ، وبذلك يمهد للبشرية أن تبدأ عصرها الذهبى — عصر الإنسان .

● إننا فى كل مشكلة من مشاكل الأمة العربية فى نزاعها مع الاستعمار لا نجابه الأمر وسطاء أو متدخلين أو أنصاراً ، بل نجابهها أصحاب قضية وفرقاء أصلاء .

● إنّ رسالة النضال القومىّ رسالة واحدة للمناضلين بسواعدهم وللمناضلين بأقلامهم — لأنها رسالة الحرّية والكرامة الإنسانية .

● لم تكن سياسة الأحلاف كما عرفناها منذ اللحظة الأولى سوى استدراج إلى سياسة المعسكرات والتجزئة وتركيز لأهداف السيادة والسيطرة .

● لم يكن فى حساب الاستعمار أنّ الأمة العربية بلغت شأوَ القادرين لتثب على الطوق ، وتخلع الأوتاد . وقد حجبه عن الحقّ غروره وحقده .

● فالأمة العربية التى يؤلف الشعب السورى جزءاً لا يتجزأ منها ، تؤمن إيماناً مثالياً بالمبادئ السياسية التى تقوم على أسس وطيدة من الأخلاق فى المقام الأول . وهذا الإيمان هو من روح حضارة الأمة العربية وذاتها .

● لم يكن يداخلنا الارتياب يوم حمل البغاة على مصر العزيزة ، فى أنهم إنما يوهنون جانباً عربياً ، ليصدعوا به شتى الجوانب ، وأنهم يرمون إلى تأديب أصغرنا بأكبرنا . ويصبّون الطلقة إثر الطلقة إلى صفوفنا ليسكتوا فيها مراكز الانطلاق .

● فلا عاش السكوت على الأذى ، ولا عاش الركوع والخنوع ، ولا عاش احتمال الضيم ورؤية جانيه ، ولا عاش الاستقرار رهينةً فى مخالب الاستعمار . . ولا عاش السلام على الأرض محمولاً على مناكب العبيد ، مضرجاً بدم الأبرياء . . ولا نامت أعين الجبناء . .

● إن الشعب هو القنبلة الذرية ، وهو القنبلة الهيدروجينية ، هو الذرة وتفجيرها ، وهو الطاقة وتعميرها . هو النار والنور ، والجبهة الأولى والأخيرة .

● ليس « جول جمال » وحيداً فى تاريخ نضالنا المشترك ، مسيحيين ومسلمين ، فى سبيل الدفاع عن أرض هذا الوطن والدفاع عن القومية العربية .

● لقد كان مؤتمر باندونج إعراباً صادقاً عن هذه الروح الشرقية الجديدة التى ما إن بانت ملامحها حتى اهتز لها العالم ، وأيقن بأن الساعة قد حانت ليتغير وجه التاريخ .

● . . نحن لسنا بحيادنا انعزاليين عن حركة الكون فى طموحه إلى الأفضل والأحسن بل نحن إيجابيون ، نمد يدنا إلى كل عمل مثمر ، وحركة بناءة . ونضع أنفسنا حيث يضع الملايين من أبناء هذا الشرق أنفسهم فى صفّ الحرية والعدل أينما كانت الميادين .

● إن نشوء الكتلة الآسيوية الإفريقية فى الشرق ، هو بالواقع ميلاد إنسانية جديدة ، وإشراق فجر جديد فى حياة العالم ، وإن قيام هذه الكتلة الكبرى ذات الملايين فى هذا الشرق العظيم ، على أساس المبادئ الخمسة ، ومقرّرات مؤتمر باندونج ، لحدث جليل من أحداث الكون ، من شأنه أن يفتح صفحةً ذهبيةً فى سجل حقوق الإنسان .

● كلما حملتنى الأسفار بعيداً عن بلادى ، ونظرت إليها من تلك الأبعاد والخطوط صغيرةً فى رؤية البصر ، كبيرة عظيمة فى رؤى الشعور والحبّ والحنين . كلما نظرت إلى بلادى ، وأنا بعيد عنها ، نظرت إلى وطن صغير ، فى نقطة تائهة على خريطة الكون ، تظل تنتشر سعةً وارتفاعاً ، وتدفقاً وإشعاعاً ، حتى تتلألأ فى صفحتها صورة المجد العربىّ الجليل ، وألف ألف صورة ولون وظلّ ، فى ملك عربى عريض ، تدفقت سراياه فى أرجاء الأرض ، شرقاً وغرباً ، من أواسط أوربة حتى أقاصى الهند والصين . كلما نظرت إلى بلادى ، وكلما تحدثت عن بلادى ، نظرت إلى شىء واحد ، وتحدثت عن شىء واحد — هو وحدة الوجود العربىّ ، ووحدة التاريخ العربى ، ووحدة الشعور العربى .

● . . وهناك — فى الهند وباكستان — تلاقينا تيارين متحدرين من ينبوع آسيوى واحد ؛ فما لبثنا أن تعارفنا على أنوار اللهيب الذى هتك ستور الظلام فى المجاهل الآسيوية البعيدة ، ليلقى على آفاق المستقبل أشباح الملايين من أبناء الإنسان الذين غابت عن أبصارهم شمس الاستعمار ، لتشرق عليهم شمس الحرية التى لن تنطفئ إلى الأبد . .

● إننا فى موقفنا هذا الذى ارتضيناه لأنفسنا عن اقتناع ، ويقين ، لا نحابى ولا نصانع ولا نريد أن نكون ليمين أو ليسار ، لشرق أو لغرب ، إلا بقدر ما ننفع به قضايانا الحقة العادلة ، وقضية الحق والعدل والسلام .

فهرس الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

شكرى القوتلى

تاريخ أمة فى حياة رجل

هذا الكتاب هو تاريخ أمة فى سيرة رجل . فتاريخ شكرى القوتلى هو تاريخ سوريا والأحداث التى مرت بها منذ سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٥٨ ، من مقاومة الأتراك ، إلى محاربة الفرنسيين ، إلى الوقوف فى وجه تشرشل ، إلى معارضة الأحلاف العسكرية . . .

إنه كتاب يضم أخباراً هامة لم تسبق إذاعتها ، وأسراراً دفينة لم يسبق نشرها . ووقائع ذات أثر عظيم لم تسجل من قبل . . . فيه أسرار الانقلابات العسكرية السورية ، وأسرار معركة فلسطين ، وخيانة بعض حكام العرب وتآمرهم مع الصهيونية والاستعمار ، وفيه جلاء لعهود الاحتلال والانتداب ، ولنضال سوريا الجبار ، واتحادها مع شقيقتها الكبرى مصر فى جمهورية عربية متحدة . . .
كل هذا فى ديباجة عربية مشرقة وفى أسلوب متحرر من الاستطراد التاريخى . .

دار المعارف للطباعة والنشر